

أدب الورثات في العصر العثماني

إلى نهاية القرن الرابع

د. أحمد أمين مصطفى

كلية الآلسن جامعة عين شمس

١٩٩٠

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

أَدْلُوْرَضِيَا فِي الْعَصْرِ الْعَبْرِيِّ

إِلَى نِهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ

د. أَمْمَادِينِ رَضْفَى

كُلِيَّةِ الْأَلْسُنِ جَامِعَةِ عَيْنِ شَمْسٍ

١٩٩٠

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية.



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

مقدمة

الوصايا فن مهم من فنون النثر الأدبي ، فهي تكشف عن عقلية المجتمع وعن أفكاره واهتماماته ، ومثله وأماله ، وتكشف أيضاً عن كثير من ظروف المجتمع السياسية والاجتماعية والدينية .

وقد عرفت الوصايا في الأدب الجاهلي ، غير أن ماحفظ لنا من هذه الوصايا لم يكن كثيراً ، وليس هذا بداعاً بين فنون النثر ، فقد وصل اليقى كثير من الشعر الجاهلي وقليل من النثر ، وعلل مؤرخو الأدب ذلك بسهولة حفظ الشعر وشيوعه على الألسنة .

ووجدت الوصايا في أدب صدر الإسلام ، وفي العصور التالية له ، وهذا أمر متوقع ، فهناك الكبير والصغر ، وهناك العالم والمتعلم ، وهناك الامام والمؤمن . وهكذا .

ومن هنا تأتي الوصايا نابعة من ظروف المجتمع وقيمه وعقلية أفراده .

وكان العصر العباسي نقلة كبيرة في حياة المجتمع العربي ، وظهرت ملامح جديدة في حياة المجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية ، وصورت الوصايا كثيراً من هذه الملامح ، وتطورت الوصايا على مر السنين تبعاً لتطور الظروف .

ولم تزل الوصايا من اهتمام مؤرخي الأدب ملأائله الرسائل والخطب ، ووردت الوصايا مبعثرة في صفحات الكتب ، ولم يهتم مؤرخو الأدب في العصر الحديث بجمع هذه الوصايا ودراستها والكشف عن سماتها وعما تصوره من ظروف وأحداث ، وكانت الجهود التي بذلت في هذا المجال - على قلتها - موجهة إلى العصر الجاهلي والإسلامي ، أما العصر العباسي فلم يتب شيناً يذكر من هذه الاهتمامات .

لذلك خصصت هذا الكتاب لدراسة الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع ، أما سبب هذه التخصيص فيرجع إلى أمرين : أولهما طول فترة العصر العباسي حيث تمتد إلى أكثر من خمسمائة سنة ، فلا يتسع كتاب واحد لدراسة هذه الفترة ، وثاني الأمرين أن هذه الفترة التي اخترتها أكثر الفترات ازدهارا في تاريخ الأدب العربي وأحفلها بالأحداث والآراء .

وقد عثرت على كثير من الوصايا في كتب التراث الأدبي وفي كتب التاريخ ، ومن أهم هذه الكتب كتاب العقد الفريد ، وزهر الأداب ، وصبح الأعشى ، والأدب الصغير والأدب الكبير ، وتاريخ الطبرى ، والكتب التي ضمنت رسائل الأدباء في القرن الرابع الهجرى مثل كتاب رسائل الخوارزمي ورسائل بديع الزمان الهمذانى ، وجمعت من هذه الوصايا ما يكفى للتوضيح للسمات الفنية لأدب الوصايا .

وسأبدأ الكتاب بتمهيد أعرض فيه بعض الوصايا في الفترة التي سبقت العصر العباسي ، ثم أتحدث عن أبرز الملامح لوصايا العصر الجاهلى ووصايا صدر الإسلام وبني أمية ، حيث يتضح لنا بعد ذلك مظاهر التطور في العصر العباسي .

وسأجعل الكتاب بابين ، أخصص الباب الأول للحديث عن اتجاهات الوصايا في العصر العباسي ، وسأقسمه ثلاثة فصول ، أتحدث في أولهما عن الاتجاهات السياسية ، وفي ثانيتها عن الاتجاهات الاجتماعية وتدرج معها الاتجاهات الثقافية ، فالثقافة إنما هي ظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، وسأتحدث في الفصل الثالث عن الاتجاهات الدينية ، وسأوضح الظروف التي قيلت فيها الوصايا ، والمبادئ التي تدعو إليها ، وسأتناول الوصايا التي قيلت في ظروف خاصة مثل وصايا البخلاء والمكدين والمتغطفين .

أما الباب الثاني فسأخصصه للحديث عن الخصائص الفنية لأدب الوصايا ، فأتحدث فيه عن أهم الموضوعات التي طرقتها والعوامل التي وجهت إليها ، وأتحدث عن الأفكار والمعانى جديدة وقديمها ، وعن العواطف التي تسودها ، وعن مدى تأثيرها بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وعن حظ الوصايا من الإيجاز والاطنان ، كما أتحدث عن سمات الأسلوب من حيث

الألفاظ والعبارات ، ومن حيث التصوير البيانى ، ومدى اهتمام المؤصنين بالسجع والمحسنات البدعية ، وسأستقصى القوالب الفنية التي تصب فيها الوصايا كالرسائل والخطب والتوصيات والمعهود والأبيات الشعرية ، كما أتحدث عن مطالع الوصايا وخواتيمها ، والقى نظرة على المؤصنين الذين يصدرون هذه الوصايا .

وأخيرا سأتحدث عن المدارس الفنية التي ينتمى إليها أدب الوصايا ، وأفضل الحديث عن سمات هذه المدارس ، ونوجز في الخاتمة أهم القضايا التي توصلنا إليها في هذا البحث . وبالله التوفيق .

د. أحمد أمين مصطفى

تمهيد

الوصايا قبل العصر العباسي

(أ) في العصر الجاهلي

لا نظن أن أدبا من الأداب يخلو من الوصايا في أي عصر من العصور ، فالآباء والأمهات يوصون أبناءهم وبناتهم ، والكبار يوصون الصغار ،- والرؤساء يوصون الأتباع ، وعلماء الدين يوصون الحاكمين والمحكومين ، وقد تكون هذه الوصايا سياسية أو اجتماعية أو دينية .

ويغلب على هذا اللون صدق العاطفة ، فالآباء والأمهات صادقون في وصاياتهم لابنائهم وبنائهم ، والكبار صادقون في وصاياتهم لصغرتهم وأتباعهم ، وعلماء الدين كثيرا ما يصدرون عن عاطفة صادقة في وصاياتهم ، وقد نرى في العصر الأموي وفي العصر العباسي وصايا دينية نابعة عن رغبة في الشهرة أو كسب الرضا ، ولكن هذه الظاهرة لم تكن موجودة في العصر الجاهلي .

ومعروف أن للجاهليين على وجه العموم كلنوا أميين لا يقرعون ولا يكتبون ، وبالتالي فان النثر الجاهلي لم يكتب ، ولم يحفظ الرواية منه مثل ما حفظوا من الشعر الجاهلي ، وتعليق ذلك أن الشعر أسهل حفظا وأعلق بالقلوب من النثر ، وكان لكل شاعر زاوية يحفظ شعره ويرويه ، وتوارث الرواية تلك الأشعار حتى وصلت إلى عصر التدوين فدونت ، أما النثر الأدبي فلم يكن له مثل هذه المكانة في قلوب الناس .

وقد حفظت لنا بعض الوصايا الجاهلية ، ومعلوم أن فترة العصر الجاهلي لا تتعدي قرعين من للزمان على الأكثر ، وقد أوردت بعض الكتب وصايا منسوبة إلى عصور سحيقة قبل الإسلام ، وغضن تشكي في هذه الوصايا

ونحسب أنها منحولة ، ومن هذه الكتب (كتاب وصايا ملوك العرب في الجاهلية) (١) ويقع في أربعين صفحة من القطع الصغير ، وأورد وصايا لهود عليه السلام ، ووصايا لقططان ويعرّب ويشجب عبد شمس وسباً وحمير وكهلان والهميسع وأيمن وزهير وعريب بن أيمن والغوث وزرعة والرايش وأبرهة ذي المنار وذى الأزارع وتبع بن ذى الأزارع وأسعد الكامل وتبع بن زيد وياسر بن قبع وشمر ذى الجناح وذى مقار وذى حواى وذى مناخ وذى الكلاع وذى أصبع وسيف بن ذى يزن .

و واضح أن معظم هذه الشخصيات موغل في القدم أو غير معروفة لنا ، وقد تقبل مبدئياً بعض هذه الوصايا المنسوبة إلى شخصيات معروفة مثل سيف بن ذى يزن ، ولكننا نرى بعض هذه الأحاديث يبدو عليها الاختراع ، فهى تزعم أن سيف بن ذى يزن بشر عبد المطلب بظهور محمد عليه السلام ، وأوصاه به ، وأخبره أن هذا الغلام يموت أبوه وأمه ، ويكتله جده وعمه ، ولسنا نشك في مجرد البشارة بظهور محمد ولكننا نشك في هذه التفصيات .

وهناك كتاب بعنوان (الوصايا الخالدة) (٢) ضم وصايا جاهلية ، ووصايا إسلامية وفيه وصايا من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وجمع أبو حاتم السجستاني وصايا في كتابين هما (كتاب المعمرين وكتاب الوصايا) وطبعاً في كتاب واحد بعنوان (المعمرون والوصايا) (٣) ويضم الكتاب وصايا جاهلية وأسلامية وأموية .

ومن أشهر الوصايا الجاهلية وصية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلاً زفافها ، ونورد هذه الوصية هنا كما أوردها الأ بشيهي . يقول : « لما خطب عمرو بن حجر الكندى إلى عوف بن مسلم الشيبانى ابنته أم اياس أقبلت عليها أمها ليلاً دخلوها توصيها فقالت : أى بنية ، انك مفارقة بيتك الذى منه خرجت ،

(١) وصايا العرب في الجاهلية . تأليف يحيى بن الوشاء . مطبعة بغداد .

(٢) الوصايا الخالدة جمع الاستاذ عبد البديع صقر . دار غريب للطباعة .

(٣) المعمرون والوصايا . أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد . دار احياء

وعشك الذى فيه درجت ، الى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة ليكون لك عبدا ، واحفظنى له خصالا عشرة يكن لك ذخرا ، فأما الأولى والثانية فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك الا أطيب ريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فان شدة الجوع ملهمة ، وتنغيص النوم مغيبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحزان لما له والاراء على حشمه وعياله ، وأما التاسعة والعشرة ، فلا تعصى له أمرا ولا تخشى له سرا ، فانك ان خالفت أمره او غرت صدره ، وان أفشيت سره لم تأمنى غدره ، واياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، والكافحة لديه اذا كان فرحا » فقبلت وصية أمها (١) .

وتكشف هذه الوصية عن أن الجاهليين كانوا يعنون بتنمية أسلوبهم في الوصايا حتى يكون له وقع جميل ويكون هذا عاملا مساعدا على الاصفاء إلى الوصية ثم التأثر بها ، ونرى الوصية هنا تلتزم السجع وتعنى بالازدواج وتحوى الطلاق والجناس ، اما التزام السجع فواضح في الوصية ، وتعنى الوصية بالازدواج كما في قولها : « الى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه » ، ومن أمثلة الجنس : خرجت ودرجت في قولها : « بيتك الذي منه خرجت ، وعشك الذي فيه درجت » ، ويبدو الطلاق والمقابلة في قولها : « واياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، او الكافحة لديه اذا كان فرحا » .

ولانشك في أن أم الأم قد أعدت الوصية في نفسها قبل مواجهة ابنتها ، وقد عدلت الخصال التي ستوصي بها فوجذتها عشرة كما أعلنت ذلك في مطلع الوصية ، ثم خطرت لها خاطرة أخرى بعد استكمال الوصايا العشرة فأضافتها وقالت : « واياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، والكافحة لديه اذا كان فرحا » .

وتكشف الوصية عن عقلية ناضجة متفتحة ، وأمامها هنا خبيرة بنفسيات

(١) المستطرق ج ٢ ص ٤٧٩ شهاب الدين محمد بن أحمد الاشيشي . دار الكتب العلمية بيروت .

الرجال وهى أيضا ذات نظرة شاملة تستطيع أن تحيط بالجوانب المتعددة ، وقد عرفت ذلك من معاشرتها لزوجها ومن ملاحظاتها لمن حولها .

وتكشف الوصية أيضا عن بعض الأخلاق السائدة في ذلك المجتمع ، وتعطينا صورة عن احترام المرأة للرجل وطاعة المرأة لزوجها ، ووفاء الزوج لزوجته ما أطاعتته بورعت ما يجب عليها رعايته ، فهـى تقول : « فكونى له أمة يكن لك عبدا » . وهذا طاعة الزوجة وتقدير الزوج ، وتكشف الوصية أيضا عن أن الأم كانت توصى ابنتها قبل الزواج وتعطيها خلاصة تجاربها .

وإذا ألقينا نظرة فنية على هذه الوصية وجدناها تتم على سلسلة لغوية سليمة ، فهـى تبدأ الوصية بقولها : « أى بنية » لتجذبها ولتشعرها بأنـها صغيرة ليست لديها خبرة أـمـها ، وليس هناك أحـرـصـ من الأم على مصلحة ابنتها ، ثم قولـها : « كـونـىـ لـهـ أـمـةـ » يـوحـىـ بـالـخـضـوعـ التـامـ وـالـطـاعـةـ المـطلـقـةـ ، وـلـيـسـ هـذـاـ بـدـوـنـ مـقـابـلـ فـسـيـكـونـ النـوـجـ لـهـ عـبـدـاـ ، وـتـحـرـصـ الـأـمـ عـلـىـ التـكـرـارـ لـتـأـكـيدـ الـعـنـىـ وـتـثـبـيـتـهـ فـىـ نـفـسـ اـبـنـتـهـ ، وـمـنـ ذـكـ قولـها : « رـجـلـ لـمـ تـعـرـفـيـهـ ، وـقـرـيـنـ لـمـ تـأـلـفـيـهـ » ، وـقـدـ أـسـلـفـنـاـ أـنـهـ تـعـنـىـ بـوـضـوـحـ النـفـمـ الـموـسـيقـىـ ، وـهـذـاـ يـزـيدـ الـأـسـلـوـبـ جـمـالـاـ فـىـ الـأـذـنـ وـيـجـعـلـهـ أـشـدـ تـأـثـيرـاـ فـىـ النـفـسـ .

ونورد من الوصايا الجاهلية وصية ثانية تخوض في جانب آخر ، تلك هي وصية النعمان ابن المنذر لجماعة من زعماء العرب حينما وجههم إلى كسرى . يقول صاحب العقد الفريد : « قدم النعمان على كسرى فتنقصـ كسرىـ الـعـربـ ، وـأـطـنـبـ النـعـمـانـ فـىـ الـحـدـيـثـ عـنـ فـضـائلـ الـعـربـ ، فـلـمـ قـدـ النـعـمـانـ الـحـيـرـةـ بـعـثـ إـلـىـ أـكـثـرـ بـنـ صـيفـيـ وـحـاجـبـ بـنـ زـارـةـ وـعـمـرـوـ بـنـ مـعـدـ يـكـرـبـ الـزـيـبـدـيـ وـالـحـارـثـ بـنـ عـبـادـ وـقـيـسـ بـنـ مـسـعـودـ وـخـالـدـ بـنـ جـعـفرـ وـعـلـقـةـ بـنـ عـلـاثـةـ وـعـامـرـ بـنـ الـطـفـيلـ وـعـمـرـوـ بـنـ الشـرـيدـ وـالـحـارـثـ بـنـ ظـالـمـ ، وـقـالـ :

انـماـ اـنـاـ رـجـلـ مـنـكـ ، وـالـرـايـ اـنـ تـسـيـرـوـاـ بـجـمـاعـتـكـ إـلـىـ كـسـرـىـ ، فـاـذـاـ دـخـلـتـ نـطـقـ كـلـ رـجـلـ مـنـكـ بـمـاـ حـضـرـهـ لـيـعـلـمـ أـنـ الـعـربـ عـلـىـ غـيـرـ مـاـهـنـ ، وـلـاـ يـنـطـقـ رـجـلـ مـنـكـ بـمـاـ يـغـضـبـهـ فـاـنـهـ مـلـكـ عـظـيمـ السـلـطـانـ كـثـيرـ الـأـعـوـانـ مـتـرـفـ مـعـجـبـ بـنـفـسـهـ ، وـلـاـ تـنـخـزلـوـاـ لـهـ انـخـزلـلـ الـخـاصـعـ الـذـلـلـ ، وـلـيـكـ أـمـرـ بـيـنـ ذـلـكـ تـظـهـرـ بـهـ وـثـاقـةـ حـلـومـكـ وـفـضـلـ مـنـزـلـتـكـ ، وـلـيـكـ أـولـ مـنـ يـبـداـ مـنـكـ بـالـكـلـامـ

اکثم بن صبیفی لسني محله ، ثم تتابعوا على الأمر من مثازلکم التي وضعتکم بها ، وانما دعاني الى التقدمة بينکم علمی بعیل کل منکم الى التقدمة قبل صاحبه ، فلا يكون ذلك منکم فيجد فى أدلبکم مطعمنا « (١) » .

ووصية النعمان وصية سياسية ، ولا نشك فى أن للنعمان أعد للأمر بدليل أنه فكر واختار الأشخاص الذين سيرسلهم سفراء إلى كسرى .

والوصية موجزة تتلخص في أن ينطق كل رجل منهم ليعلم كسرى رجاحة عقول العرب ، وأوصاهم بالا ينطق أحدهم بما يغضب كسرى حتى لا يبطش بهم ، وأوصاهم بالا ينزلوا أمام كسرى ، فالمطلوب عزة النفس وضبطها ، واختار اکثم بن صبیفی ليكون أول المتحدثين لأنه خطيب معروف يرجاحة العقل والفصاحة ، أما ما يدور في اللقامه خلم يومن فيه يشه لإتهه واثق برجاجة عقولهم وحسن تصرفهم .

وقد بدأ النعمان وصيته بعبارة : « إنما أنا رجل منکم » ليؤكد لهم أن ولایته للحيرة وقربه من كسرى لم يؤثرها على ولاته العربي ، ويحرص النعمان على التعليل لآرائه كان يقول : « فإذا دخلتم نطق كل رجل منکم بما حضره ليعلم أن العرب على غير مالذين » ويوصيهم بعدم أغضاب كسرى ويعلل بذلك بأنه ملك عظيم للسلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ، ويوصيهم بعدم الانهزأ واليأس فيقول : « حتى تظهر وثاقة حلومكم وفضل منذلکم » .

وتشمل الوصية على وجه العموم على رجاحة عقل النعمان وعمق نظرته وحسن تدبيره وفصاحته .

(١) العقد الفريد ح ٣ ص ٩ ، ١٠ - أحمد بن عبد ربه لجنة التأليف والترجمة والنشر . بتصريف .

(ب) في صدر الإسلام

يطلق الأدباء والمؤرخون (عصر صدر الإسلام) على فترة النبوة وفترة الخلفاء الراشدين الأربع ، وهنا نلقي نظرة سريعة على الوصايا في هذه الفترة ، ونبذل بالنظر في وصايا القرآن الكريم والحديث الشريف .

والقرآن الكريم مليء بالوصايا ، ونكتفى بوصيتي شاملتين لأسس التعاليم الإسلامية ، أما أولاهما فجاءت في سورة النساء في قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً »(١) . وهذه الآية تشتمل على الوصية بعبادة الله وحده ، والاحسان الى الوالدين ، والاحسان الى الأقارب ، وحسن المعاملة للمجتمع كله حتى العبيد .

اما الوصية الثانية التي نوردها هنا فقد وردت في القرآن الكريم على لسان لقمان حيث يقول الله تعالى : « واد قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصالة في عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهدك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما واصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أثاب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات او في الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير . يابني اقم الصلاة وامر بالمعروف ونذر عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور . ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختار فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان اذكر الا صوات لصوت الحمير »(٢) .

وتدعم هذه الوصية الى اليمان بالله وحده ، والاحسان الى الوالدين ،

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان الآيات من ١٢ الى ١٩ .

وتأمر باقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبب عند المحببة ، والتراضع وعدم الفخر ، وتدعوا الى المعاملة الحسنة وخفض الصوت عند الحديث ، وهي مبادئ تعالج علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بنفسه وبالمجتمع .

والأحاديث النبوية مليئة بالعظات السامية ، ونكتفي هنا بحديثين ، يدعوا أحدهما الى حسن المعاملة ، ويدعوا الثاني الى الثقة با الله والاعتماد عليه وحده .

في أحد الحديثين يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تبغضوا ولا تدارروا ، وكونوا عباد الله اخوانا » (١) .

والحديث يدعو الى ترك الظن الذي يؤدي الى فقد الثقة في المجتمع ، وينهى عن التجسس والحسد والغش والخصام ، وهي صفات تؤدي الى هدم المجتمع .

أما الحديث الثاني فجاء عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قال : ركبت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « يا غلام ، انى اعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سالت فاسأل الله ، وادا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الامة لو اجتمعوا على ان ينفعوك لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على بين يضرونك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام وجفت الصحف » (٢) .

والحديث يعلمنا الاعتماد على الله وحده ، ولهذا اثره في احقاق الحق وابطال الباطل وترك التفاق والجبن والتذلل .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - أَحْمَدُ بْنُ عَلَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ جَرِيْجِ الرَّسْكَلَانِيِّ ج ٢٢ ص ٢٧٨ حديث رقم ٦٠٦٦ - والحسن الجلة والقتل - والتناجش التزايد في البيع وغيره بقصد الغش - مكتبة الكليات الازهرية .

(٢) الجامع الصحيح - سنن الترمذى - ج ٤ ص ٦٦٧ باب القيمة - أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة - دار احياء التراث العربي - بيروت .

وكان الخلفاء الراشدون يوصون ، ونعرض لكل منهم وصية واحدة تكشف عن اتجاهاتهم وكان أبو بكر رضي الله عنه يرى أن تقوى الله أساس النجاح في الدنيا والآخرة ، ويتبين من وصيته لعمرو بن الخطاب حين استخلفه ، اذ يقول له :

« لئن مسني خلافك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، ان الله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيمة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق الميزان لا يوضع فيه الا الحق ألم يكون ثقيلا ، وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيمة باتباعهم للباطل وخفته عليهم في الدنيا ، وحق الميزان لا يوضع فيه الا الباطل ألم يكون خفيفا ، إن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راهبا ولا يتمنى على الله الا الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة ، فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائب لأحب إليك من الموت وهو أنتي ، وإذا ضيغت وصيتي فلا يكونن غائب لأبغض إليك من الموت ، ولست بمعجز الله » (١) .

وهذه وصية خليفة مشرف على الموت يوصي خليفته بما يراه أساس النجاح في الدنيا والآخرة وهو تقوى الله ، ويكتفى أبا بكر أن يؤكّد الأساس الذي يؤمن به ، أما التفصيات فمتروكة للخليفة القائم .

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فما أكثر وصاياه في كل المجالات ، وكان يوصي الولاة والقادة ، ومما جاء في ذلك : « كان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الالوية : « بسم الله وبإله وعلى عون الله ، امقووا بتائيد الله والنصر ولنروم الحق والصبر فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعذبين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسروفا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امراة ولا ولیدا » (٢) .

وهذه وصية للقادة الحربيين المتوجهين إلى قتال العدو ، وتهم الوصية بتقوى الله فهي أساس التوفيق ، وتوصي بالصبر في الحرب ، وعدم الاعتداء ،

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٥ مطبعة المدى طه - للمحاظ - بتصريف .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٢٨ .

وتتضمن وصايا انسانية تتمثل في عدم التمثيل بالجثث ، وعدم الفخر عند النصر ، وتجنب قتل الشيوخ والنساء والأطفال .

وأورد الطبرى عديداً من الوصايا أوصى بها عثمان بن عفان رضى الله عنه ولاته بعد أن تولى الخلافة ، وكلها تدور حول التمسك بالدين واتباع الحق ، ومن هذه الوصايا : « كتب عثمان إلى عمال الخراج : أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، حذوا الحق، وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدهم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم » (١) .

وكثرت وصايا على بن أبي طالب للأفراد وللجماعات ، وكلها تدعو إلى التمسك بأهداب الدين ، ومن هذه الوصايا : « كتب على بن أبي طالب إلى عبد الله بن عباس : ليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، ولن يكون لك على ماقاتك منها ، وما نلت من أمر دنياك فلا تكون به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، ولن يكون همك ما بعد الموت » (٢) .

وهكذا نرى وصايا الخلفاء الراشدين تدور حول أساس واحد هو التمسك بمبادئ الدين .

وقد وردت البسمة في مطلع وصية عمر بن الخطاب ، ولم ترد في باقي الوصايا التي عرضناها هنا ، ولكننا لا نشك في أن جميع الوصايا في تلك الفترة كانت تبدأ بالبسمة ولكنها حذفت في الكتب من باب الاختصار ، وكثيراً ما نرى البسمة موجودة في بعض المصادر ، ومحذفة في بعضها الآخر .

وأسلوب الوصايا أسلوب مرسل لا يتائق ولا يتکلف ، وهكذا كان أسلوبه النثر في تلك الفترة ، وقد نرى السجع والطباق والجناس ، ولكنها كلها تأتي عفو الخاطر خادمة للمعنى ، ومن ذلك قول أبي بكر في وصيته : « إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل » وهذا الطباق

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٤٥ محمد بن جرير الطبرى - دار المعرفة .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٢ .

بين الليل والنهار يتطلبه المعنى ، ومثله ماورد في قول على بن أبي طالب : « ليكن سرورك بما نلت من أمراً خرتك ، ول يكن أسفوك على مافاتك منها » ، وهذا مقابلة بين الجملتين ، ونحس شيئاً من التوازن الموسيقى في قول عمر : « امضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر » ولا تكلف فيه ، ويقتبس عمر بن الخطاب من القرآن قوله تعالى : « ولا تعتدوا ان الله لا يحبه العتدين » .

ونرى من هذا العرض أن الوصايا بعد الاسلام كانت تأتي عن طريق المحادثة والمشافهة ، كما نرى في وصية أبي بكر لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وقد تأتي الوصية عن طريق الرسالة كما في وصية على بن أبي طالب إلى عبد الله بن العباس .

وهناك كثير من الوصايا أسدتها الآباء لأبنائهم مثل وصية العباس لابنه عبد الله (١) أو أسدتها زعيم لأبناء قبيلته ، مثل وصية دريد بن الصمة لملك بن عوف يوم حنين (٢) .

ونختتم حديثنا هذا بعرض وصية أبي طالب عند موته ، وأبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام ولكن لم يسلم مخافة ضياع مكانته في قريش كما قيل ، وقيل : انه حرك شفتيه بالشهادة قبل موته ، ولا يهمنا هنا أي الرأيين أصح ، وإن دلت هذه الوصية على صحة الرأى الأول .

ونص هذه الوصية : « يامعاشر قريش ، أنتم صفة الله من خلقه ، فيكم السيد المطاع ، ومنكم المقدم الشجاع والواسع البايع ، وانى اوصيكم بتعظيم هذه البنية (الكعبة) فان فيها مرضاة للرب ، وقواماً للمعاش ، صلوا ارحامكم ولا تقطعوها واتركوا البغي والعقوق ، اجبوا الداعي ، وأعطوا السائل .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٩ .

(٢) العقد الفريد ح ١ ص ١٣٣ .

ولنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشتان » (١) .

- وتشتمل الوصية على أربعة أسس هي : (١) اشادة بقريش ·
- (٢) تعظيم الكعبة · (٣) تواصل قريش والمحافظة على مكانتها ·
- (٤) العطف على محمد وحسن معاملته ·

وتكشف الوصية عن مكانة أبي طالب ، كما تكشف عن كثير من أخلاقه وأرائه ، فتعظيم قريش يدل على انتقامته فهو أحد أعمدتها ، وتعظيمه للكعبة يشف عن تدينه ، ثم انه يعلم أن مكانة الكعبة في نفوس العرب عامل أساسي في تعظيم مكانة قريش ، فهو يحرص على استمرار هذه المكانة ·

أما وصيته بصلة الأرحام وترك البغي والعقوق وإجابة الداعي واعطاء السائل فيدل على خلق نبيل ونفسية كريمة ، إلى جانب أنه يعلم أن هذه الصفات وسيلة للمحافظة على مكانة قريش في الجزيرة العربية ·

اما وصيته بمحمد فهو ابن أخيه ، وهذا العصبية القبلية ، وهنا عاطفة القرابة للحقيقة ، وإذا صحت نسبة هذه الخطبة كاملة اليه فأن قوله : « وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان » هذا القول يدل على إيمانه بحقيقة الرسالة المحمدية ولكن يخاف النطق بالشهادتين حفاظا على مكانته في قريش ·

وأسلوب الوصية أسلوب متذبذب نرى فيه السجع في مطلع الوصية · فهو يقول : « فيكم السيد المطاع ، ومنكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع » · وفي خاتمة الوصية يقول : « وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشتان » · وربما قصد إلى جميل أسلوبه حرصا على قوة تأثيره في نفوس سامعيه ·

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ١٧١ عبد الرحمن بن عبيد الله الخثعمي · دار الفكر · العربي ·

(ج) في عهد بنى أمية

كثرت الوصايا في عهد بنى أمية تبعاً لتعدد الأحداث وتنوعها ، فبنوا أمية يحرضون على إقامة دولة لهم يتوارثها أبناؤهم ، وال الخليفة يوصي ابنه ويوصي واليه وقائده ، والقادة والولاة يوصون الشعب بالطاعة ، والعلماء يوصون الخلفاء بتقوى الله ، هذا إلى جانب الرصاصة المعتادة من الآباء إلى أبنائهم وما ماثل ذلك .

ومن أوائل هذه الوصايا وصية معاوية بن أبي سفيان لزياد حين ولاد العراق : « يازiad ، ليكن حبك وبغضك قصداً ، فإن العترة فيها كامنة ، وأجعل للنزع والرجوع بقية من قلبك ، واحذر صولة الانهماك ، فإنها تؤدي إلى ال�لاك » (١) .

وأوصى يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد فقال : « إن أباك كفى أخاه عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً فلا تتكلن مني على عذر ، فقد اتكلت منك على كفاية ، ولأن أقول لك : أياك ، أحب إلى من أن أقول : أياي ، فإن الطن إذا أخلف فيك أخلف منك ، فلا تررح نفسك وأنت في أدنى حظك حتى تبلغ أقصاه ، واذكر في يومك أخبار غدرك ، واستزدني باحسانك إلى أهل الطاعة ، واسعatk إلى أهل المعصية ، أزدك إن شاء الله تعالى » (٢) .

وكان الخلفاء يوصون أبناءهم وصايا سياسية ، ويعلّمونهم كيف يعاملون الرعية ويسكبون ودهم ، ومن أبرز هذه الوصايا وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز حين ولاده على مصر حيث قال : « أرسل حكيمًا ولا توصه ، أى بنى ، انظر إلى عمالك فان كان لهم عنده حق غدرة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، واياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فانهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساتك

(١) زهر الأدب ج ٣ ص ٦٤١ .

(٢) زهر الأدب ج ٤ ص ١٠٦٣ .

وأهل العلم ، وان كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمرءة فليكونوا أصحابك وجليسائك » (١) .

وال الخليفة يوصى ابنه بالاهتمام بعماله ، والعمال عين الحكم ويده الطائلة في كل مكان ، ثم يوصى ابنه بالصدق حتى لا تفقد الرعية الثقة في حاكمها فيسقط من أعين رعيته ، ثم يوصيه بالشورى وبأن يختار مستشاريه من أهل العلم ، ويوصيه بآلا يؤخذ أحدا من رعيته وهو في سورة الغضب ، وقد عرف بنو أمية بالحمل ، وكان امامهم في ذلك معاوية بن أبي سفيان .

والأسلوب مرسل لا تكلف فيه ، وان كنا نرى المقابلة فانها مقابلة تتطلبها المعنى حيث يقول : « فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ، وان كان لهم عشية فلا تؤخره الى غدوة » . ونرى التعليل في قوله : « فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق » ، كما نرى المجاز العقلى في قوله : « حتى يسكن غضبك » وهو مقتبس من قوله تعالى : « ولما سكت عن موسى الغضب » . وقد استعمل أداة النداء الدالة على القرب في قوله : (أى بنى) لأن ابنه قريب منه حسيناً ومعنىوا ، ثم انه يشعره بحرص أبيه على مصلحته فليس أقرب الى الابن من أبيه .

و واضح أن هذه الوصايا وأمثالها ترمي الى اهداف في مقدمتها بقاء الخلافة في بنى أمية وجاءت بعض الوصايا في ذلك العهد موجهة الى بنى أمية ناصحة لهم ومحدزة ايامهم من الأخطار التي تحدق بهم ، ومن أبرز هذه الوصايا وصية عبد الملك بن مروان الى بنى أمية :

« يابني أمية ، أحبابكم أعراضكم ، لا تعرضوها على الجهل ، فإن الذم باق ما بقى الدهر ، والله ما سرني أنى هجيت بيبيت الأعشى وإن لى طلاق الأرض ذهبا ، وهو قوله في علامة بن علاته :

يبيتون في المشتى ملاء بطونهم وجاراتهم غرضي يبتئن خمائصا

وَاللَّهُ مَا يِبَالِي مِنْ مَدْحٍ بِهَذِينَ الْبَيْتَيْنِ إِلَّا يَمْدُحُ بَغْرِهِمَا ، وَهُمَا قَوْلُ زَهْرَى :

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز كثرت وصاياه للولاة ، فقد كتب
وصاياها بعث بها الى الامصار وكلها تدور حول التمسك بكتاب الله وسنة نبيه
صلى الله عليه وسلم والتمسك بالعدل وتجنب الظلم ، يسنتوى في تلك المعاملة
ال المسلمين وغير المسلمين . وقد ألفت في سيرة عمر بن عبد العزيز كتب
عديدة ، منها كتابان حويانا كثيرا من الوصايا ، أحدهما لابن الحكم (٢) ،
والثانى لابن الجوزى (٣) . وأورد ابن الحكم رساللة مطولة تقع فى أكثر من
سبعين صفحات بعث بها عمر الى الامصار يوصيهم فيها بتقوى الله ، ويبوح
لهم الاوامر والتراثى (٤) .

ونكتفى هنا بابرار وصيحة موجزة جاء فيها : « اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات ، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد . تضيّعا » (٥) .

وكان الخلفاء يوجهون وصاياتهم الى الولاة والقواد كان الفساد يوجهون وصاياتهم الى الخلفاء ، ولكن ذلك لم يكن كثيرا اذا استثنينا الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ومع ما عرف عن بنى أمية من الحلم والصبر فان الخلفاء

• ۱۱۶۰ ص ۴ ج ۲ زهر الاداب (۱)

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز . أبو محمد عبد الله بن الحكم ، مطبعة الاعتماد . ينصر .

(٣) سيرة عمر بن العزيز ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي . مطبعة المؤيد.

^{٤)} سيرة عمر لابن الحكم ص ٥٩ - ص ٦٧ .

^٥ سيرة عمر لابن الجوزي ص ١٠٣ .

الأمويين لم يكونوا يفتحون صدورهم كثيراً لهذه الوصايا التي تكشف عن أخطائهم ولو بطريق غير مباشر .

وكان عمر بن عبد العزيز خليفة ورعا ، وفتح صدره للوصايا ، وكان مأمون الجانب وطلب من الحسن البصري أن يوصيه ، فكتب إليه الحسن البصري وصية لجأ فيها إلى التكرير للتأكيد ، وتأتفق في أسلوبه ، ومما جاء في هذه الوصية :

« ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم باذهاب طيباتك في آخرتك ، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم » (١) .

يحذر الحسن البصري عمر بن عبد العزيز من الولادة الظالمين ، ويحذر من الاغترار بقوته ، ويدركه بالموت والوقف بين يدي الله ، ونرى المقابلة في قوله : « ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً » . كما نرى الاستعارة في « حبائل الموت » حيث شبه الموت بصادئ ينصب حبالته ، ثم انه يقتبس من القرآن الكريم : « وعنت الوجوه للحى القيوم » .

وأوصى رجل هشام بن عبد الملك فجاءت وصيته موجزة حيث قال :

« لا تعدد عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وان كان سهلاً اذا كان المنحدر وعرا ، وان للأعمال جزاء فاتق المراقب ، واعلم أن للأمور بفتات فكن على حذر » (٢) .

وهي وصية موجزة ولكنها وافية ، فقد أوصاه بأن يكون صادقاً مع الشعب ومع نفسه وأوصاه بعدم الاغترار وان وجد الطريق سهلاً ، وذكره بالرقيب الأعلى ، ونلحظ أن الخطبة تخلو مما قد يؤدي إلى مسألة الرجل .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٥٩ .

وهناك الوصايا التي تصدر من الآباء إلى أبنائهم في مختلف المواقف ، ويطالعنا هنا عمر بن هبيرة أحد الرجال البارزين في الدولة الأموية ، وقد وردت له وصيّتان : أحدهما موجهة إلى قائد ، والثانية إلى ابنه ، وكلتاها تدل على رأي صائب ونظرة ثاقبة .

ووجه ابن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان وأوصيَاه فقال له :

« أوصيك بثلاثة ، حاجبك فانه وجهك الذي به تلقى الناس ، ان أحسن فأنت المحسن ، وأن أساء فأنت المسيء ، وصاحب شرطتك فانه سوطك وسيفك حيث وضعتهما ، ضعفهما ، وعمال القدر ، قال : وما عمال القدر ؟ قال : أن تخثار من كل كورة رجالا لعملك ، فإن أصحابوا فهو الذي أردت ، وأن أخطئوا فهم المخطئون ، وأنت المصيب » (١) .

وكان عمر بن هبيرة يعد ابنه ليحتل مكانة أبيه في الدولة ، وأمثال هؤلاء الرجال يجالسون الخلفاء والحكام ، فأوصى ابن هبيرة ابنه بما يهيء له النجاح عند الرؤساء فقال : « لا تكن أول مشير ، وایاك والهوى الفطير ، ولا تشين على مستبد ولا على وغد ولا على متلون ولا على لجوج ، وخف الله في موافقة هو المستشير ، فإن التماس موافقته لئم ، وسوء الاستماع منه خيانة » (٢) .

وأسلوب ابن هبيرة أسلوب مرسيل وان رأينا الطباق والسبع في قوله :

« لا تكن أول مشير ، وایاك والهوى والرأى الفطير » ونرى المقابلة في وصيّته لابنه حيث يقول : « ان احسن فأنت المحسن ، وأن أساء فأنت المسيء ، ثم انه شبه الحاجب وصاحب الشرطة تشبيهين رائعين ، فجاجبه وجهه لأنه يلقى الناس باسمه ، وصاحب الشرطة سوطه وسيقه لأنه يضرب به ، ولا نحسن التكلُّف في كل ذلك .

وفي أواخر العصر الأموي زادت العناية بالأسلوب ، وزاد الاهتمام بتوليد

(١) المرجع نفسه ص ١٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٢ .

المعانى واستقصائها ، ويتبين ذلك فى وصية علقة بن لبيد العطاردى لابنه ، وهى وصية تجمع صفات الصديق الوفى ، وفيها يقول علقة :

« يابنى ، اذا نزعتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب منهم من ان تحبه زانك ، وان خدمته صانك ، وان اصحابك خصاصة مانك ، وان قلت صدق قولك ، وان صلت شد صولك ، وان مددت يدك بفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان سأله أعطاك ، وان مددت يدك بفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان سأله أعطاك ، وان سكت عنه ابتداك ، وان نزلت بك احدى اللمات آساك ، من لا يأتيه منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وان حاول حويلاً أمرك ، وان تنازعتما منفساً اثرك » (١) .

والوصية تتلزم السجع كما نرى ، بل ان علقة قد يأتى بثلاث سجعات متواالية ولا يكتفى باثنين ، كما انه يحافظ على الازدواج اى تساوى الجمل فى النغم الموسيقى ، كما انه يهتم باستقصاء المعانى فى كل موقف ، والى جانب السجع ترى المحسنات البديعية الأخرى ، ومنها الطباق فى قوله : « ان سأله أعطاك ، وان سكت عنه ابتداك » ، ومنها الجنس فى قوله : « وان حاول حويلاً أمرك » .

ويرى عبد الحميد الكاتب حيث وضع للكتابة العربية سمات جديدة ، وحفلت رسائله بالوصايا ، ونكتفى هنا بعرض أسطر معدودة من رسالة كتبها عن الخليفة مروان بن محمد الى عبد الله بن مروان حين وجهه أبوه لمحاربة الضحاك بن قيس سنة ١٢٩ هـ ، وتقع الرسالة فى أكثر من أربعين صفحة ، وتحوى كثيراً من الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، وتبدأ بقوله :

(١) عيون الاخبار ج ٣ ص ٦ - عبد الله بن مسلم بن قتيبة - دار الكتب العلمية - بيروت .
خصاصه فقر - مانك عالك وأنفق عليك - اللمات الشدائى - البوائق المهالك -
الطرائق الاختلاف فى المعاملات - الحويل جودة النظر والقدرة على التصرف - أمرك
شاورك - المنفس المال .

« اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أنها سالكا وركب
أخطارها قاصدا إلى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها » .

ومنها : « ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤك في سرك
أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قرادرك ممن قد حنكته السن
يتصاريف الأمور » .

« احذر تضييع رأيك واهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب
واعتوارهما اياك ... واعلم أن للمشورة مواضع الخلوة وانفراد النظر
فابغها محربا لها ورمها طالبا لنيلها » .

« حصن جندك واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه ، وارج
نصره وتنجز موعوده » (١) .

ويعنى عبد الحميد بأسلوبه ، ويكثر عنده السجع والازدواج ، ولكنه
لا يلتزم بذلك .

وهكذا نرى الرسائل في العصر الاموى يغلب عليها المساواة وتميل إلى
الاطناب أحيانا ، ويغلب على أسلوبها الترسل وان جاء السجع جاء غير
متكلف ، وإنما نراه يكسب الأسلوب رنينا وجمالا ، كما أن المحسنات البديعية
تأتى حين يتطلبها المعنى فتزيد المعنى وضوها وتكتسب الأسلوب جمالا ،
ونادرًا ما نرى الكاتب يلتزم السجع كما رأينا في وصية علقة بن لبيد لابنه .

ويغلب على هذه الوصايا التأثر بالروح الدينية ولكنهم لا يكثرون من
اقتباس آيات من القرآن الكريم أو نصوص من الحديث الشريف ، كما أنهم
لا يحشدون الصور البيانية في وصاياهم وإنما تأتى هذه الصور في مواقف
يساعد التصوير فيها على وضوح المعنى كما في قول عمر بن هبيرة :
« وصاحب شرطتك فإنه سوطك وسيفك » وهي صور مألوفة ليس فيها ابتکار .

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٨ إلى ص ٢٤١ - القلقشندي - دار الكتب
العلمية بيروت .

وتأتى هذه الوصايا فى غالب الأحيان مشافهة ، وقد تأتى فى رسائل يبعثها الموصى الى الموصى كما فى وصايا عمر بن عبد العزيز ، وكما فى وصية الحسن البرى لعمر بن عبد العزيز .

ولما جاء عبد الحميد بن يحيى الكاتب أطال الرسائل وحفلت هذه الرسائل بالوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، واهتم عبد الحميد اهتماما كبيرا بالسجع والازدواج وكثرت المحسنات البديعية عنده ، غير أننا حين نقرأ الوصايا فى مطلع العصر العباسى لا نرى هذا الاهتمام بالسجع والازدواج كما رأيناه عند عبد الحميد الكاتب ، وغلب الأسلوب المرسل على الوصايا كما سندى فى حينه .

الباب الأول
اتجاهات الوصايا
فى العصر العباسي

اتجاهات الوصايا في العصر العباسي

لا يخلو الأدب العربي في عصر من العصور من أدب الوصايا ، وقد عرضنا نماذج من الوصايا في العصر الجاهلي ، ثم في عصرى صدر الإسلام وبني أمية .

وتكثر الوصايا في فترات التغيير عند قيام الدول ، وعند حدوث الاضطرابات فرؤساء الدول حريصون على تثبيت دعائم دولتهم ، فنرى هؤلاء الرؤساء يوصون قادتهم وولاتهم وشعوبهم ، ويحذو رجال الدولة حذو رؤسائهم ولا تقصر هذه الوصايا على النواحي السياسية ، بل تتعداها إلى النواحي الاجتماعية والدينية .

ويحرص هؤلاء الرؤساء على إعداد أبنائهم ليخلفوهم فيكترون من وصاياتهم حتى ينشأ أبناؤهم متكاملين يجمعون إلى الذكاء السياسي سموا خلقيا .

وفي فترات التغيير يحرص رجال الدولة وعلى رأسهم الخلفاء على اظهار التمسك بشعائر الدين وأكبار العلماء ، فنراهم يفتحون صدورهم لسماع وصايا العلماء ، وقد يحسون بالضيق من توجيه هذه الوصايا إليهم ، ولكنهم قليلا ما يظهرون التبرم بهم ، وسنرى أن وصايا العلماء للخلفاء بالتمسك بتعاليم الدين تزدهر في أوائل العصر العباسي ثم تقل مع تقدم الزمن واستقرار الأوضاع وضعف الشعور الديني .

وسنرى أن هذه الوصايا كانت تأتي مشافهة في معظم الأحيان ، ومع تقدم الزمن وارتفاع مكانة الكتابة نرى الرسائل تطفى على غيرها من فنون النثر .

وفي خلال حديثي عن الوصايا سأوضح الظروف التي أحاطت بالوصية والمناسبات التي قيلت فيها ، وسأبدأ بالحديث عن الوصايا السياسية ، ثم الاجتماعية ، وأختتم بالحديث عن الوصايا الدينية .

الفصل الأول

الوصايا السياسية

في فترة الاعداد للخلافة العباسية

حين نبحث في الوصايا في العصر العباسى لابد أن نعود خطوة الى الوراء حيث يدب العباسيون لقيام دولتهم على انقاض الدولة الأموية ، وكانت البذرة الأولى لقيام الدولة العباسية وصبة أبي هاشم الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالأمامية من بعده ، وكان كثيرون من الشيعة يلتغون حول محمد بن الحنفية شقيق الحسن والحسين ، ولما مات محمد بن الحنفية ورث ابنه أبو هاشم زعامة فرقة الكيسانية الشيعية ، وتواترت الصلة بين أبي هاشم ومحمد بن علي ، فلما أحس أبوهاشم بدنو أجله سنة ٩٨ هـ أوصى لمحمد العباسى وصبة صريحة بالأمامية من بعده ، وبذلك وجده محمد بن على ركيزة يعتمد عليها فى اثبات حقه فى الخلافة وبدأ محمد العباسى فى تنظيم الدعوة للعباسيين سرا ، وجعل الدعوة لآل البيت بدون تحديد حتى يتتجنب بطش الأمويين بهم ، وأيضا ليكسب الشيعة الى جانبه وهنا نرى أول وصبة تتعلق بقيام الدولة العباسية ، فقد اختار محمد بن علي العباسى رجال الدعوة وأوصاهم ، ومما جاء فى هذه الوصبة :

« أما الكوفة وسواها فهناك شيعة على بن أبي طالب ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول : « كن عبد الله المقتول ولا تكون عبد الله القاتل » ، وأما الجزيرة فمحورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة بنى مروان ، عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما ، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكبير والجلد الظاهر ، وتصدورا سليمة وقلويا فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم تشغلها ديانة ، ولم يتقدم فيها فساد ، ولم يليست لهم

اليوم هم العرب ، ولا فيهم كتّارب الاتّابع بالسّادات وكتّالف القبائل
وعصبية العشائر ، ولم يزالوا يذالون ويتمهون ويظلمون ويظلمون
ويتمهون الفرج ويؤملون الدول ، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب
وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من
أفواه منكرة ، وبعد فكأنى انتقال الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا
ومصباح الخلق ، (١) .

والهدف من هذه الوصية أن يبيث الدعاة الدعاوة بين أهل خراسان ،
وقد علل الموصى لرأيه لينفذوه عن اقتناع .

وفي سنة ١٢٥ توفى محمد بن على بعد أن عهد بالأمامية لابنه ابراهيم
وتولى الدعاوة أبو سلمة الخلال ، وتولى القيادة الحربية أبو مسلم
الخراساني ، وأوصى ابراهيم ابن محمد أبا مسلم الخراساني ، ونراه في
وصيته يركز الشك في ربيعة ومضر ، ويحتفظ بخراسان موطننا للدعاوة
العباسية ، ويشتطط ابراهيم فياصر أبا مسلم بأن يقتل من يشك فيه . ويقول :

« انظر هذا الحى من اليمن فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله
تعالى لا يتم هذا الأمر الا بهم واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فانهم
العدو القريب الدار ، واقتلت من شكت فيهم ، وان استطعت الا تدع بخراسان
من يتكلّم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمنه فاقتله ،
ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) . ولا تعصه ، واما اشكل
عليك امر فاكتف به مني » (٢) .

وبغضّن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على ابراهيم بن محمد
الامام ، وأودعه السجن ، وعرف ابراهيم أن لا خلاص له ، فعهد بالأمر من
بعده إلى أخيه أبي العباس الذي لقب بالسفاح بعد ذلك ، ودفع ابراهيم

(١) عيون الاخبار ج ١ ص ٢٠٤ - ابن قتيبة . دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) تاريخ الكامل ج ٥ ص ٣٤٨ - أبو الحسن على المعروف بابن الأثير .

الوصية الى سابق الخوارزمي مولاه ، وأمره ان حدث به حادث من مروان
أن يجد السير الى الحميمة حتى يدفع وصيته الى أخيه أبي العباس .

وأوصاه : « بالقيام بالدولة والجذ والحركة ، والا يكون له بعده
بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة ، فان هذا الأمر صائر اليه
لا محالة ورسم له بذلك رسماً أوصاه فيه أن يعمل عليه ولا يتعداه » (١) .

وجد أبو العباس في الأمر كما أوصاه أخوه حتى تحقق الأمل وقامت
الدولة العباسية وهكذا نرى الوصايا السياسية توافق الأحداث وتؤثر فيها .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ - الجاحظ مطبعة المدنى ط ٥ بتصرف - والسهوك
بيروت .

في صدر الدولة العباسية

وقدّمت الدولة العباسية ، وكان لأبي مسلم الخراساني أثر واضح في هزيمة الأمويين وثبتت دعائم الدولة الجديدة ، وكان يوصي قادته بالجراة والطاعة وما أسس النصر ، ومن وصاياه أبي مسلم لقواده :

« أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الصنفان فإنها تبعث على الاقدام ، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب » (١) .

ويضيف أبو مسلم إلى الوصية بالجراة والطاعة وصية بذكر الصنفان ، وكان العباسيون يذكرون جرائم الأمويين ويثيرون الصنفان في صدور الناس ليجدوا في القضاء على بنى أمية .

ونظر العلويون فوجدو أن الأمر أفلت من أيديهم ، وكانوا ينتظرون أن يكون الأمر لهم ، فسخطوا على أبناء عمومتهم وثاروا عليهم ، واشتد العباسيون في معاملة العلويين والقوا بهم في غياب السجون ، وقتلوا الثنائيين عليهم ، وقبض أبو مسلم الخراساني على عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، واللقاه في غياب السجن ، وكتب عبد الله إلى أبي مسلم يوصيه بالعدل وتقوى الله ، ومن هذه الوصية :

« من الأسير في يديه ، بلا ذنب اليه ، ولا خلاف عليه ، أما بعد .

فأراك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، والهمك عدل القضية ، فأنك مستودع ودائع ، ومولى صنائع ، فاحفظ ودائعاً بحسن صنائعك ، فاللودائع عارية ، والصنائع مرعية ، فنبه للتفكير قلبك ، واتق ربك ، وأعطي من نفسك ملء هو تحتك ما تحب أن يعطيك من هو فوقك من العدل والرأفة والأمن من المخافة ، فان علينا من سفك الحديد وشقله أذى شديدًا مع معالجة الأغلال وقلة رحمة العمال ، فاليك بعد الله نرفع كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فارع حرمة من ادرك بحرمه ، واعرف حجة من

فلحت بحجته ، والله المستعان وعليه التكلان ، صريح الاخيار ، ومنجي الأبرار ، الناس من دولتك في رخاء ، ونحن منها في بلاء ، حين أمن الخائفون ورجع المهارون ، رزقنا الله منك التحنن ، وظاهر علينا فيك التمن ، فانك أمين مستودع ، ورائد مصطنع ، والسلام ورحمة الله » (١) .

وقد أوجزت الوصية مع الحرص على ابراز أهدافها ، وهي وصية محكمة يشكو فيها عبد الله ما يلاقيه في سجنه ، وينذر أبا مسلم بمسئوليته تجاه الرعية ، ويدعوه له بأن يلهمه الله العدل ، وينذره بأن النعم عارية يمكن أن تسترد في أي وقت ، ثم يطلب إليه أن ينظر إلى نفسه ويتخذ منها مثلا ، فيعطي من تحته ما يجب أن يعطيه من فوقه ، ويحاول أن يجتذب أبا مسلم ويكسب عطفه فيعلن أنه الملجأ بعد الله سبحانه وتعالى ، ويضرب على وتر حساس فيقول له : « قارع حرمة من أدرك بحرمتها ، وأعرف حجة من فلحت بحجته ، أي انه انما نجح في بحرمة أهل البيت ، فكيف ينقلب عليهم ويعاملهم هذه المعاملة السيئة ؟ » .

وجاءت هذه الوصية ملتزمة السجع مع أنها كتبت قبيل منتصف القرن الثاني الهجري ، ولم يكن الكتاب يلتزمون السجع في ذلك الوقت ، ويبعدوا أن الكاتب حرص على جمال الأسلوب ليكون أشد تأشيرا في نفس أبي مسلم ، حيث يحرض الكاتب على كل وسيلة قد تؤثر في نفسه ، والفرس يحبون الزخرف .

وهكذا عامل العباسيون خصومهم السياسيين بمنتهى القسوة ، وكانوا يوصون أبناءهم بتجريد السيف للقضاء على كل معارض ، وأوصى أبو العباس السفاح ابن أخيه هارون الرشيد بذلك ، وضم إلى السيف الدرهم ، وهما وسليتان النجاح كما يرى أبو العباس ، فالدرهم يجذب القلوب ، والسيف يحصد من كفر النعمة ، يقول أبو العباس موصيا الرشيد : « إنما هو درهمك وسيفك ، فائز ب لهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك » (٢) .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ - الجاحظ مطبعة المدى ط ٥ بتصرف - والشهوك رائحة الصدا - والمصريخ المغيث والمستغيث . ضد .

(٢) نهاية الارب ج ٦ ص ١٨ - أحمد بن عبد الوهاب التوييري . مطبعة دار الكتب المصرية .

في عهد الخليفة المنصور

ثم تولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، وكان أبو العباس السفاح قد عهد إليه بالخلافة من بعده ، ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ، وكان أبو جعفر المنصور ذكياً وكان شجاعاً مديراً ، وكان حازماً قاسياً ، وكان حريصاً على مقاومة أعداء الإسلام ، ولكنه كان يستحل كل وسيلة توصله إلى غايته ، وأوصى المنصور كما لم يوصِ غيره من الخلفاء العباسيين ، وحفظت لنا كتب التراث عشرات من وصاياته ، وكان معظمها موجهاً إلى ابنه المهدى .

خلع المنصور عيسى بن موسى من ولاية العهد وجعلها لابنه المهدى ، وبأيام الناس للمهدى طائرين أو مكرهين ، ولم ينس المنصور أن يؤكد هذه البيعة عند وفاته وكتب وصية بذلك جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف بعده من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين ، أما بعد ، فاني كتبت كتابي هذا وأنا حى فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسائل الله إلا يفتئكم بعدي ولا يلبسكم شيئاً ، ولا ينذيق بعضكم بأس بعض ، يا بنى هاشم ، ويا أهل خراسان ٠٠٠

ثم أخذ فى وصيته بالمهدى واذكارهم البيعة له ، وحضرهم على القيام بدولته والوفاء بعهده » (١) .

وبعد أن تمت البيعة للمهدى أوصاه وصاياه تقوم على طاعة الله وحسن الخلق ، ومن وصاياته : « يا أبا عبد الله ، لا يصلح السلطان إلا بالتقى ، ولا يصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بمال ، ولا تقدم في الحياة بمثل نقل الأخبار ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١١١ - دار المعرف - يتصرف .

وأقدر الناس على العفو أقدّرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختياره » (١) .

واللافت للنظر في هذه الوصية التفات المنصور إلى أثر المال في نعمة السلطان ودوام طاعته ، وسنرى أن المنصور كان يدبر ل توفير المال له ولابنه من بعده بوسائل مشروعة وغير مشروعة .

وفي موقف آخر أوصى المنصور ابنه المهدى بالحرس على حمد الناس آياته ، والبعد عما يستدعي الذم فقال له : « يا أبا عبد الله ، من أحب الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها ، وما أبغض الحمد أحد إلا استلزم ، وما استلزم إلا كره » (٢) .

وأوصى المنصور ابنه وولى عهده بالحرس على مجالسة العلماء فقال : « يا أبا عبد الله ، لا تجلس مجلسا إلا ومعك من أهل العلم منه يحدثك ، فإن محمد بن شهاب الزهرى قال : « الحديث ذكر ، ولا يحبه إلا ذكر الرجال ، ولا يبغضه إلا مؤنثهم ، وصدق آخر زهرة » (٣) .

وكان محمد المهدى رجلا دمت الخلق فيه وداعمة ولين ، ويبدو أن المنصور كان يخاف عليه أفراد البيت العباسى من الطامعين فى الخلافة ، ولذلك عمل المنصور على القضاء على هؤلاء الطامعين ، وأوصى المهدى باليقظة والحزن ، وعين له أخطر الرجال ورسم له كيفية معاملتهم ، وفي أحدى وصاياته للمهدى يقول :

« يا بنى ، انى قد جمعت لك من الأموال مالم يجمعه خليفة قبلى ...
وبنيت لك مدينة لم يكن فى الإسلام مثلها ، ولست اخاف عليك الا أحد ...
رجلين : عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد ، فاما عيسى بن موسى فقد ...
اعطانى من العهود والمواثيق ما قبلته ، وبالله لو لم يكن الا ان يقول قوله ...

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧١ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧٢ .

لما خفته عليك ، فأخرجه من قلبك ، وأما عيسى بن زيد فأنفق هذه الأموال ..
وأقتل هؤلاء الموالي ، وهدم هذه المدينة حتى تظفر به ثم لا ألومك » (١) .

ويبدو في هذه الوصية قسوة المنصور وصلابة ارادته والقضبية ..
بكل شيء في سبيل تحقيق هدفه .

وكان المنصور بخيلا ، وسلك مسلكا غريبا في جمع الأموال وأوصى .
ابنه وصاة غريبة تجاه هذا المال ، وأورد هنا قصة تبين حرص
المنصور على المال ، وحرصه على أن يقبض المهدى يده بعد أن رأى كرم.
ابنه واسرافه .

« قال المؤمل بن أميل : قدمت على المهدى وهو ولى عهد ، فأمر لى
بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى
المنصور وهو بمدينة السلام ، فكتب إليه المنصور يعذ له ويلومه ،
وأمر المنصور بالقبض على المؤمل ، وأدخلوه على المنصور ، فقال له :
أتيت غلاما غرا فخدعته ، أنشدته ما قلت فيه ، فأنشدته قصيدة مطلعها :

هو المهدى الا ان فيه مشابه صورة القمر المنير.

قال : والله لقد أحسنت ، ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ،
وقال : يا رببع ، انزل فأعطيه أربعة آلاف درهم ، وخذ منه الباقي » ، ففعل .
فلما صارت الخلافة إلى المهدى ردما عليه » (٢) .

أما التصرف الغريب والوصية المتعلقة بهذا التصرف فيتضمنان فيما
أورده الطبرى : « كان المنصور لا يولى أحدا ثم يعزله الا القاء فى دار
خالد البطين فيستخرج من المعزول مالا ، فما أخذ من شيء أمر به فعزل » ،
وكتب عليه اسم من أخذ منه ، وعزل في بيت مال سماه مال المظالم ،
ثم قال للمهدى :

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧٣ .

انى قد هيأت لك شيئاً ترضى به الخلق ولا تغرن من مالك شيئاً ،
فاما أنا مت فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التي سميتها
المظالم ، فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فإنه تستحمد اليهم والى العامة ،
ـ فعل ذلك المهدى لما ولى الخلافة « (١) .

وأكثر المنصور من وصاياه لابنه في السنة الأخيرة من حياته ،
وكأنه أحسن بدنو أجله وأراد أن يرسم لابنه طريقه بوضوح ، فلم يدع
شيئاً إلا قدم لابنه فيه النصيحة ، وأنورد الطبرى صفحات من هذه الوصايا
نوراً مقتطفات منها . يقول الطبرى :

ـ « ان المنصور أوصى المهدى في السنة الأخيرة لما شخص متوجهها
إلى مكة ، وقد نزل قصر عبدويه وأقام بهذا القصر أيام المهدى معه
يوصيه ، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه بالغدراة والعشى ، ومن
وصاياته :

ـ وانظر هذه المدينة فاياك أن تستبدل بها فانها بيتك وعزك ، فقد
جمعت لك فيها من الأموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين
كان عندك كفاية لأرزاق الجناد والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة التغور ،
ـ فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً مادماً بيت مالك عامراً .

ـ وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقديمهم وتكثر الاحسان
إليهم وتعظم أمرهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليم المنابر ، فإن
عزك عزهم وذكرهم لك .

ـ وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستثثرك منهم ، فإنهم مادتك
ـ لشدة ان نزلت بك ، وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك
ـ وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، أن تحسن إليهم
ـ وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم ، وتختلف من مات في

(١) المرجع نفسه ص ٨١ بتصرف .

أهل وولده ، واياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك » (١) .

وأوصياءه مرة أخرى وهو متوجه إلى مكة وصبية جامعة تناولت شئون الحرب والمال وتعظيم الخلافة واستطلاع الأحوال ، والجند وعدم الكسل ، وحسن الظن بالله ، وسوء الظن بالرجال ، والعدل بين الرعية ، والبيقة وترك الغفلة ، وتوج وصيتيه بتقوى الله وعدم سفك الدماء الا بالحق مع عدم التهاون في حد من حدود الله ، وببدأ الوصية بقوله :

« اتق الله فيما عهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كرتك وحربك مخرجا ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحسب ، احفظ يا بنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك ، واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم ، وأقم الحدود ولا تبتدىء فيها فتبور ، واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضييف العذاب والعذاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما ذكر له عنده من العذاب العظيم فقال : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبو) الآية ٠ فالسلطان يابنى حبل الله المتن ، فاحفظه وحطه وحصنه وذب عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، وأقمع المارقين منه ، وأقتل الخارجين عنه ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فان ذلك أقطع للشغب وأحسن للمعدو ، وعف عن الفيء فليس بك اليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة ٠

واشجن الثغور ، واضبط الاطراف ، وامن السبل ، واياك والتبذير فان النواصب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، واياك وتأخير عمل اليوم الى غد ، وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وآسيء الظن بعمالك وكتابك ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل اذنك للناس ، ولا تنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه غمض الا وقلبه مستيقظ هذه وصيتي اليك ، والله خليقتي عليك » (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ - بتصرف .

ولم تكن وصايا المنصور مقصورة على ابنه المهدى ، ومن وصاياته لرجال دولته وصيانته لحاجبه الخصيب ، فقد ورد أن المنصور ولـى حجابته الخصيب وأوصاه فقال : « وأبسط وجهك للمساندين ، وصن عرضك عن تناول المحظيين ، فما شئ أوقع بقلوبهم من سهولة الاذن وطلقة الوجه » (١) .

وكان المنصور يكره أن ينقده أحد من عامة الشعب ، وإنما كان يفتح صدره لوصايا العلماء الذين يعرف فيهم الاخلاص لله وصفاء النية ، وعلى رأس هؤلاء عمرو بن عبيد وكان الناس يهابون المنصور فلا يعارضونه ، وحدث أن خطب المنصور وذكر الناس بالله ، فقام أحد الجالسين وذكره بالله كما ذكرهم به ، فغضب المنصور وأوصى الرجل وأوصى الناس إلا يذكروا من نزلت الحكمة عليهم ، وكان الرسالة أمر يعم بنى هاشم كلهم .

يقول الطبرى : « خطب المنصور فقال : « الحمد لله احمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، فاعتراضه معترض من يمينه فقال :

« أيها الإنسان ، أذكرك من ذكرت به ، فقطع الخطبة ثم قال : سمعنا سمعاً من حفظ عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذنى العزة بالاثم لقد ضلت اذا وما أنا من المهتدىين ، وأنت أيها القائل ، قوله ما أرادت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعقوب فصبر ، وأهون بها ، وبلك لو همت . فاهتب لها اذ عقوبت ، واياك واياكم بعشر الناس أختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردوها الأمر إلى أهله توردوه موارده ، وتصدروه مصادره . ثم عاد في خطبته » (٢) .

(١) نهاية الارب ج ٦ ص ٩١ - التويرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٩٠

فی عہد المهدی

كما هو المعهود من وصايا الآباء لأنبائهم أوصى المهدى ابنه وولي عهده الملهادى ، وكانت وصيته مطولة شملت الوصية بتقوى الله وايثار رضاه على ما سواه ، كما شملت شئون الولاية ومعاملة الأشياع ومعاملة عامة الناس واختيار الولاة ، وجاءت هذه الوصية في مناسبة خطيرة أوردها صاحب العقد الفريد حيث يقول :

« جمع المهدى أهل بيته لمشاورتهم في حرب خراسان أيام تحاملت عليهم العمال ، والتوروا بالخرج ، واغتر المهدى زلتهم ، ثم اختار ابنه موسى ليرسله إلى خراسان ويوليه على جرجان ، وأوصاه » .

والوصية مطولة مفصلة ، نختار منها ما يوضح النقاط التي ركز عليها المهدى وحرص على أن يتمسك بها ابنه وولي عهده . ومنها :

« أى بنى ، إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصبا ، وللثني أعطاف الرعية غاية ، فحسنتك شاملة ، وأساعتك نامية ، فعليك بتقوى الله عز وجل بطاعته ، ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان عترة من رسليه وبقايها من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه » .

ثم يوصيه بأهل خراسان ويطلب في بيان آثارهم وفضائلهم ، ومن قوله :

« وان أهل خراسان أصبحوا أيدى دولتنا وسيوف دعوتنا ، الذين يستدفعون المكاره بطاعتهم ، فهم عماد الأرض اذا أرجفت كنفها ، وحثوف الأعداء اذا برزت صفحتها ، قد مضت لهم وقائع صادرات مواطن صالحات أخمدت نيران الفتنة ، وقصمت دواعي البدع ، وأنزلت رقاب الجبارين ، ظاظهر عليهم لباس كرامتك ، وانزلهم في حدائق نعمتك ، ثم اعرف لهم حق طاعتهم ووسيلة دالتهم بالاحسان إليهم والتوسعة عليهم والاثابة لحسنهم والاقللة لسيئهم » .

ثم يوصيه بعامة الناس ويحثه على طلب رضاهم ، بالعدل وباعطاء كل بلد حق اختيار حكامه ، فان احسنوا حمد الخليفة ، وان اساءوا فاساءتهم عليهم ، وكان المهدى يفطن الى حق الانتخاب للشعب وان اختلفت طريقة الانتخاب فى كل عصر ، ومن وصية المهدى في ذلك :

« أى بنى ، ثم عليك العامة فاستدعاها بالعدل عليها ، واستجلب مودتها بالانصاف لها ، واجعل عمال القدر (ذوى الشرف والحسب) وولاة الحجج مقدمة بين يدى عملك خ ونصفة منك لرعايتك ، وذلك أن تامر قاضى كل بلد وختار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجالاً توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم ، فان أحسن حمداً ، وان أساء عذراً » .

ثم يوصيه بالحرص على اختيار رجلين يلزمانه ، أحدهما كريم الخلق شريف الحسب راجح العقل ظاهر التقوى ، والثانى بصير بالأمور فصيح اللسان محذك فى الحروب ، وقد أصاب المهدى ، فالأول يظهر الخليفة تظاهر التقى الحريص على ملازمة ذوى التقوى ، والثانى يحسن تصريف الأمور ويدفع باللحجة ويناصر فى الحرب ، ومن قول المهدى في ذلك :

« ولا ينفكن فى ظل كرامتك نازلاً ، ويعرا حبك متعلقاً رجلان : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، وله أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح ، والأخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليل الكلام وتصريف الرأى وأنحاء الأدب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحرب وتصاريف الخطوب ، فتستشيره فى حربك وتدخله فى أمرك » .

ويوصيه كذلك بأن يجمع حوله جماعة مختارة من الفقهاء وختار الناس يكونون سماره وأهل مشورته فيقول : « ولا تدع أن تخثار لك من فقهاء البلدان وختار الأمصار أقوااماً يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد » .

ويختتم الوصية بالدعاء لابنه وولي عهده فيقول : « فسر على بركة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدى الى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالحق لسانك » .

وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ٢٠٠ ببغداد (١) .

وعندما حضرته الوفاة أوصى ابنه الرشيد بأهل بيته رسول الله وبأهل الحرمين ، ولفت نظره إلى مكانتهم الدينية وأثر أبنائهم في نصرة الرسول عليه السلام . ومن قوله :

« عليك يا بنى بتقوى الله العظيم وطاعته فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة ، وأوصيك بأخوتك خيرا ، وأهل بيته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقبل حسناتهم وتجاوز عن سيئاتهم ، واغفر لزلاتهم وأوصيك بأهل الحرمين خيرا فقد علمت من هم ؟ وأبناء من هم ؟ أجزل لهم العطاء وأحسن لهم الجزاء ، يكافئك الله في الآخرة والأولى » (٢) .

وكما أوصى المهدى أبناءه نراه يوصى ولاته وقادته ، ولم تخرج وصاياه عن المعهود في وصايا الخلفاء لرجالاتهم ، وقد ولى المهدى الريبع بن أبي الجهم فارس ، ثم أوصاه فقال له :

« ياربيع ، أثر الحق ، والزم القصد ، وابسط العدل ، وارفق بالرعية ، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه ، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره » (٣) .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ الى ص ٢١٢ بتصرف .

(٢) تاريخ الخلفاء (الإمامية والسياسة) ص ١٨٣ - ابن قتيبة - مؤسسة الوفاء . بيروت .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٣١ .

في عهد الرشيد

وأشهر وصايا الرشيد وصيته لابنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، ثم للقاسم المعتصم ، وهذه السنة التي اتبعها الخلفاء العباسيون أثارت النزاعات والحروب بين أبناء البيت الواحد ، وخلع الأمين أخيه المأمون ليولى ابنه مكانه واشتعلت الحرب بين الأخرين ، وانتهت بقتل الأمين واستيلاء المأمون على السلطة .

وغير الرشيد صورة الوصية فكتب كتابين أحدهما على لسان الأمين ، والثاني على لسان المأمون ، يتعهد كلاً منها بالوفاء بما أمل أمير المؤمنين هارون الرشيد ، ويبدو بوضوح في هذين الكتابين أن الرشيد كان يخاف بل ويتوقع أن ينقض الأمين وصية الرشيد للمأمون ، فأخذ على الأمين عهوداً موثقة .

والكتابان مطولان نحاول أن نوجزهما بحيث نبرز الأهداف التي يرمي بها ، وقد جاء في مطلع كتاب الأمين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره ، ان أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده ، وولي عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمرور المسلمين بعدى وولاه خراسان وثورتها في حياته وبعده » .

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين فعلى محمد انفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثورتها » .

ويظهر بوضوح خوف الرشيد من نقض الأمين العهد حيث يقول : « فإن أراد محمد خلع عبد الله من ولاية العهد من بعده أو عزل عبد الله عن ولاية خراسان فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين وهو المقدم على محمد » .

ويحث المسلمين على انفاذ العهد فيقول : « فعليكم عشر المئتين انفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وعهد الله وذمته رسوله صلى الله عليه وذم المسلمين والمعهود والمواثق التي أخذ الله على الملائكة للقربين والنبيين والمرسلين ووكيدها في أنفاس المؤمنين والمسلمين ، لتفن لعبد الله بما سمي ، وللحمد وعبد الله والقاسم بما سمي .

واله عليكم بذلك كفيل وراع ، وكفى بالله حسيبا ، (١) .

وكتب الرشيد كتابا آخر باسم المؤمن جاء مطلعه شبها بما جاء في الكتاب الذي كتبه باسم الأمين ، ينص على أن الرشيد ولاه خراسان في حياة الأمين ، وجعله ولية للழد يرث الخلافة بعد أخيه الأمين ، ومما جاء في هذا الكتاب على لسان المؤمن :

« إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون ، وولاني في حياته شغور خراسان وجميع أعمالها » .

ثم كتب الرشيد على لسان المؤمن أن يقى لأخيه محمد بالسمع والطاعة ، وما جاء في ذلك :

« فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ما وفى لى بما شرط لأمير المؤمنين في أمرى ، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسمت في كتابه هذا فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وشهد سليمان بن أمير المؤمنين ، وفلان وفلان ، وكتب في ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة » (٢) .

للرشيد وصايا لقواده وولاته ، وكان الرشيد قد ولى على بن عيسى

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٧٨ الى ص ٢٨١ بتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٨١ الى ص ٢٨٣ بتصرف .

ابن ماهان خراسان فعاد فيها فسادا ، فعزله الرشيد وولى هرثمة بن أعين . وأوصى الرشيد هرثمة وصيحة بدائها بالقوى ، ثم أوصاه بشأن على بن عيسى : « وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم وطأته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين ، فإذا استنفط ما عندهم من ذاك نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يربوه إليهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخاصهم كما تشخيص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقة من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين ان شاء الله » .

وفي ختام الوصية يقول : « فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك ، فاني آثرت الله وديني على هواي وارادتي ، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره . ان شاء الله » .

وكتب أمير المؤمنين بخط يده ، ولم يحضره الا الله وملائكته » (١) .

وهكذا وردت بعض الكتب وفيها أسماء الكاتب والشهود ، وهذا الكتاب كتبه أمير المؤمنين بخطه ولم يحضره أحد .

وكتب الرشيد وصيحة الى هرثمة يأمره بالاشتداد على على بن عيسى . ويأمره بالذهب الى سمرقند والعفو عن تاب من اهلها وعقاب من لم يتبع (٢) .

وكان وزراء الرشيد يعرفون عنه شدة غضبه ويحذرونه كما يجدون من وصاياتهم لمن حولهم ، وأوصى الوزيران الكبيران يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع بالحذر في معاملة الملوك وفي مخاطبتهم . ومن وصاياته :

(١) المرجع نفسه ص ٣٢٧ بتصرف .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٦ .

« اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج
الأحمق » (١) .

وшибه بهذه الوصية وصية الفضل بن الربيع اذ يقول : « اياكم
ومخاطبة الملوك بكل ما يقتضي جوابا ، لأنهم ان اجابوكم اشتد عليهم ، وان
لم يجيبوكم اشتد عليكم » (٢) .

وأوصى عبد الملك بن صالح أمير سرية الى بلاد الروم فقال : « أنت
تاجر الله لعباده فكن كالمضارب الكيس الذى ان وجد ربحا تجر ، والا احتفظ
برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على
عدوك اشد حذرا من احتيال عدوك عليك » (٣) .

وهنا يبدأ الوصية بتشبيهين ملائمين ، فالتجار والمضارب لا يقدمان
الا اذا خضنا الرابع ، ثم انه تاجر الله ومسئول امامه ، ونرى المقابلة التي
يتطلبهما المعنى : « ان وجد ربحا تجر ، والا احتفظ برأس المال » .

(١) المستطرف ج ١ ص ٢٠٣ محمد بن أحمد الابشيهى . دار الكتب العلمية
بيروت .

(٢) تحفة الوزراء ص ١٢٠ عبد الملك الثعالبي . مطبعة العانى بغداد .

(٣) عيون الاخبار ج ١ ص ١٠٩ - ابن قتيبة . دار الكتاب العربى .

في عهد الأمين والمؤمنون

وضع الرشيد لبنة الخلاف بين الأمين والمؤمن حين جعل ولاية العهد للأمين ثم للمؤمن ، وألت الخلافة إلى الأمين بعد وفاة الرشيد ، ولم يمض وقت طويل حتى طمع الأمين في نقل ولاية العهد إلى ابنه فأعلن خلع أخيه المؤمن ، وأعلن ابنه ولیا للعهد ، وقامت الحرب بين الأخوین .

وكان الأمين صاحب لهو ، ولم يكن مقبلا على العلماء والأدباء ، ولذلك لا نجد له كثيرا من الوصايا ، وما وجدناه من وصايا له يدور حول الحرب التي اشتغلت بيته وبين أخيه ، ومن وصاياه القليلة وصيته لقائده المتوجه لحرب المؤمنون ، فقد ذكر الطبرى أن أحمد بن مزيد لما أراد الشخصوص لحرب المؤمن دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى - أكرم الله أمير المؤمنين - فقال :

« أوصيك بخصال عدة ، اياك والبغى فانه عقال النصر ، ولا تقدم رجلا الا باستخاراة ، ولا تشهر سيفا الا بعد اعذار ، ومهما قدرت باللين فلا تتعده الى الخرق والشره ، وأحسن صحابة من معك من الجن ، وطالعنى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي ، ولا تستبقها فيما تتغوف رجوعه على ، وركن لعبد الله (يقصد عبد الله بن حميد بن قرطبة) أخا مصافيا وقرينا برا ، وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشته ، ولا تخذله ان استنصرك ، ولا تبطئ عنه اذا استنصرتك ، ولتكن أيديكما واحدة ، وكلمتكم متفقة » (١) .

ثم أرسل الأمين على بن ماهان سنة ١٩٥ هـ لحرب المؤمنون ، وأوصى الأمين قائده فقال :

« امنع جندك من العبث بالمرعية والغاره على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء ، وول الرى يحيى بن على ، ولهمم اليه جندا كثيفا ومره

ليدفع الى جنده أرزاقهم مما يجيء من خراجهما ، وول كل كورة ترحل عنها رجلا من أصحابك ، ومن خرج اليك من جند أهل خراسان ووجوهاها فأظهر اكرامه وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخا أخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدا رماك بــ لهم أو طعن في أصحابك برمج ، ولا تاذن لعبد الله في المقام أكثر من ثلاثة أيام من اليوم الذي تظهر فيه عليه ، فاذا أشخصته فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فان غره الشيطان فناصبك فاحرص على أن تأسره أسرا ، وان هرب منك الى بعض كور خراسان فتقول اليه المسير بنفسك . أفهمت كل ما أوصيك به ؟ قال : نعم . أصلح الله أمير المؤمنين . قال : سر على بركة الله وعونه « (١) » .

ومن وصايا النساء في عهد المؤمن وصية السيدة زبيدة لعلى بن ماهان لما أراد الشخص الى خراسان :

« ياعلى ، ان أمير المؤمنين وان كان ولدى ، اليه تناهت شفقتي ، وعليه تكامل حذري ، فاني على عبد الله منعطفة مشقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وانما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغاراه (لاجه) على ما في يده وال الكريم يؤكل لحمه ويمته غيره ، فاعرف لعبد الله حق والده وأخوه ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تسأره في المسير ، ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتكم حتى تأخذ برکابه ، وان شئت فاحتمل منه وان سفة عليك فلا ترادي » (٢) .

اما المؤمن فكان رجل جد وعلم وكان يقبل على العلماء والأدباء ، وكان هو اديبا شاملا ، وعالما حكينا ، وكثرت وصاياه في مختلف الأمور ، وأشهر وصاياه السياسية وصيتها مطولتان نعرض أجزاء منها في هذا البحث .

اما أولى الوصيتيين فوصيته لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد ، وكان المؤمن يحب آل أبي طالب ويتشيع لعلى ، واختار على بن موسى الرضا

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٠٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٠٥ .

ليكون خليفة من بعده ، وكتب الوصية وأشهد عليها ، وأشارت هذه الخطوة بنى العباس ، وأعلن ابراهيم ابن المهدى نفسه خليفة بغداد ، ثم مات على بن موسى الرضا فى ظروف غامضة ودخل المأمون بغداد ، وقبض على ابراهيم بن المهدى ، واستقرت الأمور للمأمون .

وفي محلع وصيته لعلى الرضا يعلن أنه كتب هذه الوصية بيده دلالة على شدة اهتمامه بهذا الأمر . يقول المأمون : « هذا كتاب كتبه عبد الله ابن هارون الرشيد أمير المؤمنين بيده لعلى بن موسى بن جعفر ولـى عهـدـه » .

ثم يتحدث عن الاسلام واصطفاء الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، ثم قيام الخلافة بعد النبي عليه السلام ، وضرورة طاعة الخلفاء لله ، وطاعة الناس للخلفاء .

ثم ينتقل الى غرضه الأساسي فيتحدث عن ولاية العهد وأن مسألة الامامة من تمام أمر الاسلام ، وأنه اجتهد غاية الاجتهاد ونظر في آل العباس وآل على بن أبي طالب فلم يجد أحـقـ بالـخـلـافـةـ بـعـدـ الـمـأـمـونـ منـ عـلـىـ بـنـ مـوـسـىـ الرـضـاـ . ومن قوله :

« فـكـانـتـ خـيـرـتـهـ بـعـدـ اـسـتـخـارـتـهـ اللـهـ عـلـىـ بـنـ مـوـسـىـ بـنـ جـعـفـرـ بـنـ مـوـحـمـدـ بـنـ عـلـىـ بـنـ الـحـسـنـ بـنـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ لـماـ رـأـىـ مـنـ فـضـلـ الـبـارـعـ وـعـلـمـ الـنـاصـحـ وـوـرـعـهـ الـظـاهـرـ ،ـ فـعـقـدـ لـهـ بـالـعـقـدـ وـالـخـلـافـةـ إـيـثـارـاـ اللـهـ وـالـدـيـنـ وـنـظـرـاـ لـلـمـسـلـمـيـنـ » .

ثم يعلن المأمون أن ولده وأهل بيته بایعوا ، ويدعـو جـمـيعـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ هـذـهـ الـبـيـعـةـ . فيـقـولـ : « وـدـعـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـلـدـهـ وـأـهـلـ بـيـتـهـ وـخـاصـتـهـ وـقـوـادـهـ وـخـدـمـهـ فـبـايـعواـ ،ـ فـبـايـعواـ مـعـشـرـ بـيـتـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـمـنـ بـالـمـدـيـنـةـ الـمـحـرـوـسـةـ وـعـامـةـ الـمـسـلـمـيـنـ الـرـضـاـ عـلـىـ اـسـمـ اللـهـ وـبـرـكـاتـهـ ،ـ شـاكـرـيـنـ اللـهـ مـاـ أـلـهـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ ،ـ رـاجـيـنـ عـائـدـهـ فـيـ ذـلـكـ فـيـ جـمـعـ الـفـتـكـ وـحـقـنـ دـمـائـكـ وـاسـتـقـاماـةـ أـهـلـ رـكـمـ ،ـ فـانـهـ الـأـمـرـ اـنـ سـارـعـتـمـ إـلـيـهـ وـحـمـدـتـمـ اللـهـ عـلـيـهـ عـرـفـتـمـ الـحـظـ فـيـهـ اـنـ شـاءـ اللـهـ تـعـالـىـ » .

وشهد الفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر ويحيى بن اكتم وحماد بن

النعمان وبشر بن المعتمر (١) .

أما الوصية الثانية فوصيته في مرضه الأخير عندما اشتدت عليه العلة ، وجزء كبير من هذه الوصية موجه إلى ولی عهده المعتصم ابن هارون الرشید ، يقول الطبری :

« في السنة التي توفى فيها المؤمن نفذت كتبه إلى عماله في البلدان أنه اذا حدث الموت فالخليفة من بعده أبو اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشید » (٢) .

وأورد الطبری وصيته حين اشتدت عليه العلة ، وهي وصية مطولة جمعت كثيرا من رغبات المؤمن وأرائه ومعتقداته ، ونص الطبری على أنه أوصى بحضور ابنه العباس ، وحضور القضاة والفقهاء والقواد والكتاب .

بدأ الوصية بشهادة أن لا إله إلا الله وبتفجره بالخلق والتذير ، وبشهادته بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وباقراره بالذنب وأمله في عفو الله (٣) .

ثم وجه الوصية إلى الحاضرين موصيا ياهم بما يفعلونه حين ينزل به الموت . فقال :

« فإذا أنا مت فوجهوني وغمضوني وأسبغوا وضوئي وظهورى وأجيدوا كفى ، ثم أضعجونى على سريري ، ثم عجلوا بي ، فإذا أنتم وضعتمونى للصلوة فليقدم بها من هو أقربكم بي نسبا وأكبركم سنًا ، ثم أقولونى فابغلوا بي حفري ، ثم ضيعونى على شقى الأيمان واستقبلوا بي القبلة ، وحلوا كفني عن رأسي ورجلى ، واجروا عنى وخلونى وعملى ، ولا تدعوا باكية عندى» .

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٦٢ - القلقشندي . المطبعة الاميرية بالقاهرة .
بتصرف .

(٢) تاريخ الطبری ج ٨ ص ٦٤٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٦٤٧ .

ثم وجه المأمون حدثه الى أخيه المعتصم موصيا اياه بما يفعله وما يتركه ، وكشفت هذه الوصية عن بعض معتقدات المأمون المذهبية ، وعن آرائه في بعض الرجال ، وعن حبه لبني عمه من ذرية على بن أبي طالب . يقول المأمون :

« يا أبا اسحاق » ادن مني واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة اذا طوتكها الله عمل المريد الله الخائف من عقابه وعداته ، ولا تغفل أمر الرعية فان الملك بهم ويتبعهم المسلمون ، وجعل الرحمة عنى والقدوم الى دار ملكه بالعراق » . وكان المأمون على مذهب المعتزلة يقول بخلق القرآن ونراه هنا يوصي أخاه باتباع مذهبة .

وكانت الخرمية مصدر قلائل وفتن منذ عهد الخليفة المهدى ، وجدد الخلفاء الجيوش لقتالهم ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم ، وأشتدت ثورة الخرمية بقيادة بابك في عهد المأمون ، ووجه اليهم الجيوش فلم يتمكنوا من القضاء عليهم ، ولم ينس المأمون أن يوصي أخاه المعتصم بحرب الخرمية ، وفي هذا يقول :

« والخرمية فاعزهم ذا حزامة وصراحة وجسد ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه » .

ثم أخذ يبين له رأيه في الرجال فقال :

« وانظر من كنت تسمعني أقدمه فأضعف له التقدمة ، عبد الله بن طاهر أقره على عمله ، ولا تهجه ، فقد عرفت الذى سلف منكم أيام حياتي وبحضرتى ، استعطفه بقلبك ، وخصمه ببريك ، فقد عرفت بلاءه وغناءه عن أخيك ، واسحاق بن ابراهيم فأشركه فى ذلك فانه أهل له ، وأبو عبد الله بن أبي دؤاد فلا يفارقه وأشركه فى المشورة ، ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا فقد علمت ما نكبيى بن يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك عنه فى صحة منى فصرت الى مفارقته لاجزاه الله عن الاسلام خيرا » .

وظل المؤمن على حبه لآل أبي طالب ، وأوصى أخاه بهم فقال : « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها ، اتقوا الله ربكم حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، استودعكم الله ونفسي ، وأستغفر الله ربكم مما سلف ، حسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة » (١) .

ولوزراء المؤمن وصايا سياسية تنم عن بصر بالأمور وحسن تفكير وتدبر ، يقول أحمد بن يوسف كاتب المؤمن : « اذا لم تقدر ان تعرض يد عدوك فقبلها » (٢) .

وأطول الوصايا في تلك الفترة وأشملها لجوانب الأمور السياسية والحربية والاجتماعية والدينية وصية طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله في عهد الخليفة المؤمن ، وكان طاهر قد احتل مكانة عالية في الدولة ، ثم عمل على أن يمكن لأبنائه في ظل الدولة العباسية ، فولى ابنه عبد الله ديار ربيعة ، وكتب له وصية رائعة شاملة أعجب بها المؤمن وأشار بها ، وصارت حديث الناس وتناقلوها وحفظوها .

وتقع الوصية في تسع صفحات ، ولم تدع أمراً مهماً من أمور الدنيا والأخرة إلا أشارت إليه ، وأكثرت من التعليل والاستشهاد حتى يقنع القارئ ، ولا نستطيع إلا أن نبرز أركان هذه الوصية مع الإيجاز الشديد لها .

بدأ طاهر الوصية بالبسملة كما هي عادة الكتاب في ذلك العصر ، وافتتح الوصية بتقوى الله ، ثم بالرأفة بالرعية والعدل بينهم مع اقامة حدود الله عليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، عليك بتقوى الله وحده لاشريك له ، ۴۰۰۰ ان الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم » .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٤٧ الى ص ٦٥٠ بتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٣ .

ثم أوصاه بالمحافظة على الصلوات فروضها وسننها وأدائها في مواعيدها واتقانها وأسباغ الوضوء لها وحضر الجماعة عليها ، ثم أمره بالاستعانة على الأمور باستخارة الله والعدل وايثار أهل التقوى ، وأمره بالاقتصاد والاعتدال .

ويبدو صدق النظرة وشمولها ودقتها حين يوصيه بحسن الظن بالله وعدم اتهام الناس بدون بينة ، وحسن الظن بأصحابه مع التجربة وال المباشرة ، وأيضا تقويم نفسه لأنه مسئول عما يصنع . يقول : « وأحسن الظن بالله عن وجل تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة اليه في الأمور كلها تستدム به النعمة عليك ، ولا تهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكتشف أمر بالتهمة ، فإن ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم هائم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتدعوا به الناس الى محبتك ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك وال المباشرة لأمور الأولياء ، وتفقد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك » .

ثم يوصيه بتجنب البدع والوفاء بالمعهد ، وصون لسانه عن الكذب والزور والنميمة ، ويوصيه بحب أهل الصدق والصلاح وصلة الرحم وكظم الغيط ، ويبدي رأيه في مسألة الجبر والاختيار فيقول : إن الإنسان مخير لا مصير .

ويوصى ابنه بانفاق الأموال فى الرعية وعدم اكتنازها ، ويرسم له مواقفه من الرجال فيقول له : « ولا تمايلين حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولا تصلن كفورا ، ولا تداهن عدوا ، ولا تصدقن ناما ، ولا تؤمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تحمدن مرائيا ، ولا تحقرن انسانا ، ولا تردن سائلا » .

ثم يحذر من تصرفات مسيئة فيقول : « ولا تحببن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ، ولا تمشين مرحبا ، ولا تغبطن في في طلب الآخرة ،

وليس شيء أسرع فساداً مما استقبلت من أمر رعيتك من الشح ، (ومن يوق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

ويوصيه بالجند خيرا لأنهم قوام الملك ، ويوصيه بتفقدهم في دواوينهم
وأجزاء عطائهم ، ويوصيه بالعدل والثبت وعدم التسرع إلى سفك الدماء
ويلفت نظره إلى أن الحق من واجب حمل الناس كلهم عليه مع استعمال
ذوى الرأى والتدبير والتجربة ، وأن يكون له في كل كورة أمين يخبره
بأخبار عماله .

ويختتم وصيته بالدعاء له بالنصر والتوفيق (١) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ الى ص ٥٩١ - بتصرف .

بعد الخليفة المأمون

الى منتصف القرن الثالث

ولى المعتصم الخلافة بعد أخيه المأمون في سنة ٢١٨ هـ . وكان هناك فرق شاسع في العلم والثقافة بين المأمون والمعتصم ، وقد أسلفنا أن المأمون كان بحراً زاخراً في العلم والأدب ، أما للعصف فامتاز بالقوة الجسدية الخارقة ، ولكنه كان أمياً أو شبه أمياً ، وانصرف عن تعلم الكتابة منذ طفولته .

ومما ورد في ذلك : « كان المعتصم شجاعاً شديداً البدن يحمل ألف رطل بغدادي ويمشي بها خطوات فيما قيل ، وكان مع ذلك أمياً لا يحسن الكتابة ، ضعيف البصر بالعربة ، ويقال : أنه رأى جنازة بعض الخدم يوماً فقال : ليتني مثل هذا حتى أتخلص من الكتاب ف قال له أبوه الرشيد : والله لا عذبك بشيء تختار عليه الموت ، ومنعه عن الكتب من يومئذ » (١) .

ولا نتوقع من خليفة أمياً أو شبه أمياً أن يوصي وصية يهتم الأدب بتسجيلها وحفظها ، وقد يوصي قائده الذاهب إلى الحرب ، وقد يوصي وزيره ، ولكن وصيته لن تتمتع بالأسلوب الأدبي الذي يدعو الأدباء والرواة إلى تسجيلها وحفظها ، وهذا هو السبب في رأينا في عدم احتفاظ كتب التراث بوصايا الخليفة المعتصم أو لرجاله الذين من حوله .

وأبرز وصية في تلك الفترة وصية الخليفة المتوكل لأبنائه الثلاثة بولاية العهد واحداً بعد الآخر ، ولم يتعظ بما حدث بين الأمين والمأمون ، وحدث بين الآخوة الثلاثة ما حدث لسابقيهم وقتل الأخ أخاه أو خلعه وألقى به في غياب السجون .

(١) مأثر الاناقة في معالم الخلافة ج ١ ص ٢١٨ - أحمد بن عبد الله القلقشندي المطبعة الأميرية بالكويت .

يقول الطبرى فى أحداث سنة ٢٣٥ هـ : « عقد الخليفة جعفر المتوكى لبنيه الثلاثة . لمحمد وسماه المنتصر ، ولأبى عبد الله بن قبيحة . وقيل : ان اسمه محمد ، وقيل : اسمه الزبير ولقبه المعتز ، ولابراهيم وسماه المؤيد بولالية العهد » .

وفى صدر الوصية ذكر أسماء أبنائه واللقب أو الكنية ، وذكر أنه أشهد الشهود ، وكتب تاريخ الوصية فقال : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن جعفر الامام المتوكى على الله أمير المؤمنين ، أشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ، ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لحمد المنتصر بالله ، وأبى عبد الله المعتز بالله ، وابراهيم المؤيد بالله بنى أمير المؤمنين ، فى أصالحة من رأيه وعموم من عافية بدنه مختار الماشهد به ، متوكيا بذلك طاعة ربها وسلامة رعيته ، وذلك فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين » .

والوصية طويلة تقع فى أربع صفحات كبيرة نبرز أهم ما جاء فيها ، وقد رتب أبناءه فى ولاية العهد كما مر ، ونص - كما فعل الرشيد - على رحوب طاعة المعتز والمؤيد لأخيهما الاكبر اذا آلت اليه الخلافة ، فقال :

« وجعل عبد الله جعفر الامام المتوكى على الله أمير المؤمنين لمحمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين على أبى عبد الله المعتز بالله ، وابراهيم المؤيد بالله ابنى أمير المؤمنين السمع والطاعة والنصيحة والمشایعة والموالة لأوليائهما ، والمعاداة لأعدائهما فى السر والجهر والغضب والرضا »

ثم أكد المتوكى لابنه محمد المنتصر ضرورة أن يفى لأخويه بما عقده الوالد لهما من ولاية العهد فقال : « وجعل عبد الله جعفر الامام المتوكى على الله أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبى عبد الله المعتز وابراهيم المؤيد بالله ابنى أمير المؤمنين الوفاء بما عقده لهما وعهد به اليهما من الخلافة بعد محمد المنتصر بالله وابراهيم المؤيد بالله الخليفة من بعد أبى عبد الله ، وألا يخلعهما ولا واحداً منها ، ولا يؤخر منها متقدما ، ولا يقدم منها مؤخرا ، ولا ينقصهما ولا واحداً منها شيئاً من أعمالهما التي ولاهما عبد الله جعفر الامام المتوكى على الله أمير المؤمنين » .

وراح المتكمل يعدد الأعمال التي أنسنها إلى المعتز والمؤيد ، ثم أكد حق المعتز على المؤيد إذا آلت الخلافة إلى المعتز ، وحق المؤيد على المعتز ، واقتبس الآية الكريمة : (فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا اثْمَهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدَلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

وأشهد الله على ذلك ، وأشهد من حضره من المسلمين ، وختم الوصية بالعبارة التالية :

« وقد كتب هذا الكتاب أربع نسخ ، وووقيعت شهادة الشهود بحضوره أمير المؤمنين في كل نسخة منها ، في خزانة أمير المؤمنين ، وعند محمد المنصور بن أمير المؤمنين نسخة ، وعند أبي عبد الله المعتز بالله بن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند ابراهيم المؤيد بالله بن أمير المؤمنين » (١) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٧٥ الى ص ١٨٠ بتصرف .

في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

كانت هذه الفترة فترة صراعات وعدم استقرار ، وتصارع أبناء المتوكل الثلاثة الذين أوصى لهم أبوهم بولالية العهد ، وشغل الخلفاء بالصراعات ، وبعضهم كالمعتمد كان مشغولاً باللهو ، وقل دخول العلماء على الخلفاء وتوصيتهم كما كان يحدث في صدر الدولة العباسية .

ومن أبرز الوصايا في تلك الفترة وصية الموفق لأحد رجاله وقد ولاد الصلاة وال الحرب والأحداث ، وتقع الوصية في ست صفحات ، وتجمع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، وكتب الوصية ابن ثوابه ، ومما يتعلّق بالسياسة قوله :

« وأمره أن يحسن الولاية لأهل عمله ، والسياسة لمن استرعى أمره ، ويكثر الجلوس لهم والنظر في أمورهم ، ويفيض العدل والنصفة فيهم ويكشف العدو والظلم عنهم ، ويسوى الحق بين كافتهم ، وأن يشرف على أهل الدعاة والفساد في عمله ويقمعهم ويردعهم فি�شرد بهم ريعاً من استحق العقوبة منهم بقدر جرمه .

وأمره أن يتفرد طرف عمله ومسالحه بالضبط لـ « بذرقة السباقة » المختلفة فيها ، ويرتب فيها الثقات من أصحابه وأهل الجلد من جنده وأعوانه » (١) .

ومن وصايا هذه الفترة وصية عبد الله بن طاهر قبل وفاته باستخلاصه أخيه عبيد الله من بعده ، وهذه نسخة الوصية :

« أما بعد ، فإن الله عز وجل جعل الموت حتماً مقتضياً جارياً على الباقيين من خلقه ، حسبما جرى على الماضين ، وحقيقة على من أعطى حظاً

(١) اختيار المنظور والمثار ج ٣٤٦ / ١٣ بتصرف والمسالح جمع مسلحة وهي الثغر – وبالذرقة الخفارة . فارسية معربة .

من توفيق الله أن يكون على استعداد لحلول ما لابد منه ولا محيس عنه في كل الأحوال .

وكتابي هذا وأنا في علة قد اشتد الاشغال منها ، وكان الاياس يغلب على الرجاء فيها ، فان يبل ويدفع بقدرته وكرمه عادته ، وأن يحدث لى الحدث الذي هو سبيل الأولين والآخرين فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الشهولى أمير المؤمنين ، أخي الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعلم بحسبه ، فاعلم ذلك وائتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره ان شاء الله»

وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ثلاثة وخمسين ومائتين (١) .

وكان من حق الولاية أن يستخلفوا خلفاء في حياتهم ، ونرى هذه الوصية معلقة بموافقة أمير المؤمنين وقرار عبيد الله اثباتاً لحسن نواياه في طاعة الخليفة .

ولم تعدم هذه الفترة وصايا تدعو الرؤساء إلى توخي العدل وتفضيل المصلحة العامة ، وليس من الضروري أن يكون الموصى من رجال الدين ، فقد يكون من ذوى الخبرة .

ومن هذه الوصايا وصية تدعو إلى الدقة في اختيار الولاية ، وجاءت على لسان أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات يوصى الوزير العباس بن الحسن ، وكان ابن الفرات يتولى ديوان الخليفة المكتفى ، وقال يوصى الوزير العباس بن الحسن :

« فليتقى الله الوزير ولا ينصب إلا من قد عرّفه واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعاً فيشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين

فلا يخاف العقوبة والأثام ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يول من عرف
نعمه هذا أو بستانه هذا أو ضيغة هذا أو فرش هذا ، ومن قد لقى الناس
ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه
دخلهم وخرجهم » (١) .

ومن وصايا الوزراء وصية أبي على البصير إلى عبد الله بن يحيى
ابن خاقان ، وفيها يوصى صاحبها بالاعمدة حبه لأمير المؤمنين عن النظر للرعاية
وألا يشغله بما هو عليه ، ويرسم في هذه الوصية كثيراً من المنهج
الواجب على الحاكم اتباعها ، وجاء في هذه الوصية :

« لا يخرجك فرط النصح لأمير المؤمنين عن النظر لرعايته ، ولا ايثار
حقه عن الأخذ بحقها عنده ، ولا القيام بما هو له عن تضمن ما هو عليه ،
ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها ، ولا الجد في اصلاح
ما يصلح منها عن النظر في عواقبها ، تمضي ما كان الرشد في امضائه ،
وترجع ما كان الحزن في ارجائه ، وتبذر ما كان الفضل في بذله ، وتمنع
ما كانت المصلحة في منعه ، وتلين في غير تكبر ، وتحص في غير ميل ،
وتعتم في غير تصنع ، لا يشقي بك المحب وان كان عدوا ، ولا يسعد بك
المبطل وان كان ولينا » (٢) .

(١) الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٩ .. ابن الأثير . دار صادر بيروت .

(٢) زهر الأدب ج ١ ص ٣٤١ .

في القرن الرابع الهجري

في القرن الرابع تسلط الحكام وكثير الظلم والمصادرات وخلع الوزراء والزج بهم في السجون ، ولذلك نرى معظم الوصايا السياسية تدور حول مداراة السلطان أو تجنبه والبعد عنه أو الصبر على أذاه أو ما ماثل ذلك .

وفي هذا القرن ظهر كبار الكتاب وظفر هذا القرن بما لم يظفر به قرن آخر من أمثال ابن العميد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والصاحب بن عباد وقابوس بن شكمير وأبي اسحاق الصابى ، وعظم نفوذ هؤلاء الكتاب وأطماء إليهم الخلفاء والرؤساء وصار الرؤساء يطلبون من الكتاب كتابة رسائل في مختلف المناسبات ، وجاءت معظم هذه الرسائل مطولة تعالج المسائل السياسية فتواسي المكتوب أو تؤنبه أو تحث التأثر على العودة إلى حظيرة الطاعة أو مداراة السلطان والصبر على أذاه .

وهكذا ظهرت سمات جديدة في أدب الوصايا حيث صارت معظم هذه الوصايا تأتي ضمن رسائل مطولة صادرة من كبار الكتاب .

ومع ذلك فنحن لانعدم وصايا صادرة من أب لابنه أو من كبير مجرب لاتباعه ، ومن أبرز وصايا الآباء لأبنائهم في تلك الفترة وصية أبي الهيجاء الحمداني لابنه ناصر الدولة ، وقد حكى ناصرا الدولة موقف أبيه والمناسبة التي وجه فيها هذه الوصية .

« حدث ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان قال : كان أبي أبو الهيجاء شديد الانحراف عنى لما يراه من الفضل في وحشه منى على أعماله ، فتولى طريق خراسان فجلس يعرض دوابه ببقى منها خمسين دابة ما بين زمن وأعجف ، ثم قال : يا حسن ، هذه الدواب مسلمة إليك فان قمت بها حتى تصح وتبراً وتسمن علمت أنك تصلح لها هو فوقه ، فما مضى عليها الا شهر وأيام حتى صحت وسمنت ، فسر بذلك وقال : يا حسن ، هوزا ، أعلمك بدل قيامك بهذا الأمر شيئاً تنتفع به ، فقلت : يا سيدى . »

قال : اذا رأيت السلطان قد رفع من أهلك رجلا ، أو الزمان قد نوه به برأسه فاياك أن تحسده أو تشغل نفسك بعداوته ، فانك تتعب ولا تصل الى فائدة ، وتسقط انت ولا يضره هو ، وتغضن من نفسك بغضنك من رجل صار كبيرا من أهلك واجهد أن تخدمه وتصافيه الود وتصير أحد أعوانه ، فان كان لك منزلة من السلطان جاز أن تصل اليها باستخلافه اياك عليها وانتقاله الى ما هو أكبر منها ، وكذلك ان كانت منزلته من غير سلطان فلا تقل : أنا أقعد منه في النسب واني خير قرابته ، وهذا أمس كان وضيعا وكان دوننا ، فان الناس بأوقاتهم « (١) » .

ومن الوصايا العامة التي لم توجه الى شخص معين وصية أبي على الصغاني ، يحذر فيها من التعامل مع الملوك أو الاطمئنان اليهم ، يقول : « اياك والملوك فان من والاهم أخذوا ماله ، ومن عاداهم أخذوا رأسه » (٢) .

ومعظم الوصايا في القرن الرابع تأتي ضمن رسائل مطولة كما قلنا ، وتأتي هذه الرسائل راسمة الطريق الذي يجب أن يتبع في معاملة الرؤساء ، وقد تجمع بين الأمر بالتقى والأمر بالطاعة لأمير المؤمنين ، وهكذا كانت هذه الرسائل بداع من الرؤساء أو بداع من الصدقة والوفاء ، وأحيانا بداع الشماتة .

ومن الرسائل التي ترسم طريقة معاملة الرؤساء رسالة كتبها ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين ، وكان صديقا لأبي عبد الله الطبرى ، فكتب ابن العميد اليه هذه الرسالة يوصيه بما يجب أن يتحلى به في الحياة الرسمية ، وبعد التمهيد يقول :

« واركب في الخدمة طريقة تبعدك من الملل وتوسطك في الحضور بين الأكثار والقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقسى من قريب » .

(١) نشور المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ - أبو على المحسن التنوخي . دار صادر بيروت . بتصرف يسir .

(٢) المستطرف ج ١ ص ٢٠٤ - الاشيهي . دار الكتب العلمية بيروت .

وهو يدعوه الى الاحتراس فى التقرب من الرؤساء ، ثم يوصيه بالاحتراس فى الكلام وتجنب الشفاعة ما أمكن ، وألا تفارقه طلاقة الوجه . اذا دفع عن حاجته . ومن قوله :

« ول يكن كلامك جوابا تتحرر فيه من الخطأ والاسهاب ، ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك ، والشفاعة لا ت تعرض لها فانها مخلة للجاه ، فان اضطررت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتحصل وزنها ، فان وجدت النفس بالاجابة سمححة والى الاسعاف هشة فأظهر ما في نفسك غير محقق ، ول يكن انطلاق وجهك اذا دفعت عن حاجتك اكثر منه عند ناجها على يدك » (١) .

وربما كتب الخليفة الرسالة بنفسه يوصى فيها أحد الولاة بلزوم الطاعة وكتب الخليفة القائم الى الاخشيد حاكم مصر رسالة يوصيه بذلك ، وأظهر له من التودد ما يفوق المتوقع .

فقد كتب اليه : « قد خاطبتك - اعزك الله - في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجر لى في عقد الدين وما جرى به الرسم ، وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابي وذوى المكانة عندي ، وأرجو أن تدرك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ، فقد شهد الله على ميلى اليك . وايثارى لك ورغبتى في مشاطرتك ما حوتة يمينى واحتوى عليه ملكى .

وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن اجابتى لأنك قد استفرغت . مجهودك في مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك ، فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فانتي أرضي منك بالمردة . في الأمر والطاعة ، وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ، والله يريشك . حسن الاختيار في جميع أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » (٢) .

وكانوا يوصون بطاعة الخلفاء ، وغالبا ما يقرئونها بطاعة الله ليوزعوا .

(١) زهر الأدب ج ٤ ص ١٠٦٤ - بتصرف .

(٢) المغرب في حل المغرب ج ٤ ص ٢٦ عبد الملك بن سعيد وأخرون . مطبعة .

اللهم أن طاعة الخلفاء من طاعة الله ، ونرى ذلك في الرسالة التي كتبها أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف إلى عضد الدولة ، وكان أبو القاسم رئيساً لمديوان الرسائل وتولى الوزارة للخليفة الطائع لله ، وكتب هذه الرسالة عن الطائع لله ، وفيها يقول مخاطباً عضد الدولة : « واستدِم النعمة عليك بالتقوى لله تعالى ، وبحسن الطاعة لأمير المؤمنين ، فإنهم جنتاك وعدتائِ ذريعتاك المشفعتان عند الله تعالى في أولاك وأخراك ، وأحسن كما أحسن الله إليك » (١) .

وقد يثور أحد الولاة فيكتب اليه الكاتب ناصحا اياه بالعودة الى حظيرة الطاعة ونبذ الخلاف والتمرد ، ويطلب الكاتب فى الموازنة بين نعيم الطاعة وجحيم المعصية ، وقد صارت الرسائل فى تلك الفترة معرضا لاظهار براعة الكاتب ، ولم تعد تهدف الى تأدية الغرض وكفى ، ومن أبرز الرسائل السياسية التى تدعى الخارجين على الطاعة الى العودة الى حظيرتها رسالة ابي الفضل ابن العميد وزير آل بويه ، فقد كتب الى ابن بلكاونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة رسالة طويلة كما نص الشاعبى على ذلك ، وأورد الشاعبى مقتطفات منها تقع فى صفحتين ، ومنها : « كيف وجدت مازلت عنه ؟ وكيف تجد ماصرت اليه ؟ ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ونسيم عليل ورياح بليل ، وهواء عدى وماء روى ومهداد وطى ، و肯 كنین ، ومكان مكين فى حصن حصين ، يقىك المثالف ويؤمنك المخاوف ، ويكتفك من نواب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفت بعد الضعف ، وأيسرت بعد العسرة ، وأثرت بعد المترقبة ، واتسعت بعد الضيق ، وظفرت بالولايات ، وخففت فوقك الريات »

ونرى الكاتب هنا يكرر المعنى الواحد في جمل متعددة ، ويقلب المعانى على وجوهها ، ويحاول أن يبرز المعنى الذى يهدف اليه عن طريق التضاد كالأمن بعد الخوف ، والعز بعد الذلة ، كما أنه يعني بتجميل أسلوبه بالسجع والمحسنات البديعية ، وكانت هذه هي سمات أسلوب الرسائل فى تلك الفترة ، ولجا إلى الاستفهام التقريرى في قوله : « ألم تكن من الأولى في ظل ظليل ؟ » .

ثم يأتي باستفهامات للنفي ينفي فيها أن يكون التأثر قد كسب شيئاً من ثورته ، أو وجد عوضاً عما فقده ، ويلبس أسلوبه السمات التي لمحناها فيما سبق ، ويقتبس من القرآن الكريم . فيقول : « ففيما الآن أنت من الأمر ؟ وما العرض عما عدلت ؟ والخلف مما وصفت ؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ؟ ونفضت منها كفك ؟ وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذي أظللك بعد انحسار ظلها عنك ؟ .. أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهم ؟ .. قل : نعم كذلك ، فهو والله أكثف ظلالك في العاجلة ، وأروحها في الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود » .

ثم يأمره أن يتأمل واقعه ، ويذكر فيما ينتظره ، ويقارن ماضيه بحاضره . فيقول : تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستدركها ، والمس جسدك وانظر هل يحس ؟ واحسنس عرقك هل ينبض ؟ ، وفتشر ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل على يصدرك أن تظفر بفوائد سريعة أو موت مريح ؟ .. ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وأخر شأنك بأوله » .. قال ابن بلakan : « والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل الا كما أشار الأستاذ الرئيس » (١) .

وقد تحل النازلة بأحد رجال الدولة حين يغضب عليه الرئيس وينكل به ، فيكتب إليه الكاتب موصياً إياه مشيقاً عليه أو شامتاً به ، وفرى كلتا الحالتين عند أبي بكر الخوارزمي ، فقد كتب إلى وزير خوارزم شاه لما نكب ، ونصحه مشيقاً عليه ، فنصحه أن يلبس ثوب الصبر ولا يجزع لما تأتى به الأيام ، وأوصاه أن يداري السلطان فيصغر ساعته ويكبر احسانه ، ويروض لسانه على شكره ، ومن قول أبي بكر الخوارزمي :

« فاما الآن وقد كان ما كان فاني ارى للشيخ ان يلبس للدهر ثوباً من الصبر ثخينا ، ويلوى حواشئه ركتنا من التماسك ركينا ، وأن تجده الأيام حرا ، وأن تصيبه الحوادث اذا ذاقت مرا ، وأن يداري مع ذلك سلطانه ، ويصغر بلسانه ساعته ويكبر احسانه ، ويروض لسانه في الخلوة على شكره لثلا يجمع به في « الجلوة الى غيره » .

ثم يشبه الخوارزمي أيام المحن تشبيهات بارعة تؤيد ما أوصى به صديقه من الصبر والمداراة حيث يشبهها بالموج وبالجيش فيقول :

« فان أيام المحن موج من تطاطا له تخطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الاديار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الاقبال فى أيام كرها هزمته » . ويختتم الخوارزمي وصيته بأن طلب النصفة عند السلطان عسيرا ، ومن حاسب على كل شيء لقى من العنت الكثير : « ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيرا ، ومن حاسب على قليل من العنت لقى كثيرا » (١) .

وكتب أبو بكر الخوارزمي إلى الحاجب أبي اسحاق لما نكبه الوزير الصاحب بن عباد رسالة مطولة ، وكان أبو بكر مايزال على علاقة ودية بالصاحب ، وتبدو في هذه الرسالة شماتة أبي بكر بالحاجب ونقمته عليه ، وتفييض هذه الرسالة بالوصايا النابعة من هذا الموقف ، وكلها تتصحّب بمسايرة الرؤساء وعدم التصدى للكبار ، والرضا بأحكام القدر . ومن قوله :

« امش مع الدهر كما يشى ، واجر مع الفلك كما يجري ، وارفق بمن رفقت الأيام به ، وارع لمن رعت السعادة له ، ولا تزاحم الفلك الدوار ، ولا تناطح الأقسام والأقدار ، ولا تصغر الكبار ، ولا تتحكم على الدهر فإن الدهر حاكم لا يحكم عليه ، وسلط لا يؤخذ على يديه ، وانزل حيث انزلك الاستحقاق ، وخذ ما سمحت به لك الأرزاق ، ولا تجلس على طريق السبيل الرابع ، ولا تطعن في نحر القضاء الغالب ، ولا تحارب جيش السعد ، ولا تطاعن عن حد الجد ، ولا تستسلف أجلك ، ولا تتناول مالم بيوضع لك ، واحذر قوس الخذلان فإنها نافذة (الرمية صريحة الرمية) » (٢) .

ويبدو في هذه الوصية تمجيد الصاحب ابن عباد كما نرى في قوله : « رفقت به الأيام ، ورعت السعادة له ، الفلك الدوار ، والأقسام والأقدار ،

(١) كتاب رسائل الخوارزمي ص ٩٨ - مطبعة عبد الرحمن رشدى ط ١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧ .

جيش السعد وحد الجد » الخ ، أما قوله : « وانزل حيث أنزلك الاستحقاق ». فيدل على استحقاق الحاجب لما حل به من غضب الصاحب .

وقد ترد الوصية في أسلوب غير أسلوب الوصايا المعهود ، فلا تأتى في صيغة أوامر أو نواه ، وإنما يفهم الأمر من المضمون ، ويتبين ذلك في حديث الصاحب ابن عباد حين حضره الموت فقال لفخر الدولة :

« قد خدمتك خدمة استقرفت فيها وسعى ، وسرت سيرة جلبت لك حسن الذكر ، فان أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل إليك . وتركك أنا ، وان عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة الثانية إليك ، وقدح ذلك في دولتك » (١) .

وكان الصاحب ابن عباد وزيرا لفخر الدولة وخدم الدولة بأخلاص ، . ويفهم من حديثه أنه يوصي فخر الدولة بأن يسير على النهج الذي اختطه . الصاحب .

الفصل الثاني

الوصايا الاجتماعية

شملت الوصايا مختلف الأحوال الاجتماعية ، فالآباء يحرصون على تأديب أبنائهم ، وولاة الأمور يوصون شعوبهم بالتمسك بمبادئه توافق هوى أولئك الولاة ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء يوصون أبناءهم بطلب العلم وحفظ الشعر والتمسك بالأدب ، وعلى رأس هؤلاء الخليفة المأمون والوزير يحيى البرمكي ، وأوصى أبو حنيفة ابراهيم ابن أدهم أحد الزهاد بالاهتمام بالعلم الى جانب العبادة .

وهناك وصايا علمية وأدبية تدور حول نصيحة الكتاب والشعراء بالتزام مبادئ توافق هوى العصر الذى قيلت فيه ، فوصايا تدور حول الإيجاز فى الكتابة ، ووصايا تدور حول الكتابة حين يصفو الذهن ، وهناك وصايا بлагوية بتجنب وحش الكلام وعدم التكلف فى الأسلوب ، ونحو ذلك .

وأوصى بعض الخلفاء أبناءهم برعاية اخوتهم والالتزام العدل ، وطرقت الوصايا كثيرا من النواحي الاجتماعية كآداب الحديث والاستماع وحقوق الصدقة ، وكان بعض الحكماء كابن المقفع يضعون الوصايا لكل من يتصل بالحكام راسمين لهم مراسم معاملة الخلفاء ، كما أن هؤلاء الحكماء أوصوا الخلفاء بطريقة مهذبة ، وكتب ابن المقفع كتاباته (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) وشلما وصايا بعضها مترجم وبعضها من وضع ابن المقفع .

وفي العصر العباسي نشط المانوية والزنادقة وراحوا يبثون أفكارهم الهدامة ، وتتبعهم الخلفاء العباسيون يقتلونهم ويريحون المجتمع من شرورهم ، فقتل الخليفة المنصور ابن المقفع ، وقتل المهدى أو الرشيد صالح ابن عبد القدوس ، وقتل المهدى بشار بن برد ، وقتل الهدى يعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب ، وقتل الرشيد يزيد بن الفيض ويونس

بن أبي فروة ، وأوصى الخليفة المهدى ابنه الهادى بتتبع الزنادقة ، كما سترى
ما فى حديثه .

ويدخل فى الوصايا الاجتماعية ما كان يكتبه بعض الكبارء يوصون
برعاية تابع لهم ، أو قضاء حاجته ، وجاءت هذه الوصايا نموذجا للبلاغة
والجمال الفنى .

وقد أدرجت الوصايا الأدبية والبلاغية فى الوصايا الاجتماعية لأن
النهضة الأدبية والعلمية إنما هى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية .

في صدر الدولة العباسية

كان العلويون يأملون في الاستيلاء على الخلافة ، وكانوا يحرصون على تربية أبنائهم تربية تلقي بالمستقبل الذي يعودونهم له ، ومن أبرز الوصايا التي تلقانا في صدر الدولة العباسية وصية عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لابنه محمد أو إبراهيم ، وكان أبو مسلم الخراساني قد اعتقل عبد الله هذا ، وكتب عبد الله وصية إلى أبي مسلم أوردناها في حديثنا عن الوصايا السياسية .

وتراه هنا يوصي ابنه وصية من يحرص على اعداد ابنه لعظائم الأمور ، وتكشف الوصية عن عقل واع وأدب جم ، وتتلخص في التمسك بالأب وطول التفكير قبل الكلام ، و اختيار المستشار ، ومحاذرة الهوى والاستبداد بالرأي ، والنظر في العواقب قبل الاقدام وفيها يقول :

«أى بني ، أنى مؤذن حق الله فى تأدبك فأدلى حق الله فى الاستماع منى ، أى بني ، كف الأذى ، وارفض البذا ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك الى الكلام ، فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشا ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بني ان رأيك اذا احتجت ياله وجدته نائما ووجدت هواك يقظان ، فاياك ان تستبدل برأيك فانه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا الا وانت على يقين ان عاقبته لا ترديك ، وان نتيجته لا تجنى عليك »(١)

ويرز ابن المفع في صدر الدولة العباسية وكان عاقلا حكينا ، وله كثير من الوصايا العامة والخاصة ، في بعض وصاياته عامة موجهة إلى كل سامع ، وبعضها موجه إلى أشخاص محددين ، وفي مقدمتهم الخليفة المنصور ، وقد

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٠

عمل ابن المفع في الدواوين واقترب من الحكماء وخبرهم وأدرك خطورة معاشرتهم ، وأوصى ابن المفع كل من خدم السلطان أن يكون واسع الصدر حريراً في تصرفاته ، ومن قوله :

« ينبغي لمن خدم السلطان ألا يغتر به إذا رضي ، ولا يتغير له إذا سخط ، ولا يستتقل ماحمله ، ولا يلحف في مسألته » (١) .

وقال أيضاً موصياً أصدقاء السلطان : « لا تكون صحبتك للسلطان ألا بعد رياضته منك لنفسك على طاعتهم ، فإن كنت حافظاً إذا ولوك ، حذراً إذا قربوك ، أميأنا إذا ائتمنوك ، ذليلاً إذا صرموك ، راضياً إذا أسيطوك ، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم ، وتزدبهم وكأنك تتأدب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، وألا فالبعد منهم كل البعد والحدر منهم كل الحذر » (٢) .

ويبدو أن ابن المفع كان مولعاً بالوصايا ، وهذا إن دل على شيء فانما يدل على ثقته بنفسه ، وكان ابن المفع حريضاً على العلم كما هو معروف عنه ، ويبدو أنه كان أيضاً حريضاً على أن يطلب الناس العلم ، وقد كتب إلى بعض أخوانه :

« أما بعد ، فتعلم العلم ممن هو أعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فأنك إذا فعلت ذلك علمت ماجهلت وحفظت ما علمنت » (٣) .

ومن أحفل الكتب بالوصايا كتاباً (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) وهو من وضع ابن المفع ، ووضعهما في عهد الخليفة المنصور ، ويبدو من قراءة الكتابين أنه التقط كثيراً من هذه الوصايا مما يتعدد في المجتمع حوله وما أثر عن القدماء ، وصاغ هذه الوصايا بأسلوبه ، ولا نحسب إلا أنه متاثر في بعض هذه الوصايا بالوصايا الفارسية :

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١١ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١١ .

(٣) أشالي المرتضى ج ١ ص ٩٥ .

وينص ابن المقفع في (الأدب الصغير) على أنه استفاد من كلام الناس المحفوظ فيقول : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عنوان على عمارة القلوب وصالحها وتجليات أبصارها وأحياء للتفكير واقامة للتدبر » (١) .

ويقول أيضاً معظماً شأن الأسلاف : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتابهم » (٢) .

وكثر من وصايا الأدب الكبير موجه إلى من يتقلد أمور السلطان ، وفي إحدى هذه الوصايا يوصي بالاهتمام بعظام الأمور مع اعطاء الجسم حاجته من الراحة والدعة ، ويعيب على بعض الناس سيطرة الغضب عليهم حتى يؤدي الغضب بهم إلى ايقاع الظلم برعائهم ، وقد يميّز بهم الرضا إلى محاباة من لا حق لهم ، وفي ذاك يقول :

« لا تتركن مباشرة جسمك أمرك فيعود شأنك صغيراً ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه لمهم ، وأن ليك وذهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبت فيما ، وأن ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبيه من الدعة ، فأحسن قسمتها (الليل والنهر) بين دعتك وعملك ، واعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب في غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن بهم بعقوبته ، ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد اعطاءه ، فاحذر هذا الباب الحذر له » (٣) .

والأدب الصغير فيه وصايا خلقية واجتماعية لذوى السلطان

(١) رسائل البلاء . الأدب الصغير ص ٣ عبد الله بن المقفع مطبعة الظاهر بالقاهرة .

(٢) الأدب الكبير ص ٦٣ مطبعة منيذة الحديثة . بيروت .

(٣) الأدب الكبير ص ٧٣ بتصرف .

والأصدقاء ، وهذه الوصايا جمل متفرقة غير متراقبة ، أو نقول : انه لا يعني
يربط هذه الجمل وابرازها وحدة متكاملة . ومن قوله :

« على العاقل لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم .
والاغفال في الأمور ، ان من استصغر الصغير اوشك أن يجمع إليه صغيراً
وصغيراً فإذا الصغير كبير ، كلام الليبب وإن كان ذراً أدباً عظيم ، ومقارفة
المأثم وإن كان محترقاً مصيبة جليلة ، لا ومنعنك صغير شأن أمرئ من
احتباء مارأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء مارأيت من أخلاقه كريماً ، فان
اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائزها الذي استخرجها ، حق على العاقل
أن يتخد مرأتين فينظر من أحدهما في مساوىء نفسه فيتصادر بها ، ويصلح
ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ
ما استطاع منها ، والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأنسد الذي
يهاب وإن كان عقيراً ، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكلب .
الذى يهون على الناس وإن طرق وخلخل »(١) .

ومن وصاياه المتعلقة بالصداقة والأصدقاء والتي وردت في (الأدب
الكبير) قوله :

« أنظر من صاحبت من الناس من ذى فضل عليك بسلطان أو منزلة أو
من دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والأخوان فوطن نفسك في صحبته على
أن تقبل منه العفو وتتسخو نفسك بما اعتاص علىك مما قبله غير معاتب .
ولا مستبطيء ولا مستزيد فان المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزاده من
الجشع « وإن الرضا بالعفو والسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتroc اليه
نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة »(٢) .

ويقول : « تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن
الاستماع امهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، والاقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم .

(١) الأدب الصغير ص ٥ وما بعدها بتصرف من رسائل البلغاء .

(٢) الأدب الكبير ص ١٣٤ .

والوعى لما يقول ، وإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا يجعل ذلك عليه لوما وعدلا ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو تركه فبدأ صوابك فلا تمنن به ، ولا تكترون ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تلمه عليه إن كان استبيان في تركه ضررا «(١)» .

وأوصى ابن المقفع الخليفة المنصور بطريقة مذهبة فرسم له خطة للنظر في الأقضية وضمان العدل في الحكم ، فقال بعد أن تحدث عن اختلال بعض الأمور واختلاف الأقضية : « فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنة المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتاج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جاما ، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السنن قرينة لاجتماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر آخر الدهر إن شاء الله »(٢) .

وتعبر هذه الوصية عن وجهة نظر ابن المقفع ، وإن كنا لا نؤيد تقدير العلماء بالقضاء برأى الخليفة المنصور ، ومن اللفتات الجميلة قول ابن المقفع : « فلو رأى أمير المؤمنين » .

وكانت الوصايا بالاهتمام بالعلم شائعة في تلك الفترة فقد عممت البلاد نهضة علمية شاملة ، وأوصى الإمام أبو حنيفة أباًراهيم بن أدهم أحد الزاهدين بالحرص على طلب العلم وعدم الاكتساح على العبادة ، يقول أبو حنيفة : « قد رزقت من العبادة شيئاً صالحًا فليكن العلم من بالك ، فإنه رأس العبادة . وقوام الدين »(٣) .

ومن أبرز الوصايا الاجتماعية في تلك الفترة وصية الخليفة المنصور لابنه المهدى عند مسيره إلى مكة ، وقد أوصاه بضمان دين عليه ، وأوصاه

(١) الأدب الكبير ص ١٤٠ بتصرف .

(٢) رسالة الصحابة ص ١٦٨ من رسائل الباحث مطبعة السنة الحمدية .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٧ .

باخوته خيرا ، ورسم لابنه خطة توزيع الأموال التي تركها ، وختم وصيته لابنه بقوله الله ، يقول المنصور لابنه :

« هذا كتاب وصيتي مختوما ، فإذا بلغك أنى قد مت وصار الأمر إليك فانظر فيه ، وعلى دين فأحب أن تقضيه وتضمنه ، قال : هو على يا أمير المؤمنين ، قال : فإنه ثلاثة ألف درهم ونصف ، ولست أستحلها من بيت حال المسلمين ، فاضمنها عنى ، وما يفضي إليك من الأمر أعظم منها ، قال : أفعل هو على ، قال : وهذا القصر بنيته بمالى فأحب أن تصير نصيبي منه لآخرتك الأصغر ، قال : نعم ، قال : ورقيقى الخاصة لك فاجعلهم لهم فإنك تصير إلى ما يغنىك عنهم ، وبهم إلى ذلك أعظم الحاجة ، قال : أفعل ، قال : أما الضياع فلست أكلفك فيها هذا ولو فعلت كان أحب إلى ، قال : أفعل ، قال : سلم اليهم مسألتك من هذا وأنت معهم في الضياع ، قال : والمتاع والثياب ، سلمه لهم ، قال : أفعل ، قال : أحسن الله عليك الخلافة وكل الصنع ، اتق الله فيما حولك وفيما خلفتك عليه »(١) .

وصورت أحدى الوصايا صراعا بين النصارى والمسلمين ، ويبدي أن بعض النصارى استغلوا أمرا بتسلم بعض الضياع واستولوا على بعض أراضي المسلمين ، وورد في ذلك :

« اجتمع إلى شبيب بن شيبة جماعة من المسلمين والمنصور في الحج ، فطلبوا إلى شبيب مخاطبة المنصور في أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم في ضياعهم ، لكونه أمرهم بأن يقاضوا ما وجدوه لبني أمية ، فقال للمنصور :

« يا أمير المؤمنين ، إنها وصية الله إليكم جاءت ، واليكم تؤدى ، إن دون أبوابك نيرانا تأجج من الظلم والجور لا يعلم فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه ، يا أمير المؤمنين ، سلطت الذمة على المسلمين ، ظلموهم وعذفوه ولن يقاضوا عنك من الله شيئا يوم القيمة »(٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٠٤ .

(٢) أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٤ ابن قيم الجزاية مطبعة جامعة دمشق

ومن أشهر الوصايا الأدبية وصية بشر بن المعتمر ، وتعد من الوصايا التي وضعها أنسس البلاغة العربية ، وقد أورها الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) وتناقلها الأدباء من بعده ، ونص الجاحظ على أنها من تحبير بشر وتنسيقه ، وجاء في هذه الصحفة : « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة اكرم جوهرا وأشرف حسيا ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطاء ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، وأعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والعاودة » .

وهنا يفتح وصيته باختيار ساعة النشاط وفراغ البال ، ولهذا اثره المفيد في الإجادة ، ثم يوصي الأديب بترك التوعر فانه يؤدى إلى التعقيد ، ويعيّب الألفاظ ، ويستهلك المعانى ، وأوصى بشر بضرورة الاهتمام بالمعنى واللفظ . ومن قوله :

« واياك والتوعر فان التوعر يسلّمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف للفظ الشريف » .

ثم يبين أن أولى المنازل أن يجمع الأديب بين جمال اللفظ وقرب المعنى ، وهنا يلتفت إلى مقتضى الحال ومراعاة السامعين ان كانوا من العامة أو من الخاصة فيقول : « فكن في ثلاثة منازل ، فان أولى الثالث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكتوفا وقريبا معروفا ،اما عند الخاصة ان كنت لل خاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت لل العامة اردت ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، فان امكانك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاحة قلمك إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكتسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأ��اء فأنت البليغ النام » .

ويوصي بشر بن المعتمر الأديب بتأجيل الكتابة اذا تعسرت عليه او احس بالملل وفي ذلك يقول : « فان ابتليت بأن تتکلف القول وتنتعاطى الصنعة ولم

تسمح لك الطياع فى أول وهلة فلا تتعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك .
وسواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة .
ان كانت هناك طبيعة » .

وتدل الجملة الأخيرة على التفاتات بشر بن المعتمر الى اثر الموهبة
الأدبية ، وأنها أساس نجاح الأديب ، وينصح من حرم هذه الموهبة ، بالعدول
عن هذه الصناعة .

وأخيرا يؤكد بشر ضرورة تجنب الألفاظ العامية والساقةة ، كما يجب .
تجنب الألفاظ الغريبة الوحشية فيقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا .
وساقطا وسوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا » (١) .

وتعد وصية بشر بن المعتمر من أهم الوصايا البلاغية في الأدب العربي .
وقد وضع أساسا سليما للبلاغيين الذين جاءوا من بعده وعلى رأسهم
عبد القاهر الجرجاني .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٥ وما بعدها . مطبعة المدى . بتصرف ~

في عهد المهدي

وسائل الخليفة المهدي سيرة أبيه المنصور في تتبع الزنادقة والمانوية ، وقد أسلفنا أن المهدي قتل صالح بن عبد القدس وبشار بن برد ، وعبد الكريم ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ، وأوصى المهدي ابنه الهادي بتتبع هذه الفرق وقتل أفرادها ، وعمل الهادي بوصية أبيه ، ومن وصية المهدي لابنه موسى الهادي وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه :

« يابني ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فإنها فرقاً تدعى الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الظهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوياً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع غيفها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فاني رأيت جدك العباس في المنام قدمني سيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين » (١) .

وتكشف هذه الوصية عن جد الخلفاء العباسيين في تتبع المانوية والزنادقة والقضاء عليهم ، كما تكشف لنا عن بعض مبادئ هؤلاء الفسقة وكيف يتحايلون لاستدراج الناس إلى صفوفهم والتظاهر بالزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثم يكتشفون لاتباعهم عن مبادئهم الحقيقية شيئاً فشيئاً ، أما حكاية المنام الذي رأه المهدي فلا نظن إلا أنها من اختراعه لتحميس ابنه لقبول الوصية ، وربما أضافها الرواة لاقناع الناس بسرعه هذه الطائفة الخارجة على الدين .

وكان الخليفة المهدي دمث الخلق واسع المصدر تنفس الناس في عهده الصعداء بعد قسوة المنصور وشدة عذابه ، ووجد ابن خريم الجرأة ليدخل

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢ .

على المهدى ويوصيه بالعفو والتسامح ، ويبين له أن طاعة الناس له عن محبة خير له من طاعتهم له عن خوف ، يقول ابن خريم للمهدى : « عليك بالعفو عن الذنب والتجاوز عن المسئ ، فلأن يطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف » (١) .

وبعض الوصايا الاجتماعية تنظم العلاقة بين الخليفة والحكومين ، وتتحدث عن طبقات المجتمع ونظام دخولهم على الخليفة وأوقات الزيارة ، وتحكم الناس فى منطقهم وتصدر هذه الوصايا من الخليفة كما تصدر من رجاليه ، فالمهدى يوصى وزيره الفضل بن الربيع بتقديم أبناء الدعوة العباسية ، ثم الأولياء ، ويوصيه بأن يختار للعامة وقتا ضيقا لا يستطيعون معه طول المكث فى مجلس الخليفة .

يقول المهدى للفضاء بن الربيع :

« انى قد وليتك ستر وجهي وكشفه ، فلا تجعل الستر بيني وبين خواصى سببا لغضبهم بقبع ربك ، وعبوس وجهك ، وقدم أبناء الدعوة فانهم أولى بالتقديم ، وشن بالأولياء ، واجعل للعامة وقتا اذا دخلوا أجعلهم ضيقه عن التلبث وصرفهم عن التمكث » (٢) .

ويوصى أبو عبيدة كاتب المهدى بالسكتوت ويفضله على الكلام فيقول : « كن على التماس الحظ بالسكتوت أحرص منه على التماسه بالكلام ، ان البلاء موكل بالمنطق » (٣) .

و واضح أن كاتب الخليفة يوصى بالسكتوت فى مجالس الحكم طلبا للسلامة .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٥٥٠ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٢ .

في عهد الرشيد

أتحفتنا كتب التراث بكثير من الوصايا الاجتماعية في عهد الرشيد ، وكان عهد الرشيد عهد تفتح وازدهار للعلم والأدب ، وكان عهد أمن وطمأنينة ، وطرقت الوصايا الاجتماعية كل باب ، وكان الخلفاء يعهدون إلى كبار العلماء والأدباء بتأديب أبنائهم ، وكانوا يحرضون على أن ينشأ أبناؤهم على الخلق الحميد وعلى الالام بمعرف العصر ، وتقاليد المنصب الكبير الذي يتطلبه .

وقد عهد الرشيد إلى الأحمر النحوي بتأديب ابنه الأمين ، وأوصى الرشيد العالم الكبير وصيحة جامعة لكل ما يجب أن يعلمه العالم المؤدب لل الخليفة المنتظر ، وقدم لهذه الوصية بمقديمة رائعة نابعة من أعماق نفسية الرشيد .
فقال :

يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصبرر
يدك عليه مبسوطة وطاعتكم عليه واجبة ، فكن له بحيث يضعك أمير المؤمنين «
وتدل هذه المقدمة إلى جانب الصدق النفسي على أن الخلفاء كانوا يطلقون
أيدي المؤذبين ، ويجعلون لهم السيطرة على أبناء الخلفاء حرصا على تنشئة
أبنائهم تنشئة قوية .

ثم يوصي الرشيد مؤدب ابنه بأن يقرئه القرآن ويعمله السير ويعرفه
التاريخ ويرويه الأشعار ، كما يوصيه بتبصيره بأداب السلوك وانزال الناس
منازلهم ، ولا ينسى الرشيد أن يلتف نظره إلى عدم ارهاقه ويأمره بالشدة
في معاملته إن لم تجد الملاينة ، يقول الرشيد :

« أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره
موقع الكلام وبدعه ، وامنעה الضحك إلا في أوقاته ، وخذنه بتعظيم مشايغ
بني هاشم اذا دخلوا اليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ،
ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت تغتنم فيها فائدة تقديرها ايها من غير أن تخرق
به فرميتك ذهنك ، ولا تمنع في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه

ما استطعت بالقرب والملائنة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة «(١) .

وكان يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد رجلا حكيمًا حريصاً على العلم وعلى تنشئة أولاده على حب العلم والأخذ من كل فن بطرف ، وكثرت وصاياه لأبنائه ، ومن وصاياه لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فإن المرء عدو ماجهله ، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم ، وأنشد :

تَفْنِينَ وَخَذْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ فَانْمَا
يَفْوَقُ امْرُؤٌ فِي كُلِّ فَنٍ لَهُ عِلْمٌ
فَأَنْتَ عَنْ دُولَةِ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلٌ
بِهِ وَلِعِلْمٍ أَنْتَ تَنْقَنِهِ سَلَمٌ (٢)

وكان أباً إبراهيم يحيى بن خالد على شاكلة أبيه يهتمون بالعلم ويدعون إليه ويشجعون العلماء ، وكان جعفر بن يحيى ورئي أن الإيجاز مظهر البلاغة والقدرة ، وأوصى الأدباء بذلك فقال :

«ان استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل الترقيع فافعلوا» (٢) .

^{٤١} مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ - المسعودي - دار الأدلمن .

والخرق والخرق ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤١ - أبو الحسن على بن محمد الماوردي ، دار

اقرأ بيروت

^(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٩٩ - الحمرى . دار الجيل .

• تستقيم السطور الا فيما كان كذلك «(١)» .

وكان الحكماء يوصون بالتمسك بالأخلاق الكريمة ، وكان يحيى بن خالد رجلا سخياً وأوصى ولده بالسخاء فقال : « اذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، و اذا أدركت فانفقوا منها فانها لا تبقى » (٢) .

وكتب يحيى بن خالد الى ابيه الفضل وقد بلغه انشغال الفضل بالصيد
والملذات فكتب اليه يوصى بالمستر وأداء الواجب أولا . يقول : « حفظك الله
يابنى وامتع بك ، فقد انتهى الى أمير المؤمنين ما انت عليه من التشاغل
بالصيد ومداومة اللذات عن النظر فى أمور الرعية ما انكره ، فعاود ما هو
ازين بك ، فإنه من عاد الى ما يزيدنيه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره الا به
والسلام .

وكتب في أسفله هذه الأبيات :

وأصبر على فقد لقاء الحبيب
واستترت فيه وجوه الغريب
فإنما الليل نهار الأريب
يستفيل الليل بأمر عجيب
فيات في لهو وعيش خصيب
يسعى بها كل عدو وقب (٢)

انصب نهارا فى طلاب العلا
حتى اذا الليل اتى مقبلا
فكابد الليل بما تشهى
كم من فتى تحس به ناس
أرخى عليه الليل أستاره
ولذة الاحمق مكشوفة

ومن أشمل الوصايا وصية عبد الملك بن صالح لابنه ، وهى وصية جمعت بين الوصية الأخلاق الحسنة ومعاملة الناس والأصدقاء وتقوى الله ، ونلاحظ أنها وصايا متتابعة لا يحاول الموصى الترتيب بينها ولا الربط بين نقاطها ، وقد بدأها بقوله :

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ - بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٨ - أحمد بن محمد خلكان - دار صادر بيروت.

« أى بنى ، احلم فان من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، والق أهل الخير
فان لقاءهم عماره للقلوب ، ولا تجمع بك مطية اللجاج » .

ثم يوصيه بما يحفظ وقاره ، ويوصيه بحسن التدبیر ، ويحذره من
الاسراف ، ذلك أن ابنه شاب ربما يدفعه الجاه والشراء الى التبذير ، ولذلك
يوصيه فيقول :

« المزاح يورث الضيائين ، وحسن التدبیر مع الكفاف خير من الكثير مع
الاسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والاسراف يتبر الرثيير » .

ثم يوصيه بالاعتدال في الطلب ، وتقديم رضا الله على كل شيء ، ويجمع
له بعض الوصايا المتعلقة بمعاملة الناس فيقول : « ارفق في الطلب ، وأجمل
في المكسب ، والمخبون من غبن نصيبيه من الله ، عاتب من رجوت عتابه ،
وفاكه من أمنت بلواه ، وعود نفسك السماح فان الخير عادة ، ومن الفقه
كتمان السر » .

ويوصى عبد الملك ابنه بالاقبال على العلم والاستفادة من تجارب الحياة ،
والتحكم في الشهوات فيقول : « وللناجح المعرفة دراسة العلم ، وطول التجارب
زيادة في العقل ، ومن شمر في الأمور ركب البحور ، الاحجام عن الأمور
يورث العجز ، والقادم عليها يورث اجتلاف الحظ ، اتباع الشهوة يورث
الندامة ، وفوت الفرصة يورث الحسرة ، لا تملك المرأة الشفاعة لغيرها ،
فيambil من شفعت له عليك معها » (١) .

ويلفت النظر هذه اللفتة الأخيرة بعدم السماح للمرأة بالشفاعة لغيرها ،
وهي لفتة نابعة من الحرص على صيانة العرض .

وكثرت الوصايا المتعلقة بمعاملة الملوك ، وجاءت هذه الوصايا من رجال
خالطوا الملوك وعرفوا طبائعهم ، ورسم يحيى بن خالد طريقة مخاطبة الملوك
وسئل لهم فقال :

« مساعلة الملوك عن حالها من تحية النوكي ، فاذا أردت ان تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صبح الله الأمير بالنعمه والكرامة ، وان كان عليا فأردت أن تسأله عن حاله فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة » (١) .

ورسم يحيى بن خالد طريقة معاملة الملوك شعرا فقال :

ان الملوك لا يخاطبونا
ولا اذا ملوا يعاتبونا
وفى المقال لا ينمازونا
وفى العطاس لا يشتمونا
يثنى عليهم ويبلغوننا
وفى الخطاب لا يكيفوننا
وافهم وصاتى لا تكن مجنوننا (٢)

ومن ألوان الوصايا الاجتماعية ما يكتبه كبار الرجال موصين بأشخاص لهم حاجات يأملون قضاءها ، ومن ذلك ما كتبه يوسف بن القاسم عن الفضل ابن يحيى البرمكي في حاجة لرجل : « فلان قد استعننى باصطناعك اياه عن تحريركى لك بأمره ، لأن الصناعة حرمة المصطنع ووسيلته الى مصطنعه سيمما عند من يحسن الصناعة ويستثمنها مستثثنا للشكرا عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك ، وأعانك عليه ، وجعلك من أهلـه » (٣) .

ولم يصرح الموصى هنا بالطلب ولم يعين الحاجة

(١) العتيد الفريد ج ٢ ص ٤٦٠ .

(٢) معجم الأدباء ج ٢٠ ص ٦ - ياقوت الحموي . مطبع دار المأمون .

(٣) كتاب الأوراق ج ١ ص ١٥٨ - أبو بكر محمد يحيى المسؤولى .

مطبعة الصاوي .

في عهد المؤمن

كان الخليفة المؤمن رجل جد ورجل علم ، وكان فصيحاً ثاقب النظر ، وأوصى فأكثر من الوصايا ، وجاءت وصاياه كاشفة عن رجاحة العقل وعمق النظرة ، وأوصى المؤمن ابنه العباس وهو أكبر أبنائه ، ودارت الوصية حول الصفات التي يجب أن يتحلى بها الحاكم «(١)» .

وأوصى بعض ولده بعدم الانصات إلى السعاة ، وهي وصية تناسب من يعده لولاية الأمور ، يقول المؤمن : « إياك أن تصمغى لاستماع قول السعاة ، فإنه ماسعى برجل إلا انحط من قدره عندى مالا يتلافاه أبداً » (٢) .

وأوصى المؤمن أولاده بالاهتمام بعامة الناس ، وذكرهم بأن الكبير إنما كبير بصغر عظموه ، وأن الرعایا الأحرار خير من المستكرهين ، وأوصاهم بأن يستفيدوا بخبرات الناس وتجاربهم ، وتكشف هذه الوصية عن أخلاق المؤمن السامية واحترامه للرعاية ، وقدرته على سياسة الشعب الحر الراعنى ، يقول المؤمن لأولاده :

« يابنى ، ليعلم الكبير مكنم أنه إنما عظم قدره بصغر عظموه ، وقويت حجته بضعف اطاعوه ، وشرفت همة بعوام اتضعوا له ، فلا يدعونه تفخيم المفخم منهم إياه إلى تصغيره ، وتعزيز أمره إلى تذليله ، ولا يستثنى بفائدة ارتفاق ، وقد قيل : « من ملك أحراراً كان أشرف من ملك عبيداً مستكرهين ، يابنى ، ارجعوا فيما أتبين عليكم من التدبير إلى آراء الحزمة المجربين ، فإنهم مراياً لكم يرونكم مالاً ترون ، قد صحبوا لكم الدهر وكفوكم التجارب » (٣) .

(١) كتاب بغداد ج ٦ ص ٥٢ - ابن طيغور - مكتب نشر الثقافة الإسلامية .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٦١ .

(٣) خلاصة الذهب المسبوك ص ١٩١ .. عبدالرحمن الاربلي - مكتبة المثنى بغداد .

وكان المؤمن يكثر من الوصية بالاستشارة ويوصى بتقبل ما يكتشفونه من عيوب ، ومن قوله : « استشيروا ذوى الرأى والتجربة والحيلة ، فاذهم أعلم بمصارف الأمور وتقلبات الدهور ، وأطيعوهم وتحمّلوا ما يغلطون من قول أو يكتشفون من عيوب ، لما ترجونه من حالة تصلح ، وفتق يرتفع ، فإن من جر عكم المرارة لشفائكم أشفق من أطعمكم الحلاوة لأسقاكم » (١) .

وكان المؤمن فصيحاً يحب الصدقة ويبحث عليها ، وقد سمع أحد أبنائه يلحن ، فأوصى أبناءه بتعلم العربية ، وبين لهم أثر ذلك ، وقد جاء في زهر الأدب :

« قال المؤمن لبعض ولده وقد سمع منه لحنا : ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفل حجاج خصميه بمسكبات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانيه ، ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » (٢) .

وكان المؤمن يستمع إلى وزرائه ، وقد أوصاه وزيره الحسن بن سهل فقال :

« هب لوعدك مذكراً من نفسك ، وهنىء سائلك حلاوة نعمتك ، واجعل ميلك إلى ذلك في الكرم حتى على اصطفاء شكر الطالبين ، تشهد لك القلوب بحقائق الكرم ، والألسن بنهاية الجود » (٣) .

وكان الوزراء والكتاب ورجال الدولة يوصون في مختلف المناسبات ، وكانتوا يوصون بالتزام الآداب المرعية في كل مجال ، ومن ذلك وصية أحمد بن أبي داؤد لابراهيم بن المهدى عم الخليفة المؤمن بالتزام أداب المعاشرة حين أغفل ابراهيم القول لبختىشوع الطبيب ، يقول صاحب العقد الغريب :

« تنازع ابراهيم بن المهدى وبختىشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي داؤد

(١) تحفة الوزراء ص ٨٧ عبد الملك بن منصور الشعالي - مطبعة العانى ببغداد.

(٢) زهر الأدب ج ٣ ص ٧٧٥ .

(٣) المحسن والمساوىء ص ٧ الجاحظ مطبعة الفتوح الأدبية ط ١ .

القاضى فى مجلس الحكم ، فزرى عليه ابن المهدى وأغلظ له بين يدى أحمد ابن أبي داود ، فأحفظه ذلك ، فقال : يا ابراهيم ، اذا نازعت أحدا فى مجلس الحكم فلا أعلم أنك رفعت عليه صوتا ، ولا أشرت اليه بيد ، ول يكن قصدك أمما وطريقك نهجا وريحك ساكتة ، ووف مجلس الحكومة حقوقها من التوقير والتعظيم والتوجه الى الواجب ، فان ذلك أشبه بك وأشارك لمذهبك فى محدثك وعظم خطرك ، ولا تتعجل ، فرب عجلة تهب ريثا ، والله يعصمك من الزلل وخطل القول والعمل «(١)» .

وأوصى طاهر بن الحسين ولده عبد الله حين ولاده ديار ربيعة ، وجاءت هذه الوصية شاملة لكثير من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد عرضنا هذه الوصية فى حديثنا عن الوصايا السياسية .

وكان طاهر بن الحسين ثاقب النظر ، ومن وصاياه للحكام : « لا تستعن بأحد فى خاص عملك الا من ترى أن نعمتك نعمته تنزل عنك بزوالها عنك ، وتدوم عنده بدوامها لك » (٢) .

وبرزت ظاهرة الزهد فى العصر العباسى ، وكانوا بين زاهد صادق خى زهذه ، وأخر يرائى الناس ويتخذ الزهد وسيلة لجمع المال مستترا تحت زهذه ، وأوصى عبد الله بن المبارك باتباع الزاهد اذا تنبأ الناس ، وبتجنبه اذا اتبع الناس ، يقول : « اذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه ، واذا طلبهم فاذهب عنه » (٣) .

ومن أطرف الوصايا وصية أحد الحكماء بالعشق ، فقد أورد صاحب (زهر الأدب) قوله : « قال اليماني بن عمرو مولى ذى الرياستين : كان ذو الرياستين يبعث بي ويأخذث من أهله الى شيخ بخراسان ، ويقول : تعلموا منه الحكمة ، فسرنا الى الشیخ يوما فقال لنا : اعشقوا ، فإن العشوة

(١) العقد الغريد ج ١ ص ٨٥ .

(٢) كتاب بغداد ج ٦ ص ٧٠ - أحمد بن طيفور .

(٣) زهر الأدب ج ٣ ص ٨٦٦ .

يطلق الغبى ويفتح جبلة البليد ، ويُسخى كف البخيل ، ويُبيعث على النظافة وحسن الهيئة ، ويدعسو إلى الحركة والذكاء وشرف الهمة ، وأياكم والحرام «(١)» .

ومن ألوان الوصايا ما كان يكتبه أحد الكباء توصية لصاحب مصلحة ، وقد حفظت لنا كتب التراث كثيراً من هذه الوصايا ، وغلب على هذه الوصايا الإيجاز البليغ حتى قال صاحب العقد الفريد : «كتب العتابى فكان أن يخل بالمعنى من شدة الاختصار ، فكتب : حامل كتابي إليك أنا ، فكن له أنا ، والسلام «(٢)» .

وشبيه بهذه الوصاة ما كتبه الحسن بن سهل وزير المؤمن ، ونحسب أن أحد الكاتبين اقتبس من الآخر ، فقد كتب الحسن بن سهل : «موصل كتابي إليك أنا فكن له أنا ، وتأمله بعين مشاهدي وخالتي ، فلسانه أشقر ما أتيت إليه ، وأندم ما قصرت فيه «(٣)» .

(١) زهر الأدب ج ٤ ص ١٠٢١ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٦٣ .

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

بعد عصر المأمون إلى منتصف القرن الثالث

برزت وصية أبي تمام للبحترى ، وكان أبو تمام يكبر البحترى ، وكان لأبي تمام تجاربه وخبراته ، فأوصى البحترى وصية ملخصة ، وبدأ الوصية بضرورة اختيار الوقت الذى يحس فيه الشاعر بصفاء النفس وذهاب الهم ، وخير الأوقات وقت السحر ، يقول أبو تمام :

« يا أبا عبادة ، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغوم ، واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه فى وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم » .

وأوصاه أن يبدى فى كل غرض ما يناسبه ، ففى الغزل يتعمد اللفظ الرشيق والمعنى الرقيق ، وفي المديح يظهر أيادى المدح ومناقبه . ومن قوله :

« وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا ، والمعنى دقيقا ، وأكثر فيه من بيان الصيابة وتوجع الكآبة وقلق الأسواق ولوعة الفراق ، فإذا أخذت فى مدح سيد ذى أيداد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبته ، وابن معاله وشرف مقامه ، ونضد المعانى واحذر المجهول منها » .

ثم أوصاه بتجنب الألفاظ الرديئة ، واختيار الألفاظ الملائمة لكل موقف فقال :

« واياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » .

ويختتم وصيته بقوله : « وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من

شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد
ان شاء الله « (١) » .

ونتوقف هنا عند الوصية بأن يقيس شعره بما سلف من شعر الماضين ،
وهذا مقياس غير ملائم ، فكل عصر مقاييسه الأدبية ، وما يلائم الجاهليين
قد لا يلائم العباسين .

وكان الجاحظ أحد الأدباء الذين أصدروا وصايا اجتماعية ، ومن
وصاياته العامة التي لم يخص بها شخص معيناً وصية حث فيها الموصى
على اختيار عنب الكلام واختيار صائب المعنى ومراعاة مقتضي الحال ،
فلا يكلم الخاصة بكلام العامة ولا يكلم العامة بكلام الخاصة . يقول الجاحظ :

« ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشى الكلام ، عنب ينابيع اللسان ،
إذا جاوز سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم الخاصة بكلام
ال العامة ، ولا يكلم العامة بكلام الخاصة » (٢) .

وللجاحظ وصايا تمس مختلف جوانب الحياة ، وقد عاش ما يقرب
من مائة عام ، وعاصر كثيرا من الخلفاء ، وأدرك أن السكوت خير ضمان
للسلامة ، وأوصى بذلك فقال : « أما بعد ، فليكن السكوت على لسانك إن
كانت العافية من شأنك » (٣) .

وله كثير من الوصايا الأخوانية ، ومن ذلك وصية بالحرص على
الأخوان ، وعدم الزهد في التقرب إليهم ، يقول : « لا تزهدن فيمن رغب
إليك ف تكون لحظك معاندا وللنعمة جاحدا » (٤) .

وأوصى بسخاء اليد ومجاملة الأخوان فقال : « ان أحبيت أن تتم

(١) زهر الأدب ج ١ ص ١٥٢ - بتصريف

(٢) زهر الأدب ج ١ ص ١٥٩ .

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٢ .

لك المتعة في قلوب أخوانك فاستغل كثيراً مما توليهم «(١)».

وللجاحظ وصية مشحونة بالكلمات الغامضة ، وقد أورد الوصية ثم فسر كلماتها ، ويبدو أنه كان يهدف إلى اظهار مقدراته اللغوية ومعرفته بغيرب الألفاظ . يقول :

« لا ينبغي للفتى أن يكون مكحلاً ولا مقبباً ولا شكامداً ولا حرامداً
ولا نقاماً ».

أما المكحل فالذى يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج ، والمقبب الذى يركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة ، والموكب الذى يبصق فى الطست ويتنفس فيها حتى يصير بصاقه كأنه الكواكب فى الطست ، والحرامد الذى يأتي فى وقت الغداء والعشاء فيقول : ما تأكلون ؟ . فيقولون من بغضه : سما ، فيدخل يده ويقول : في حرام العيش بعدكم ، والشкамد الذى يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يسبغها فيختنق كأنه ديك قد ابتلع فارة والنقامد الذى يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدى غيره «(٢)».

وكان يوحنا بن ماسويه طبيباً وتحدث عن الأطعمة والأشربة ، ومن وصاياه في هذا المجال : « عليك من الطعام بما حدث ، ومن الشراب بما قدم » (آ).

ويعني بالشراب هنا الخمرة .

ومن الوصايات ما يكتبه الكباء توصية بأحد أتباعهم ، وتمتاز هذه الوصايا بالإيجاز في معظم الأحيان ، وبالافتنان في المعانى والعنابة بالموسيقى اللفظية ، ومن أكثرها من هذه الوصايات عمرو بن بحر الجاحظ .
ومن وصاياته :

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٨ .

(٣) زهر الأدب ج ٤ ص ٩٣٢ .

« أما بعد ، فان أحق من أسعفته في حاجته ، وأجبته إلى طلبه ، من توسل إليك بالأمل ، ونزع نحوك بالرجاء » (١) .

ومن الوصايا بالأشخاص وصية كتبها الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق موصياً بابن أبي الشيص ، وسلك الكاتب طرقاً عديدة لضمان اهتمام الموصى بابن أبي الشيص ، فبين أنه كتب الوصية بيده ، وأنه لم يقبل العذر عنها ، ولن يقصر في الشكر عليها ، كما أشاد بالموصى به ، وبيدو أنها كانت وصية بعطاً يوهب ، اذ يعتذر الكاتب بضيق ذات اليد عن أن يبر من أوصى به ، يقول الحسن بن وهب :

« كتابي إليك خططته بييميني ، وفرغت له ذهني ، فما ظنك بحاجة هذا موقعها مني ، أتراني أقبل العذر منها ؟ أو أقصر في الشكر عليها ؟ وابن أبي الشيص قد عرفته وعرفت نسبة وصفاته ، ولو كانت أيدينا تتبسط بيده ما عدانا إلى غيرنا ، فاكتف بهذا منا » (٢) .

وصايا البخلاء

كتب الجاحظ كتاب البخلاء ، وحوى هذا الكتاب كثيراً من وصايا البخلاء ، ولا تمثل هذه الوصايا مبادئ خلقية سليمة ، ولا تعبّر عن مبادئ عربية أصيلة ، وإنما هي أحاديث جرت على لسان البخلاء ولا نشك في أن بعضها واقعى وبعضها مخترع ، وأن الجاحظ قصد إلى إدخال المتعة والتسلية على نفوس القارئين ، وهناك دافع آخر هو الرد على الشعوبين الذين عابوا العرب وحطوا من شأنهم ، فرد عليهم بذلك صور من بخلهم ليبين فضل العرب بسخائهم ، وقد أورد الجاحظ نماذج من بخل شخصيات عربية ولكن غالبية الحكايات كانت عن الفرس ، وجاءت الوصايا بالبخل على لسان شخصيات فارسية .

وتحفل هذه الوصايا بكثير من النصائح الطريفة والحجج المنطقية

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٢٧ .

فـالاثارة العاطفية ، وتحفل أيضاً بالغالطات للوصول الى الهدف الذى ينشده البخيل ، وفي احدى هذه الوصايا يوصى البخيل عياله وأصحابه بالصبر عن الفاكهة عند ابتدائها كبحاً للنفس ويقول :

« أصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة ، فان للنفس عند كل طرف نزوة ، وللقادم حلاوة وفرحة ، فانك متى ردتها ارتدت ، ومتى ردعتها ارتدت ، فاذا اثر ذلك فيها فعذتها فى تلك الباكرة بالغلاء والقلة ، فان ذكر الغلاء والقلة حجة صحيحة وعلة عاملة فى الطبيعة ، فاذا أجبتكم فى الباكرة فسمها مثل ذلك فى أوائل كثرتها ، واضرب نقصان الشهوة ونقصان قوة الغلبة بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثر ، ومتى لم تعد الشهوة فتن ، والهوى عدوا اغتررت بهما وضفت عنهما وائتمنتهما على نفسك ، وهما أحضر عدو وشر دخيل » (١) .

ويبدو هنا التحايل على النفس حتى تتعود الصبر بما تريده ، ويستعمل الالفاظ المنفرة مثل شهوة وعدو وهوى .

وفي وصية أخرى يوصى البخيل عياله بأكل نوى التمر وتعدو ابتلاعه ، ويطلب في بيان فوائد ذلك فيقول : « لا تلقو نوى التمر والرطب ، وتعدو ابتلاعه وخذوا حلوقكم بتسويفه ، فان النوى تعقد الشحم في البطن وتتدفق في الكليتين بذلك الشحم ، والله لو حملتم أنفسكم على البذر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت لوجدتموها سريعة القبول » .

ثم يوصى ابنه بالأثرة أى حب النفس ، ويشبه الأكل بالأفاعي والبراذين والنعاج والجمال بقصد التقبيع والتفثير ، ويستدل بالأثر وبالشعر فيقول :

« أى بنى ، عود نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهم نهش الأفاعي ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الأكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله قد فضلك فجعلك انساناً ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً ، وقال الأعشى :

(١) كتاب البخلاء ص ٩٨ ، ٩٩ - الجاحظ - المطبعة الخيرية ط ١ - يتصرف .

والبطنة يوماً تُسْفِهُ الأحلاماً .

ثم يحذر من الأكل ، ويتردج في الأسباب والمسبيات حتى يجعل الأكول قاتل نفسه ، ويؤكد أن الأكل الكثير يؤدي إلى القبر ، وينظر فوائد الصوم وأنه يطيل العمر ، ويستشهد بالهنود والأعراب فيقول :

« واعلم ان الشبع داعية البشم ، وإن البشم داعية السقم ، وإن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميّة فقد مات ميّة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألومن قاتل غيره ، وقد قال الله جل ذكره : (ولا تقتلوا أنفسكم) . وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضاً كان ذلك للآية تأويلاً ، أى بنى ، إن القاتل والمقتول في النار ، ولو سالت حذاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما أتوا بالتحم يا بني ، والله ما أدى حق الرکوع ولا وظيفة السجود ذو كثرة ، ولا خشع الله ذو بطنة ، والصوم مصححة ، لأمر ما طالت أعمار الهند ، وصحت أجسام الأعراب ، وكيف لا ترغب في تدبیر يجمع لك صحة البدن وزكاء الذهن وصلاح المعا وكثره المال ؟ . فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تحب الموت فلا يبعد الله الا من ظلم » .

(١) كتاب البخلاء ص ١١١ - بتصرف .

والفت . نبات يابس ، والخضم الأكل بأقصى الأضراس أو ملء الفم .

في النصف الثاني من القرن الثالث

من أبرز الوصايا الجامعة في تلك الفترة وصية الموفق لأحد رجالاته وقد ولأه الصلاة وال الحرب والأحداث ، ثم أوصاه وصية تجمع بين السياسة والاجتماع والدين وكاتب الوصية ابن ثوابه ، وتقع الوصية في ست صفحات ، وتنبئ عن نظرة صائبة وسياسة عادلة وأخلاق كريمة ، ومن الملامح الاجتماعية وصيته بتجنب المحاباة ، والعطاء بغير حق ، وبتجنب المكسب الحرام حيث يقول :

وأمره لا يقسم على أهل عمله قسمة بسبب نزل ولا غيره مما كان شرار العمال يوظفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنب الطعم الشائنة والمكاسب الرديئة ، ويحذر أن يعرض لشيء منها أو يطلقه لأحد من كفاته فيرد عليه من النكير ما هو حرى بتقويه والتضليل عنه » .

ومن اللفتات النادرة حديثه عن الضوال أو الحيوان الضائع وواجب الحكم ازاءها حيث يقول : « وأمره أن يتقدم في تعريف ما يوجد من الضوال في عمله والاشادة بذكريها ، فان عرف أحد ضالة منها وأوضح ملكه اياما سلمت اليه وأشهد بها عليه ، وان لم يحضر لها طالب وأشفع من ضياعها باعها في أسواق المسلمين بأقصى أثمانها وسلم ثمنها إلى عامل الخراج قبله ليجعلها عزلا في بيت المال ، فان استحقه مستحق بعد ذلك دفعه الديه ان شاء الله » .

ثم يأمره أن يتخير من عماله الأكفاء المتعفين لرفع الغش في المكاييل والموازين وختما بالرصاص ، ويقتبس من القرآن الكريم فيقول : « وأمره أن يتخير للحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات من يعرف بالقصد في مذهبة والعفاف في طعمته واستيفاء الحق فيما يقلده بتصحيح المعاملة ورفع الغش وتتجنب كل ما عاد بمضره على المسلمين ، وتعيير المكاييل والموازين في سائر عمله واقامتها على الوفاء والعدل وختما بالرصاص ، فان الله عز وجل يقول : (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) .

وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثروا في الأرض مفسدين » (١) .

ومن أبرز الوصايا البلاغية والأدبية في تلك الفترة وصية كتبها إبراهيم بن محمد بن المديب في موازيني البلاغة وأدوات الكتابة ، وهي مطولة نقبيس أهم أجزائها :

يوحى ابن المديب باتخاذ البرهان في الكتابة للأقناع ، ويقول في ذلك : « اتخذ البرهان دليلاً شاهداً ، والحق أاماً قائداً يقرب مسافة ارتياحك ويسهل عليك سبل مطالبها ، واستوهب الله توفيقاً تستنتج به مطالبك ،

ويدعو المؤمن إلى اكتساب التعلم على العلماء ، وقراءة كتب الحكماء ، وتصفح رسائل المتقدمين والمتاخرين والأشعار في الأخبار والسير ، ومعنى ذلك عدم الاعتماد على الموهبة وحدها ، وضرورة تنمية هذه الموهبة بالاطلاع . يقول :

« واعلم أن الاكتساب بالتعلم وطول الاختلاف إلى العلماء ودراسة كتب الحكماء ، فان أردت خوض بحار البلاغة ، وطلب أدوات الفصاحة فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعمد عليه ، ومن رسائل المتاخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك واستنتاج بلاغتك ، ومن الأشعار والأخبار والسير ما يتسع به منطقك ويعذب لسانك » .

ويدعوا بن المديب إلى مخاطبة كل شخص بما يلائم ، ومراعاة أقدار المخاطبين ويلتفت أيضاً إلى ضرورة الاهتمام باللفظ والمعنى . يقول : « واذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والخطباء والأدباء والشعراء فخاطب كلًا على قدر أبهته وجلالته ويقطنه وانتباهه ، ولا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً جزلاً لأنقاً بمن كاتبته، ومشابهاً لمن راسلته » .

ثم يعرج على القلم ويحدد صفات العود وطريقة البرى وصفات السكين المستعمل في بريه ، ويختتم الوصية باختيار الأوقات التي يحس فيها

(١) اختيار النظم والمنتور ٤٦/١٣ - بترف .

والنزل ما هيئ للضييف لينزل عليه ، والعزل ما يورد بيت المال غير موزون ولا منتقد - والبياعات السلع .

الكاتب بفراغ القلب وبالنشاط حتى تجود النفس بمكتونها يقول :
« وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكل
والتكلف » (١) ٠

وهناك وصايا تتحدث عن الآداب الاجتماعية التي يجب على الإنسان
مراعاتها ، ومنها وصية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لرجل اعتد عنده
بأشر جميل : « لا تفسدن تald احسانك بطارف امتنانك ، واقتصر من وصف
سالفك على ذكر مستأنفك » (٢) ٠

ولابن المعتز وصية موجزة تحتوى على ثلاثة وصايا فى موضوعات
مختلفة لا يجمع بينها الا تفتح الوعى وحسن الخلق ، وكان ابن المعتز من
أبناء البيت العباسى ، وذراء يوصى بعدم الاسراع الى أرفع موضوع فى
المجلس فقد ينحى عنه ، ويوصى أيضاً بالداراة وعدم الوقوف في وجه
التيار ، ويوصى بعدم ذكر الميت بسوء وهى وصية نابعة من خلقه الكريم
الذى عرف به . يقول ابن المعتز :

« لا تسرع الى أرفع موضوع فى المجلس ، فالموضع الذى ترفع انه
خير من الموضع الذى تحط منه ، لا تذكر الميت بسوء ف تكون الأرض أكتم عليه
منك ، ينبغي للعاقل أن يدارى زمانه مداراة السابق للماء الجارى » (٣) ٠

وكثرت وصايا الأدباء بالأشخاص لقضاء مصلحة أو لنيل وظيفة أو
لضم شخص الى معية أحد الكبار ، وكانت هذه الوصايا معرضًا لاظهار
البلاغة والفصاحة والمقدرة الفنية ، وغلب على هذه الوصايا الإيجاز كما فى
قول ابن المعتز :

« موصل كتابي فلان ، وقد جعلت الثقة بك مطية اليك فلا تنضها
بعطلك ، وأسرع ردها بسابق انجازك وتصديق الأمل فيك والظن بك » (٤) ٠

(١) رسائل البلغاء ص ٢٥٣ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة .

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٤٣ .

(٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٥٦ .

(٤) الأوراق للصولى ج ٢ ص ٢٩٠ .

في القرن الرابع الهجري

في هذا القرن مالت الوصايا إلى الطول وورد بعضها في رسائل تجمع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، وقلت الوصايا الموجهة إلى كبار رجال الدولة ولم يعد أولئك الكبار يفتتون صدورهم لتقبل هذه الوصايا ، ومع ذلك فاننا لا نعد أمثال هذه الوصايا ، ومن أشهرها وصية أبي الحسن المأوردي لأحد الوزراء يوصيه بمراعاة الله في معاملة الرعية ، وتقديم حق الله على حق السلطان اذا تعارضا ، وفي ذلك يقول :

« أجعل - أيها الوزير - الله تعالى على سرك رقيبا يلاحظك من زيف في حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيبا يفك عن تقصير في أمره ، فتسعد في عاجلتك وأجلتك ، فان تنافى اجتماعهما لك فقدم حق الله تعالى على حق الملك ، فلا طاعة لخلوق في معصية الخالق » .

ثم أوصى الوزير بتفقد أحوال الرعية والاستعانة بالصالحين منهم على كشف حقيقتهم وأحوالهم ، وعدم صحبة الجاهلين منهم ، وحذر من الكذوب والفاجر ويستشهد بالحديث وبالحكم . وفي ذلك يقول :

« وحق عليك أيها الوزير أن تكون بأمور الناس خبيرا ، والى أحوالهم متطلعا ، وبهم على نفسك وعلىهم مستظهرا ، لتعلم ما فيه من فضل ونقص وعلم وجهل وخير وشر ، وتتحرر من غرور المتشبه وت disillusion المتصنع ، فتعطى كل واحد حقه ولا تقصـر بـ ذـي فـضـلـ ، وـ لا تـعتمدـ عـلـىـ ذـي جـهـلـ ، وـاحـذرـ مـنـ الـكـذـوبـ فـلـنـ يـنـصـحـكـ مـنـ غـشـ نـفـسـهـ ، وـلـنـ يـنـفـعـكـ مـنـ ضـرـهـ ، وـلا تـسـتـكـفـينـ عـاجـزاـ فـيـضـيـعـ الـعـلـمـ ، وـلا شـرـهاـ فـيـخـرـكـ باـحـتجـانـهـ ، وـلا تـعـبـاـ بـمـنـ لـاـ يـدـافـعـ عـلـىـ الـمـرـوـءـ فـقـلـمـاـ تـجـدـ فـيـهـ خـيـرـاـ لـزـهـدـهـ فـيـ صـيـانـةـ النـفـسـ وـمـيـلـهـ إـلـىـ خـمـولـ الـقـدـرـ ، وـقـدـ قـيلـ فـيـ حـكـمـ الـهـنـدـ :

« ذو المروءة يرتفع بها ، وتاركها يهبط ، والارتفاع صعب ، والانحطاط هين ، كالحجر الثقيل الذي رفعه عسير وحطه يسير » (١) .

(١) نهاية الأرب ج ٦ ص ١٣٢ . يتصرف . والمشبه من يظهر بغير ما فطر عليه .

ومن الظواهر الأدبية في تلك الفترة أن كبار الكتاب كانوا يكتبون عن الخليفة عهد تقليد الوظيفة ويحشدون الوصايا في هذا العهد ، ومن ذلك عهد كتبه أبو اسحاق الصابي عن الخليفة الطائع لله ، يوصى أبا طريف بن عليان العقيلي ، من أرباب السيف حين قلد حمامة الكوفة ، ومما ورد في هذا العهد :

« فتول — أيدك الله — ذلك مقدمًا تقوى الله ومرأبته ، ومستمدًا توفيقه ومعونةه وأحرس الرعية في مساكنها ، والسبلة في مسكنها ، وادفع عن عملك ونواحيه أهل العبث جمیعاً راطلبهم طلباً شديداً ، واطرقوهم في مکامنهم ، وتلوّج عليهم في مکانهم ، ونكل بمن تظفر به منهم نکلاً تقيم به حکم الله عليهم وحدوده في أمثالهم ، وراع الأکرة والمزارعين حتى يتبسّطوا في معاشهم ويتصرفوا في مصالحهم وتتيسّر عواملهم في عماراتها ، ومواشيهم في مسارحها ، وخفف عنهم وليت عليهم الوطأة ، وارفع عنهم المؤنة والکلفة ، وامنّ قويهم من تحیف المضيوف ، وشريفهم من استضامه المشروف » (١) .

وأوصى أحمد بن محمد بن مسکویه ، وجاءت وصيته في صورة غير تقليدية حيث جعل وصيته في صورة معاهدة عاہد عليها نفسه ، وجاء في معجم الأدباء : « نسخة وصية أبي على مسکویه » . وكتب الموصى في صدر وصيته : « أنه يكتبها وهو معافي في جسمه ولا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، وهذا يوضح أنه يوصى بها نفسه وغيره .

يقول في أول الوصية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عاہد عليه أحمد بن محمد وهو آمن في سربه ، معافي في جسمه ، لا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بها مراءاة مخلوق ولا استجلاب لذفة ولا دفع مضره » .

ثم أورد الأمور التي عاہد عليها الله ، وتتلخص في مجاهدة النفس وتجنب كل ما يهتك المرءة ، والجد في طلب العلوم ، وفي ذلك يقول :

« عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره فيعف ويشجع ويفحّم ، وعلامة عفته أن يقتضي في مأرب بدنـه حتى لا يحمله الشرـه على ما يضر جسمـه أو يهـتك مروءـته ، وعلامة شجاعـته أن يحارب دواعـي نفسه الذمـيمـة ، حتى لا تـقـهرـه شـهـوة قـبيـحة ، ولا غـضـبـ في غير مـوضـعـه ، وعلامة حـكمـته أن يـسـتـبـصـرـ في اـعـقـادـاته حتى لا يـفـوتـه بـقـدر طـاقـته شـيءـ من الـعـلـومـ والـعـارـفـ الصـالـحةـ لـيـصلـحـ أـوـلـادـ نـفـسـهـ ، وـعـلـىـ أنـ يـتـمـسـكـ بـهـذـهـ التـذـكـرـةـ وـيـجـتـهـدـ فـيـ الـقـيـامـ بـهـاـ وـالـعـمـلـ بـمـوجـبـهاـ ، وـهـىـ خـمـسـةـ عـشـرـ بـاـباـ » .

ثم راح يعدد هذه الأبواب وتتلخص في الثقة بالله ، ومجاهدة النفس ومعاملة الناس بالحسنى مع قلة الثقة بهم . وفي ذلك يقول :

« ايثار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال ، والخير على الشر في الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم بين المرء ونفسـهـ ، والتمسـكـ بالـشـرـيعـةـ ، وـحـفـظـ المـواـعـيدـ حتـىـ نـنـجـزـهاـ ، وأـوـلـ ذـلـكـ ما بيـنـ وـبـيـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ ، وـقـلـةـ التـقـةـ بـالـنـاسـ ، وـمـحـبةـ الـجـمـيلـ لأنـهـ جـمـيلـ ، وـالـصـمـتـ فـيـ أـوـقـاتـ حـرـكـاتـ النـفـسـ لـلـكـلامـ ، وـحـفـظـ الـحـالـ الـتـىـ تـحـصـلـ فـيـ شـيءـ حتـىـ تـصـيـرـ مـلـكـةـ وـلـاـ تـفـسـدـ بـالـاسـتـرـسـالـ ، وـالـاقـدـامـ عـلـىـ كـلـ مـاـ كـانـ صـوـابـاـ ، وـالـاشـفـاقـ عـلـىـ الزـمـانـ الـذـىـ هوـ العـمـرـ لـيـسـتـعـمـلـ فـيـ الـمـهـمـ دونـ غـيرـهـ وـتـرـكـ الخـوفـ منـ الموـتـ وـالـفـقـرـ لـعـمـلـ ماـ يـنـبـغـىـ ، وـتـرـكـ التـوـانـىـ وـتـرـكـ الـاـكـتـرـاتـ لأـقـوـالـ أـهـلـ الشـرـ وـالـحـسـدـ ، وـحـسـنـ اـحـتـمـالـ الغـنـىـ وـالـفـقـرـ وـالـكـرـامـةـ وـالـهـوـانـ وـذـكـرـ المـرضـ وـقـتـ الصـحةـ ، وـالـهـمـ وـقـتـ السـرـورـ ، وـالـرـضاـ عـنـ الـغـضـبـ ، وـحـسـنـ الرـجاـ ، وـالـثـقـةـ بـالـلـهـ عـزـ وـجـلـ ، وـصـرـفـ جـمـيعـ الـبـالـ إـلـيـهـ » (١) .

وهناك وصايا موجزة تطرق مختلف جوانب الحياة ، ومنها التمسك بالشوري ، وقد أوصى أـحمدـ بنـ سـهـلـ الـبلـخـيـ بالـشـورـيـ وقالـ فيـ ذـلـكـ : « شـاورـ فـيـ أـمـرـكـ مـنـ جـرـبـ الـأـمـرـ وـخـبـرـهـ ، وـتـقـلـبـتـ عـلـيـهـ الـحـوـادـثـ وـبـاـشـرـهـ ، مـالـمـ يـوـهـنـهـ ضـعـفـ الـهـرـمـ ، وـلـمـ يـغـيـرـهـ حـادـثـ السـقـمـ » (٢) .

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٧ إلى ١٩ ياقوت الحموي . مطبع دار المأمون بتصرف .

(٢) شففة الوزراء ص ٨٩ - الثعالبي - مطبعة العاني بغداد .

ونرى كثيرا من الوصايا الشعرية التى تطرق مختلف جوانب الحياة، وبعض هذه الوصايا موجه الى اشخاص معينين ، وبعضها وصايا عامة ينفع بها كل انسان ، ومن الوصايا الموجهة الى اشخاص معينين قول المتبنى لعلى بن ابراهيم التنوخي :

تقليهـن أـفـئـدة أـعـادـى
بـكـى مـنـه وـيـرـوـى وـهـو صـادـى
اـذـا كـان الـبـنـاء عـلـى فـسـادـ(١)

فلا تغتررك ألسنة موال
وكن كالموت لا يرثى لباك
فان الجرح ينفر بعد حين

ومن الوصايا العامة قول أبي الفتح البستي يوحى بالتراث وعدم
العجلة . فيقول :

فلا تكن عجلا في الأمر تطلبه وليس يحمد قبل النضج بحران(٢)

وكان الصاحب بن عباد وزيراً لآل بويه واتصل بالسلاطين وخبرهم وعرف طباعهم ومراسيم معاملتهم ، وأوصى الصاحب بتعظيم السلطان مع الحذر منه فقال :

اذا اولاك سلطان فـ زده
فما السـ لطـ ان الا الـ بـ حـ رـ عـ ظـ ما

ومن الوصايا الطريقة وصية أبي بكر الخوارزمي لصديق له يوصيه
وصية طبية ، ولم يكن أبو بكر الخوارزمي طبيبا ، وإنما كان أديباً مثقفاً
واسع الاطلاع ، وكان في كتاباته يطرق كثيراً من الأبواب محاولاً أن يظهر
ثقافاته المتنوعة ، وقد ورد عليه كتاب صديق له يشكو فيه الجرب ، فكتب
إليه هذه الوصية ، وواضح أنه يستمد معلوماته من المعارف العامة في
زمانه ، ومن نصائح الأطباء المتخصصين في ذلك الوقت ، وهو في وصيائاه

١١٠ ص ١ ج زهر الأدب

(٢) زهر الأدب ج ٤ ص ٩٣٤

٢) زهر الأداب ج ٣ ص ٧٣٠

الطبية لا يتخلى عن طريقة المعهودة وأسلوبه الذى يهتم بالمسجع والمحسنات
البدوية ، فهو أسلوب أديب لا طبيب ، يقول فى مطلع الوصية :

« أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته ، وعلى العطش مع حرارتة ، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة ، وفى أعدل موازين البرودة ، ولابد من هجر اللحم والفاكهة ، ولا سبيل الى الحرافة ، فاما البقول فيجب الا ترى ولو فى المنام ولا تمس ولو بالأوهام ، والسمك وما ناسبه بلية ، واللبن وما خرج منه منية » .

ثم يوصيه بشرب شربة تنظف معدته ، ثم بقصد الأكحل ، ويستعمل
الخوارزمى هنا بعض المصطلحات الطبية الشائعة اندماك كالسوداء
والصفراء . يقول :

« حتى اذا احس فى معدته بالخلاء ، ووقف من طبيعته على الصفاء ،
ومن اخلاط جسمه بالاعتدال والاستواء استخار الله تعالى وشرب شربة قوية
تنكس فضول السوداء ، وتخرج خبايا الصفراء ، وتقمع سلطان البلغم ،
وتتصفى كدورة الدم ، فإذا انجلى عنه خمار ضعفها وتتشعّت غيابة سكرها
أمدّها بفصاد يخص به الأكحل فانه نهر العروق ، والطريق الذى يفضى منه
إلى كل طريق تصعد اليه السفلى وتنزل عليه العليا » .

وأخيرا يوصى صاحبه باستعمال اللطوخ لعلاج ظاهر البدن ، وبالاكثر
من الاغتسال ويعلل لذلك بأن البارد اذا لقى الحار أطفأ بعضه ، والطب
الحديث يؤيد ذلك . يقول :

« فإذا فرغ منه وخرج باذن الله تعالى سليما عنه ، وعلم أنه لم يبق
من العارض إلا هباءه ، ومن المخوف إلا زيفه وجفاؤه ، يعالج حينئذ
باللطوخ الذى يغسل ظاهر الجسم ويجلو صدا السقم ، ولا ينسين الاستكثار
من الغسل والاغتسال ومبشرة الماء على كل حال ، فان التجرب فى حيز
الحرارة ، كما أن الماء فى حيز البرودة ، والبارد اذا لقى الحار أطفأ بعضه
وان لم يقطع أصله ، والضد اذا زاحم الضد أو هن سلطانه وان لم يهدم

اركانه ، (١) .

وقد ساد هذا الأسلوب المسجوع المعنى بالمحسنات البديعية في القرن الرابع الهجري ، وكان أبو بكر الخوارزمي وبدع الزمان الهمذاني فرسى رهان لا يكادان يأتيان بجملتين تخلوان من السجع ، ولبديع الزمان وصية كتبها إلى وارث مال يوصيه بالحرص على المال ، وعدم انفاقه في المتعة والشراب ، ويحذر من الانخداع بكلام الناس ، ويبيدو في هذه الوصية افتنان بديع الزمان وتلاعبه باللألفاظ ولعله بالطبع والجنس و قد أورد الشاعري في يتيمته :

« كتب بديع الزمان الهمذاني يوصى وارث مال : « العزاء من الأعزاء رشد كأنه الغي ، وقد مات الميت فليحيي الحي ، واسدده على حانك بالخمس ، فانت اليوم غيرك بالأمس كان ذلك الشيخ وكيلك يضحك ويبكي لك ، وسيجيجم الشيطان الآن عودك ، فان استنالك رماك بقوم يقولون : خير المال متلفة بين الشراب والشباب ، ومنتفقة بين الحباب والاحباب ، والعيش بين القداح والاقداح ، ولو لا الاستعمال ما أريد المال ، فان اطعتمهم فالليوم في الشراب ، وغدا في الخراب ، واليوم واطربا للناس ، وغدا واحريا من الافلان »

يا مولاي ، ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا ، ويسميه العاقل عقرا ، وذلك الخارج من الناي هو اليوم في الآذان زمر ، وهو غدا في الآذان سمر ، والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقططار في هذا العمل بضاعة » (٢) .

وظلت الوصايا بالأفراد ذوى الحاجة ، ومالت إلى الطول والافتنان والعناية بالأسلوب ، ومن أبرز هذه الوصايا وصية كتبها الصاحب بن عباد وزير آل بويه وأحد كبار الكتاب في القرن الرابع الهجرى موصيا بالقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، وقد كتب الصاحب بن عباد هذه الوصية إلى وزير السامانيين حسام الدولة أبي العباس تاش الحاجب ،

ويبدو من مطلع الوصية أنها ليست أول وصية ، وأن الصاحب بن عباد كتب قبل ذلك إلى حسام الدولة مشيداً بالقاضي الجرجانى ، ويؤكد الصاحب هنا أن فضل الجرجانى أجل من أن يحيط به القلم فيقول :

« قد تقدم وصفى للقاضى أبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى
- أدام الله تعالى عزه - فيما سبق إلى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش
- أدام الله تعالى علوه - من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحق ،
وان كنت قد دللتة على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من
أفراد الدهر » .

ثم تحدث الصاحب عن مكانة الجرجانى في نفسه فيبين أنها مكانة
تناسب محاسنه ومناقبه ، وأنه يسكن قلبه لا يفارقه ، ورجا من الأمير أن
يقدم للجرجانى كل مساعدة مالية وأدبية . يقول الصاحب :

فاما موقعه منى فالموقع تخطبه هذه المحسن ، وتوجبه هذه المناقب ،
وعادته معى الا يفارقنى مقيما وظاعنا ومسافرا وقاطنا ، واحتاج الآن إلى
مطالعة جرجان بعد أن شرطت عليه تصوير المقام كاللامام ، فطالبني مكتابتي
بتعریف الأمير مصدره ومورده ، فان عن له ما يحتاج الى عرضه وجد من
شرف اسرافه ما هو المعتاد ، لیستعجل انکفاوه الى بما يرسم - أدام الله
أیامه - من مظاهرته على ما يقدم الرحيل ويفتح السبيل من بذرقة ان احتاج
الىها والى الاستظهار بها ، ومخاطبة بعض من في الطريق بتصرف
والنفع فيها » .

ويختتم الوصية بخاتمة ذكية ترك الخيار لأبي العباس الحاجب ،
وتوكد مكانة الجرجانى في نفس الصاحب فيقول : « فان رأى الأمير أن
 يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبي الحسن بما يعجل رده
فاني ما غاب كالمضل الناشد ، وادعا عاد كالغافل الواجد فعل ان شاء
الله تعالى » (١) .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ بتصرف .

وصايا المقامات

ومن الوصايا التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ما ورد في مقامات بديع الزمان الهمذاني ، وتدور هذه المقامات حول الكدية والتحايل لكسب المال بكل طريق مشروع أو غير مشروع ، وللمقامات راوه عيسى بن هشام ، وبطلا دائمًا أبو الفتح الاسكندرى ، ويمثل الاسكندرى شخصيات عديدة ومهنًا مختلفة ، ويقدم وصايا متنوعة الموضوعات ومعظمها يدور حول البخل والتحايل لكسب المال .

وأكثر هذه المقامات افتئاناً في الوصية بالبخل (المقامة الوصية) وفيها يحث البخيل ابنه على البخل ، ويببدأ بالتودد لابنه وأظهار الثقة به ، ويوصيه بالمصوم والنوم ، ويحكي بديع الزمان فيقول :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : لما جهز أبو الفتح الاسكندرى ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

يابنى ، انى وان وقفت بمتنانة عقلك فانى شقيق ، والشقيق سيء
الظن ، وليس آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن
عليهما نهارك بالمصوم ، وليلك بالنوم » .

ثم يحذر من الكرم والقرم وهو الشهوة إلى أكل اللحم ، ويوصي
بالمجارة والحرص على المال فيقول : « وكما أخشي عليك ذاك فلامن
لصين : أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم ، واياك واياهما ، إن الكرم
أسرع في المال من السوس ، وإن القرم أشأم من البسوس ، ودعني من قولهم:
إن الله كريم ، إنها خدعة الصبي عن اللبن ، أفهمتها يا ابن المشئومة ؟ إنما
التجارة تنبط الماء من الحجارة ، انه المال - عافاك الله - فلا تنفقن
الا من الربح » .

ثم يوصيه بأكل الملح والخل والبصل ، ويحذر من أكل اللحم والحلو

ومن كثرة الطعام فيقول : « وعليك بالخبز والملح ، ولك فى الخل والبصل رخصة ، وللحم لحمك وما أراك تأكله ، والحلو طعام من لا يبالى على أى جنب يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبع داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ كل ما معهم راحفظ كل مامعك » (١) .

ووردت فى المقامات على لسان أبي الفتح الاسكندرى وصايا دينية ، ولكنها غير خالصة لوجه الله ، ويدرك قارئ المقامات أن الاسكندرى يتظاهر بالتقوى ويدعو الى البذل لكي يجمع من المال ما يريد ، ومما ورد فى المقامات الأهوازية : « فليكن الموت منكم على ذكر ، لئلا تأتوا بذكر ، فانكم اذا استشعرتموه لم تجمحوا ، ومتى ذكرتموه لم تمرحوا ، وان نسيتموه فهو ذاكركم ، وان نمتم عنه فهو ثائركم » (٢) .

وفى ثنايا المقامات ترد وصايا شعرية تدعو الى الأخلاق الدينية والتحابيل على الناس تمثيا مع مبادىء المكدين التي تدعى الى جعل المال هدفا وغاية ، وفي المقاومة المكفوفة يدعو الاسكندرى الى الكسب بدون والحق والخلخل عن العقل .

يقول :

فـان دـهـرـك دونـا	اخـترـ منـ الـكـسـبـ دونـا
انـ الزـمـانـ بـحـمـقـ	زـجـ الزـمـانـ بـحـمـقـ
ماـ العـقـلـ الاـ جـنـونـ(٣)	لاـ تـكـ ذـنـ بـعـقـلـ

وفى المقاومة القرىضية يدعو الى التحابيل والدوران مع الليلى حيث تدور فيقول :

(١) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٤٤ - ١٤٦ بتصريف . المطبعة المحمودية بمصر ط ٢ - والبسوس خالة جليلة وجساس ، وقد تسببت فى قيام حرب استمرت أربعين عاما - والوجبات جمع وجبة وهى الاكلة فى اليوم والليلة مرة .

(٢) مقامات بديع الزمان . المقاومة الاهوازية ص ٣٧ .

(٣) مقامات بديع الزمان . المقاومة المكفوفة ص ٥٣ .

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
 زوق مخربق وكل وأطبق واسرق وطلبـق لمن ينور
 لا تلزتم حــالة ولكن در بالــاليــالي كــما تدور(١)

وفي المقامه الأصفهانية يدعو الاسكندرى الى التحايل على الناس ،
ويشبعهم بالحمير ويدعو الى الاغراض عن أفعالهم مع محاولة نيل ما يريد .

الناس حمر فجوز
وابرز عليهم وبزر
حتى اذا نلت منهم
ماتش تهيه ففروز(٢)

وواضح أنها وصايا لا تمثل معتقدات راسخة عند الناس ولكنها تمثل طائفة معينة .

(١) بيتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ - المطبعة الحفنيّة . مخرق) تصرف في الامور .

(٢) مقامات بديع الزمان . المقامات الاصفهانية ص ٣٥ - حمر حمير - جوز

أغمض عن أفعالهم فروزمات .

وصايا المتطلفين

المتطفلون الذين يذهبون الى الولائم بدون دعوة ويقبلون على الطعام
بنهم شديد ، وأورد القلقشندى وصية بالتطفل أنشأها أبو اسحاق الصابى
بناء على اقتراح معين الدولة بن بويه (ويسمى معز الدولة) ، ووجهها باسم
رجل من المتطلفين يدعى عليكا .

وتقع الوصية في ست صفحات نبرز هنا أهم نقاطها :

« هذا ما عهد على بن أحمد المعروف بعليكا الى على بن عرس الموصلى
حين استخلفه على احياء سنته ، واستنابه في حفظ رسومه من التطفل على
أهل مدينة السلام .

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز والحرز الحرير .

وأمره أن يتأمل اسم التطليل ومعناه ، ويعرف مفازاه ومنهانه ،
ويتصفح تصفح الباحث عن حظه بمحموده ، غير القائل فيه بتسليمه
وتقليله ، وقد عرفت التطليل ولا عار فيه عند ذوى التحصيل لأنه مشتق من
الطفل وهو وقت المساء وأوان العشاء ، فلما كثر استعمال فى صدر النهار
وعجزه ، وأوله وأخره ، وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزايته ،
وسقط الأمراء والوزراء بسرايته ، فإنه يظفر منها بالغنية الباردة ، ويصل
عليها إلى الغريبة النادرة ، وإذا استقرها وجد فيها من طرائف الألوان
المذلة للسان ، وبدائع الطعوم السائفة في الحلقوم مالا يجده عند غيرهم ،
ولا يناله إلا لديهم .

وأمره أن يتبع ما يعرض لوسرى التجار ومجهزى الامصار من وكيرة
الدار (١) والعرس والأذار ، فانهم يوسعون على نفوسهم فى المنوائب
بحسب تضييقهم عليها فى الراتب ، وربما صبروا على تطليل المتطلفين
وأغضوا على تهمج الواغلين ليتحدثوا بذلك فى محافلهم الرذلة ، ويعدوه
فى مكارم أخلاقهم النذلة .

(١) الوكيرة والوكرة طعام يعمل عند الفراغ من البناء .

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومديريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحملاليها ، فانهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم .

وأمره أن يتبعه الأسواق المسوقين ومواسم المتباعين فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، اتبعها إلى المقصد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقات الدعوة ومن يحضرها من أهل النسيان والمروة .

وأمره أن ينصب الارصاد على منازل المغنبات والمغبنين ومواطن الأبيات والمخنثين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ونادية تعمهم ، ضرب إليها أعناق أبله ، وأنضى نحوها مطايلا خيله ، وحمل عليها حملة الحوت الملقم ، والشعبان الملتهم ، والليث المهاصر ، والعقارب الكاسر ان شاء الله .

وأمره أن يحرز الخوان إذا وضع ، والطعام إذا نقل ، حتى يعرف بالحدس والتقريب والبحث والتنقيب عدد الألوان في الكثرة والقلة ، وافتنانها في الطيب واللذة .

وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفا ، ويطوى دونه كشحا .

وأمره أن يكثر من تعاهد الجوار شنات المنفذة للسد ، المقوية للمعد المشهية للطعام ، المسهلة لسيل الانهضام .

هذا عهد عليك بن أحمد إليك ، وحجته لك وعليك ، لم يألك فيه ارشادا وتوقيفا وتهذيبا وتثقيفا ، فكن بأمره مؤتمرا ، وبزواجه مزدبرا ، ان شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » (١) .

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤٠٤ الى ص ٤١٠ - بتصريف - أحمد بن على القلقشندي . دار الكتب العلمية . الجوارات شنات الحلويات . معرفة - الأبيات نساء . السوء .

الفصل الثالث

الوصايا الدينية

كثرت الوصايا الدينية ، وكان الشعور الديني مايزال قويا مسيطررا ، وكان الخلفاء يحكمون باسم الخلافة الإسلامية وبحكم قربتهم من النبي عليه السلام ، وكانوا يفتحون صدورهم في كثير من الأحيان لسماع هذه الوصايا ، ووجه بعض العلماء وصايا مكتوبة إلى الخلفاء كما سنرى .

وجاءت بعض الوصايا الدينية رد فعل للترف والبذخ ، ونما شعر الزهد في هذه الفترة ، وظهر أبو العتاهية شاعر الزهد الأول سواء أكان زهده نابعا من مشاعر صادقة أم كان وسيلة لجمع المال من كبار رجال الدولة .

وظهر التصوف في القرن الثاني الهجري ، وكثرت وصايا المتصوفين ، وكانت تدعى أساسا إلى القرب من الله والتمسك بحبه ، واشتملت في بعض الأحيان على مبادئ غامضة أو شاذة ، ولقيت رواجا عند بعض الناس ، ورفضها كثيرون منهم .

وظهرت وصايا الشيعة واشتملت على بعض المبادئ الغريبة كاعتقاد بعضهم في حلول الله في أنبيائهم ، وإن الإمام يعلم الغيب ، ودعوا إلى الخضوع المطلق للإمام .

وظهرت مسائل خلقية دار حولها جدل كثير كما حدث في مسألة خلق القرآن ، ولحق بعض العلماء أذى بسبب تمسكهم بآرائهم كما حدث للإمام أحمد بن حنبل ، ودارت بعض الوصايا حول هذه المسائل .

وكانت هناك وصايا لعامة الناس توصي بتقوى الله ، وكانت تصدر من العلماء ومن الحكام ، وتبدلت رسائل بين العلماء دار فيها جدل حول بعض

المسائل الدينية ، وأوصى العالم نظيره باتباع الحق ، وحفلت هذه المجادلات .
بالأدلة التي تثبت رأياً وتنفي رأياً آخر .

وهكذا نرى الوصايا الدينية كانت وليدة الظروف ، وكانت صدى لما
يجري في المجتمعات من أحداث وآراء .

في صدر الدولة العباسية

في صدر الدولة العباسية - ونعني بها الفترة التي سبقت خلافة المنصور - طفت الأحداث السياسية ، ولم تكن لأبي العباس السفاح فسحة من الوقت لكي يفتح بابه للعلماء والواعظين ، ولا نظن الا أن الواعظين كانوا يهابون وصية السفاح .

ولذلك لا نجد كتب التراث تحتفظ بوصايا دينية مستقلة الا ماندر ، وكانت الوصايا الدينية تأتي في ثنايا الوصايا السياسية والاجتماعية ، وكان كبار رجال الدولة يوصون بطاعة الخليفة ويتحذرون عن مكانته السياسية والدينية ، ويعدون طاعة الخليفة مظهرا من مظاهر طاعة الله .

ومن الوصايا الدينية التي وردت في ثنايا الوصايا السياسية ماكتبه عبد الله بن معاوية من سجنه إلى أبي مسلم الخراساني : « اتاك الله حفظ الرصبة ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية ، فنبه للتفكير قلبك ، واتق الله » (١) .

ومن الوصايا الدينية التي وردت في ثنايا الوصايا الاجتماعية ماورد على لسان أبان بن تغلب أذ يقول : « مررت بأمرأة وبين يديها ابن لها يريد سفرا وهي توصيه فقالت : « اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك ، وقليل اجدانها عليك أنسع من كثير عقلك ، ايها والنمائم فانها تزرع الضغائن ، ولا تجعل نفسك غرضا لرمادة فان الهدف اذا رمى لم يثبت أن ينثلم ، وممثل لنفسك مثلا ، فما استحسنته من غيرك فاعمل به ، وما كرهته منه فدعه واجتبه ، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها .

اذا هزت فهز كريما فان الكريم يهتز لهزتك ، واياك وللنئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها ، واياك والغدر فانه أقبع ماتعامل به ، وعليك بالوفاء ففيه نماء ، وكن بمالك جوادا ، وبدينك شحودا ، ومن أعطى السخاء والحلم

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ بتصرف .

فقد استجاد الحلة ربطتها وسربالها ، انهض على اسم الله «(١)» .

ومن الوصايا الدينية المستقلة ماكتبه عبد الله بن معاوية بن جعفر ابن أبي طالب إلى صديق له ، «أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإن الله جعل لمن اتقاه المخرج من حيث يكره ، والرزق من حيث لا يحتسب» «(٢)» .

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٧٢ .

(٢) زهر الأدب ج ١ ص ١٢٠ .

فِي عَهْدِ الْمُنْصُورِ

كان الخليفة المنصور حازما ، وكان الناس يهابونه ، ولكنه كان يقدر العلماء المخلصين والزاهدين الصادقين في زهدهم ، وكان يفتح لهم بابه ويفتح صدره ، وكان يثق بعمرو بن عبيد ثقة لا حد لها فكان يستدعيه ويأذن له بالدخول ، وحفظت كتب التراث كثيرا من هذه الوصايا التي وجهت إلى المنصور .

وكان الخليفة المنصور يطلب من أولئك الصالحين أن يعظوه ، وما ذكره صاحب (زهر الأدب) : « دخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور ، فقال له : عظني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، يا أمير المؤمنين ، إن هذا الأمر لو كان باقيا لأحد قبلك ما وصل اليك ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العمار ، قال : فبكى المنصور حتى بل ثوبه ، ثم قال : حاجتك يا أبا عثمان ، وكان المنصور لما دخل عليه طرح عليه طيلسانا ، فقال : يرفع هذا الطيلسان عني » (١) .

وكان الخليفة المنصور يشتقى إلى عمرو بن عبيده ويرسل إليه يستدعيه ، وكتب إليه مرة يستدعيه فوق عمرو بن عبيد في كتاب المنصور : ارفع علم الحق يتبعك أهله » (٢) .

وكان المنصور يثق أيضا بالأوزاعي ، وكان الأوزاعي يدخل عليه بويوصيه ، وحفظ لنا صاحب العقد الفريد وصية مطولة جاءت على لسان الأوزاعي حيث يقول :

« دخلت على المنصور فقال لى : ما الذي بطل بك عنى ؟ قلت : وما تريده

(١) زهر الأدب ج ١ ص ١٤٤ - بتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٥٧ .

مني يا أمير المؤمنين ؟ قال : الاقتباس منك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين :
قال النبي صلى الله عليه وسلم : من بلغته عن الله نصيحة في دينه فهي
رحمة من الله سبقت اليه ، فان قبلها من الله بشكر ، والا فهي حجة من الله
عليه لزيداد اثما » .

ثم يوصي الخليفة باداء الأمانة التي تحملها ، ويذكره بأن قرابته من الرسول لن تغنى عنه شيئاً يوم القيمة ، ومن قوله : « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعك مع المخالفه لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استورهبا انفسكما من الله فاني لا اغنى عنكم من الله شيئا ، وكذلك جدك العباس سال امارة من النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أى عم ، نفس تحبها خير لك من امارة لا تحبها ، نظرا لعم وشفقة عليه من أن يلى فيجحيد عن سنته جناح بعرضة ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من راع بيت غاشا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة ،

ثم أوصاه بالعدل المطلق ، وضرب له مثلاً بالنبي عليه السلام ، وذكره
بأن نعيم الدنيا لا يساوى شيئاً بجانب نعيم الآخرة ، وذلك حيث يقول :
« يا أمير المؤمنين ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص
من نفسه بخدش خدشه اعرابيا لم يتعمده ، واعلم يا أمير المؤمنين أن كل
ما في يديك لا يعدل شريبة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، ولو أن حلقة
من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته ، فكيف بمن يسلك فيها ويرد .
فضلها على عاتقه ؟ » (١) .

وأورد صاحب العقد الفريد وصية رجل للمنصور ، وبدا الرجل فعاب على المنصور اغفاله لأمر الرعية واحتاجبه عنهم وتحكم رجال من أعوانه في مصائر الناس .

ثم أوصاه بـألا يجعل المال كل همه ، وضرب له مثلاً بالطفل يولد عارياً
ثم يرزقه الله ، وضرب له مثلاً ببني أمية لم يغن عنهم ما جمعوا من مال
وسلام ، يقول :

« فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد ارتك الله عيرا في الطفل يسقط
من بطنه أمه ماله على الأرض مال ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم
رغبة الناس اليه ، فان قلت : انما تجمع المال لتشد به السلطان فقد ارتك
الله عيرا في بني أمية ، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما اعدوا من الرجال
والسلاح حين اراد الله بهم ما اراد » ٠

ثم حذر من غضب الملك الحق الذي لا ملك فوقه وذكره بحساب
الآخرة ، فيكتى المنصور وقال : « ويحك ، فكيف احتال لنفسي ؟ » . فنصحه
باتخاذ بطانته من الصالحين ونشر العدل المطلق ، وذلك حيث يقول : « يا أمير
المؤمنين ، ان للناس اعلاماً يفزعون اليهم في دينهم ، ويرضون بهم في
دنياهم ، فأجعلهم بطانتك يرشدوكم وشاورهم في أمركم يسدوكم ، قال : قد
بعثت اليهم فهربوا مني ، قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح
بابك وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وأننا ضامن عليهم أن
يتوك ويساعدوك على صلاح الأمة » (١) ٠

وكان عبيد الله بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب
(ويعرف بالعمري) معروفاً بالصلاح والتقوى ، وقد حجَّ المنصور وسائل عن
العمري فلم يجده ، فظن أنه يتجمب لقاءه ، فكتب عبيد الله إلى أبي جعفر
المنصور يحذره من أن تكون نفسه كل همه ، ويدركه بأنه مسئول عن الأمة
كلها ، ويوصيه بالنظر إلى الله وخوف يوم القيمة وسلطان الله القاهر فوق
عباده . يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين من عبيد
الله بن عمر ، سلام الله عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت من شاء ، أما

بعد ، فانى عهذتك وأمر نفسك لك مهم ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها وأبيضها وشريفها ووضيعها يجلس بين يديك العدو والصديق والشريف والوضيع ، ولكل حصته من العدل ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وانى أحذرك يوماً تعنوا فيه الوجوه والقلوب وتقطع فيه الحجة لملك قد قهرهم بجبروته ، وأنتم بسلطانه ، والخلق داخرون له ، يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه ،

ثم يوصيه بعدم الاصنات الى وشایة الواشين ، ويؤكد له انه لا يريد بوصيته الا وجه الله خالصا . فيقول ، « وانا كنا نتحدث ان امر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ، وانى اعوذ بالله ان تنزل كتابي سوء المنزل ، انما كتبت به نصيحة . والسلام » (١) .

وكان هؤلاء الزاهدون والعلماء يوصون بعضهم ، ويوصون أصدقاءهم ، ويوصون عامة الناس ، وقد كتب الأوزاعي الى اخ له : « أما بعد فقد أحذط بك من كل جانب ، وانه يسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه وأن يكون آخر العهد بك . والسلام » (٢) .

ومن وصاياتهم لبعضهم قول أبي حنيفة لابراهيم بن ادhem أحد كبار الزاهدين :

« وقد رزقت من الغبادة شيئاً ضئلاً ما تليken القلم من بالك فانه رأس العبادة وقلام الدين » .

فقال أبراهم : « وأنت فلتكن العبادة والعمل بالعلم من بالك ، والا ملكت » (٣) .

وأوصى أبراهم بن ادhem وصية عامة لم يخص بها احدا ، فأوصى بتذكر

(١) الامامة والسياسة - ج ٢ من ١٧٥ - ابن قتيبة . مؤسسة الوفاء - بيروت .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ من ١١٩ - الحافظ بن كثير . دار الفكر العربي .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ من ١٣٧ .

الموت والقيامة وأهواها . يقول : « مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك ، وانظر كيف تكون حينئذ ، ومثل له القيامة وأهواها »(١) .

ولابراهيم بن أدهم وصية يوصى فيها بالفار من الناس الا عند الصلاة ، يقول : « فروا من الناس كفاركم من الأسد الضارى ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة »(٢) . وقد ظهرت هذه الفكرة في وصايا المتصوفين . بعد ذلك .

(١) المرجع نفسه ص ١٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٩ .

في عهد الخليفة المهدى

ظل الخلفاء العباسيون طيلة القرن الثاني الهجرى يظهرون المحافظة على تعاليم الاسلام ويستمعون الى وصايا العلماء والزاهدين ويدعون الناس الى التمسك بالتقوى (وذلك باستثناء الخليفة الأمين) ، وقد كان المهدى يوصى في خطبه بتقوى الله ، وفي احدى خطبه يقول :

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله فان الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على اجلال عظمته ، وتوقير كبرياته وقدرتها ، والانتهاء الى ما يقرب من رحمته ، وينجى من سخطه ، وينال به ماليه من كريم الثواب وجزيل المأب » (١) .

وكتب المهدى الى ولاته يوصيهم بالتقوى ، فكتب الى واليه على أرمذية:

« هذا ما عهد به عبد الله محمد أمير المؤمنين الى فلان ، أمره بتقوى الله في سرائره وعلانيته ، والاعتصام بالله والعمل بطاعته ، والايثار لحقه على مأسواه ، وأراقبه له ، والخشية منه ، فان الله لا يضيع لحسن أجرا ، ولا يصلح لمفسد عملا .

وأمره أن يشعر قلبه مخافة الله ، وأن يعلم أن لا حول ولا قوة في شيء إلا بالله والعمل بطاعته ، فان الله عز وجل اذا علم يصدق نيته أحسن عنده وخار له في قضائه ، وكفاه ما هم ، ولم يكله في شيء من أموره إلى نفسه ان شاء الله

وأمره ألا ياتمر أمرا حتى يستخير الله فيه ويستعينه عليه ويستقضيه فيه بالذى هو أحب إليه وأرضى عنده ، فان العاقبة للتقوى ، وأمره أن يصلى الصلوات لمواقيتها في مسجد الجماعة ولا يتشغل عنها بغيرها ، فان الله

جعلها عمود الدين فقال تبارك وتعالى : « فإذا أطمائنتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقتاً » (١) .

وكان الخليفة المهدى يحب شبيب بن شيبة ويفتح له بابه وصدره كما كان المنصور يفعل مع عمرو بن عبيد ، وكان شبيب يوصى المهدى وصايا دينية ، وفي احدى وصاياته أوصاه بتقوى الله وأن يعمل على أن يكون له مكانة علياً في الآخرة كما أعطاه الله المكانة العليا في الدنيا ، يقول شبيب :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله أذن قسم الأقسام في الدنيا جعل لك أسناداً وآعلافاً فلما ترضي لنفسك في الآخرة لا مثل مارضي لك به من الدنيا ، وأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نزلت ومنكم أخذت واليكم ترد » (٢) .

وكان صالح بن عبد الجليل عالماً جليلاً ، وزاهداً ورعاً ، وكان يوصى المهدى فينصلت له ، يقول صاحب العقد الفريد : « قام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدى فقال : جاء في الآثر : من حجب الله عنه العلم عنده على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم فأدبر عنه ; فاقبل يا أمير المؤمنين ما أهدى إليك من السنن قبل تحقيق وعمل ، لا قبول سمعة ورياء فإنما هو تنبيه من غفلة ، وتنذير من سهو ، وقد وطن الله عز وجلنبيه عليه السلام على نزولها . فقال تعالى : (وما ينزعنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله انه هو السميع العليم) » (٣) .

وكان الزاهدون يجتمعون ويتواصون شعراً ونشراً ، وكانت الوصايا تدور حول التقوى ، وتتجنب الناس وسوءظن بهم ، وقد أورد الحافظ بن كثير في حوادث سنة ١٦٢ مجموعة من الوصايا الدينية لأعلام الزهد في ذلك الوقت . ومما أورده :

« قال ابواهيم بن ادhem : وقفت على باب راهب ، فائشاً يقول :

(١) المنظوم والمنتور ج ١٣ ص ٥٠٣ . بتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٥٨ .

قال بشر بن الحارث الحافى : فقلت لابراهيم بن ادهم : هذه موعدة
الراهيب لك ، فعطنى أنت ، فأنشأ يقول :

ولا تتخذ خلا ولا تتبع صاحبها
وكن أوحديا ما قدرت مجانينا
فلست ترى الا مذوقا وكاذبا
وتنكر حالاتي لقد صرت راهما

توجس من الاخوان لا تبغ مؤنسا
وكن سامری الفعل من نسل ادم
فقد فسد الاخوان والحب والاخا
فقلت : ولو لا أن يقال : مدحه

قال سرى : فقلت لبىش : فعطنى أنت ، فقال : عليك بالخمول ولزوم
بيتك .

وقال الحلبى : فقلت لسرى : فعذنى أنت ، فقال : عليك بالاخمال ..
وأنشأ يقول .

ان كان حقا فاستعد خصالا
واعجل خروجك للصلوة خيالا
لا يرتجي منه القريب وصالا

يامن يروم بزعمه اخملا
ترك المجالس والتذاكر يا أخى
يل كن بها حيا كانك ميت

وقال الحلبي : « أحب الأفعال إلى الله ما صعد إليه من قلب زاهد في الدنيا ، فازهد في الدنيا يمحك الله ، ثم أنشأ يقول :

فتمه بـ اشتراكـهـ عنـ شـهـواتـكـ صـمـتهـ يومـ وـفـاتـكـ ، (١)

انت فى دار شمسات
واجعل الدين كيوم
،احصل الفطر اذا ما

وهذه وصايا لكتاب الزاهدين ، وتشابه هذه الوصايا في الدعوة إلى ترك مخالطة الناس ، وسوء الظن بهم ، والأخلاص لله .

ومن أجمل وصايا الفقهاء وصية الإمام مالك للإمام الشافعى رضى الله عنهمما بعد أول لقاء بينهما إذ يقول مالك : « انى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، وقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ومن الفرقان النور الذى يفرق به العبد بين الحق والباطل ، وكلما كان قلبه أقرب الى الله كان فرقانه أتم ، وبالله التوفيق » (١) .

وتكشف هذه الوصية عن مخايل النجابة التى ظهرت على الإمام الشافعى منذ صغره ، كما تكشف عن النظر الثاقب عند الإمام مالك ، وصدق ظنه فى تقدير الرجال .

(١) أعلام الموقعين ج ٤ ص ٢٥٨ محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية .
مكتبة الكليات الازهرية .

في عهد الرشيد

كان أبو جعفر المنصور يصفى إلى وصايا عمرو بن عبيد ، وكان المهدى يصفى إلى وصايا شبيب بن شيبة ، وكان الرشيد يصفى إلى وصايا ابن السمак ، ويقول الحافظ بن كثير :

« كان ابن السماك كثير الدخول على الرشيد وتوصيته ، قال له : « إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم ويقع الندم ، فلا توبة قبل ، ولا عترة تقال ، ولا يقبل فداء بمال » (١) .

بل ان الرشيد كان يرسل الى ابن السماك يستدعيه ويطلب منه الوعظة ، وجاء في تاريخ الطبرى : « استدعا هارون الرشيد ابن السماك ، فدخل فقال له : عذنى ، قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف الى احدى منزلكتين لا ثلاثة لها : جنة أو نار ، فبكى هارون الرشيد حتى اخضلت لحيته » (٢) .

وكان هارون الرشيد حاد العاطفة قوى الانفعال كثير البكاء من خشية الله ، وكان يحب الموعظة ويطلبها من ابن السماك وغيره ، وكان يطلب الموعظة من أبي العتاهية ، فيعظه في أبيات مؤثرة . يقول الحافظ بن كثير :

« قال الرشيد لأبي العتاهية : عذنى بأبيات من الشعر وأوجز . فقال :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ولو تمنت بالحجاب والحرس

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٥٧ .

واعلم بأن سهام الموت صائبة
لكل مدرع منها ومتربس
ان السفينة لا تجرى على الييس^(١)
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

ومن المعلوم أن الرشيد وغيره من الخلفاء كانوا يعيشون عيشة مترفه ،
وكا كان للرشيد ابن زاهر لا يرضيه هذا البذخ ، فأوصى أباه وحذره ، يقول
الحافظ بن كثير : « كان أحمد بن الرشيد زاهداً عابداً ، وكان يأكل من عمل
يده ، وأوصى الرشيد فقال : « أياك أن تموت في سكرتك هذه فتقندم حيث
لا ينفع نادماً نسمة ، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى أحدي الدارين ،
وأن يكون آخر العهد بك ، فإن ما أنت فيه لودام لغيرك لم يصل إليك ،
وسيصير إلى غيرك ، وقد بلغك أخبار من مضى »^(٢) .

ومن أشهر الوصايا الدينية وصية الإمام مالك لهرون الرشيد ، وقد
كتبها الإمام مالك حرصاً على الاستفادة بها ، وطبعت هذه الرسالة في حوالي
ثلاثين صفحة ، وهي بمثابة عقد قراءة الوصية أن الإمام لم يقصد إلى أن تكون
خاصة بالرشيد ، وإنما قصد أن يكون نفعها عاماً ، ففيها أوامر ونواه
لا توجه إلى الرشيد كقوله : « إذا حضرت السلطان فأشفع بخير » .

بدأ الوصية بحمد الله والصلوة على رسول الله ، ثم قال : « أما بعد ،
فاني كتبت إليك بكتاب لم ألك فيه رشداً ، ولم أدخلك فيه نصراً ، فتدبره
بعقلك ، وردد فيه بصرك ، وارعه سمعك ، فإن فيه الفضل في الدنيا ، وحسن
ثواب الله تعالى في الآخرة » .

ثم يذكر الرشيد بالموت القادم ، والوقوف بين يدي الله وهول المحرر ،
وزفير أهل النار ، مما يصغر معه كل ملك في الدنيا ، ويرسم الإمام مالك
إلى جانب ذلك أهل الطاعة ونزلتهم ونصرة وجدهم ، وبحثه على
إنقاذ نفسه .

ثم يوصيه بالصلوة واتقانها ، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر ،

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٤ .

وبالخارج الزكاة وباداء الحج ، ويستدل بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ثم يوصيه بالاحسان الى الرعية ويحذر من الكبر والزهو ومن بطانة السوء ويقول : « اتق أهل الفحش ومجالسة أهل الردى ومجالسة الضعفة من الناس فانه بلغنى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « اعتبر الناس باخداهم فانما يخادن الرجل الرجل مثله » .

ويوصى باكرام اليتيم وابن السبيل واعانة المظلوم وانصاف الناس من نفسه وصلة الرحم والوفاء بالموعد والدعاء للوالدين في كل صلاة ، وببحثه على ذكر الله في كل عمل فيقول : « اذا ركبت دابة فوضعت رجلك في الركاب فقل : باسم الله ، واذا استويت راكبا فقل : (سبحان الذي سخر لنا هذا وماكنا له مقربين) . فانه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول بذلك كلما ركب دابة » .

ويوصيه بتآدب بيولده ومن ولد أمره ، وينهاء عن الاسراف وعن لبس العرير والمعصفر وعن استعمال الذهب والفضة . وعن اكل لحم شيء من السباع ولا ذى مخلب من الطير .

وتطرق الوصية الى بعض المسائل الفقهية ويوصى فيها بما يوافق مذهبها ، ومن ذلك قوله : « ارفع يدك في عشرة مواطن : اذا دعوت عند افتتاح الصلاة والعيدين والقتوت والتکبير ، وعند استلام الحجر وعرفة والمذلفة والصفا والمروة والجمار ، روى ذلك عن ابن عباس ، وعند افتتاح الصلاة والقتوت والعيدين ترفعهما حتى تحاذى ابهامك اذنك » .

ويختتم وصيته بالحث على قبول ما جاء بها فيقول : « ول يكن منك فيما كتبت اليك من القيام بأمر الله تعالى ، واتباع ما هو اهله ما ترجو به القرية عند الله تعالى ، والله الموفق للصواب والى المرجع والمأب » . (١)

وكان الشافعى محبيا الى هارون الرشيد ، وأوصى الشافعى الرشيد وصية نبه فيها الى أن هذه النعم ابتلاء من الله تعالى ، ولها ثمن هو الشكر .

(١) رسالة الامام مالك الى هارون الرشيد - المطبعة الاميرية .

يقول ! يا أمير المؤمنين اعلم أن الله جل ثناؤه امتحنك بالنعم وابتلاك بالشکر ،
فكن الله تعالى شاكرا ولآئه ذاكرا تستحق منه المزيد ، واتق الله في السر
والعلانية تستكمل الطاعة •

ولما كان الخلفاء والكبار مظنة التعالى على الموصين أوصاه بأن يسمع
وصية من دونه ، وأن يكون ظاهره مطابقا لباطنه فقال : « واسمع لقائل
الحق وإن كان دونك تشرف عند الله وتزد في عين رعيتك ، وأعلم أن الله
تعالى يفتح سرك ، فان وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا وفتق لك
ما ينزلق عليك ، واستغنى الله ، والله غنى حميد ، وإن وجده موافقا لعلانيتك
أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك » .

ثم أوصاه باتباع كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وطريق
الخلفاء الراشدين فقال : « وعليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به ،
وعليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون على طريقة الذين هداهم
الله فبهداهم اقتده ، وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأرضين
والسواد والمسكن والديارات ، فكن لهم تبعا وبه عملا » .

وختم الوصية بطاعة الله والنصح للرعية ، وبين له سوء العاقبة لمن
لم ينصح رعيته ، « وكن الله كما تحب أن يكون لك أولياؤك من العامة من
السمع والطاعة ، فإنه ما ولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحظهم
بنصيحة إلا جاء يوم القيمة ويده مغلولة إلى عنقه لا يفكها إلا عده ، وانت
أعرف بنفسك » (٢) .

وكان العلماء يبذلون الوصية والنصيحة لكل من يتصل بهم خالصة
الله تعالى ، وكما أوصى الشافعى هارون الرشيد أوصى أخا له في الله تعالى ،
وحذر من الركون إلى الدنيا والاغترار بها ، وأوصاه بالرجوع إلى الله ،
يقول الجنيد : « وعظ الشافعى أخا له في الله تعالى فقال :

(٢) حلية الأزلية ج ٩ ص ٨٩ - أحمد بن عبد الله الأصبهانى . مطبعة
السعادة . بتصرف .

يا أخي ، ان الدنيا دحش مذلة ، ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب
صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقف وغناها
إلى الفقر مصروف ، الاكتار منها اعسار ، والاعسار فيها يسار ، فافزع
إلى الله وارض رزق الله ، لا تستسلف من دار بقائك في دار فنائك ، فان
عيشك في زائل ، أكثر من عملك ، وقصر من أملك » (١) .

وكان العلماء يوصى بعضهم ببعض بما يعتقدون أنه الحق ، وحدث
خلاف في وجهات النظر بين الإمام مالك أ Imam المدينة المنورة ، والإمام الليث
ابن سعد أ Imam مصر ، حيث كان الليث بن سعد يرى لنفسه وللعلماء المهيدين
للفتيا الحق في الافتاء بما يرونه موافقاً لمبادئ الدين في المسائل التي لم
يرد فيها نص صريح من الكتاب أو السنة ، وأنكر الإمام مالك على الليث بن
سعد أن يفتى براءة مخالفة لرأي أهل المدينة ، وكتب مالك إلى الليث رسالة
يوصيه بالالتزام بفتيا أهل المدينة ، وعلل لوصيته حتى تجد قبولاً لدى صديقه
الليث بن سعد ، فبين فضل المدينة المنورة التي كانت إليها هجرة الرسول
عليه السلام ، والتي قام فيها أبو بكر وعمر ومن خلفهما ثم سار التابعون
على هذا المنهج القوي ، وفي بيان فضل المدينة المنورة يقول :

« فانما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة ، وبها تنزل
القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، وبها كان الصحابة ، انه رسول الله
صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحي والتزيل ، ويأمرهم
فيطیعونه ، ويسن لهم فیتبعونه ، حتى توفاه الله ، ثم قام من بعده أتبع
الناس له من أمته من ولی الأمر من بعده ، فما علموا انفذوه ، وما زان
يکن عندهم فيه علم سأّلوا عنه ، ثم أخذوا بأقوی ما وجدوا في ذلك في
اجتهادهم ، وان خالفهم مخالف ترك قوله وعمل بغيره ، ثم كان الناس
من بعدهم يسلكون تلك السبيل ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به
لم ير لأحد خلافه للذى في أيديهم من تلك الوراثة » .

(١) نهاية الادب ج ٥ ص ٢٤٩ - أحمد بن عبد الوهاب التوييري . مطبعة

الكتب - بتصرف .

ثم يختم وصيته بأنه لم يقصد الا النصيحة لله والنظر لصاحبها ، ويوصيه بقبول وصيته فيقول : « فانظر - رحمك الله - فيما كتبت اليك لنفسك ، واعلم أنى أرجو الا يكون قد دعاني الى ما كتبت اليك الا النصيحة لله وحده ، والنظر لك والضن بك ، فأنزل كتابي منزلته ، فانك ان فعلت تعلم أنى لم اك نصحا ، وفينا الله واياك لطاعتة وطاعة رسوله في كل أمر ، ، وعلى كل حال ، والسلام عليك ورحمة الله » (١) .

وأوصى القاضي شريك بن عبد الله نفسه ، وكان يحمل الوصية معه وينظر فيها قبل الحكم حتى يذكر نفسه فلا تنسى ، يقول الحافظ بن كثير : « كان لا يجلس للحكم حتى يتغدى ، ثم يخرج ورقة من حقه فينظر فيها ، ثم يأمر بتقديم الخصومة اليه ، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما في تلك الورقة ، فادا فيها : « يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته ، يا شريك ابن عبد الله اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل » (٢) .

(١) أعلام الموقعين ج ٤ ص ١٢٣ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية . دار الجيل . بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧١ .

في عهد المأمون

كان المأمون خليفة عادلا ، وكان متدينا ، وقد قدمنا له وصايا سياسية واجتماعية وكان حريصا على تنشئة أولاده على المبادئ الدينية والأخلاق السامية ، وأوصى ابنه العباس بالتنافس في الخير والحرص على العدل واحياء السنة الصالحة وامانة البدعة ، والاحسان في معاملة الناس ، يقول :

« ينبعى يابنى لمن أسبغ الله عليه نعمه وشركه فى ملکه وسلطانه وبسط له فى القدرة أن ينافس فى الخير بما يبقى ذكره ويجب أجره ويرجى ثوابه ، وأن يجعل همه فى عدل ينشره ، أو جور يدفعه ، وسنة صالحة يحييها ، أو بدعة يميتها ، أو مكرمة يعتقدها ، أو صناعة يسديها ، أو يدعها ويوليها ، أو أثر محمود تتبعه » (١) .

والحقيقة أنه ليست هناك حدود فاصلة بين السياسة والمجتمع والدين ، فكثير من الوصايا جمعت بين الألوان الثلاثة ، وقد قدمنا في حديثنا عن الوصايا السياسية وصبية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله في عهد المأمون ، وهي وصية مطولة أعجب بها الخليفة المأمون وحفظها الكتاب وتداولوها ، وجاء في مطلع الوصية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيتها ومراقبته وموازيله سخطه وحفظ رعيتك ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعارك وما أنت صائر إليه و موقفه عليه ومسئولي عنده ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك من الله وينجيك يوم القيمة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده والزمك العدل عليهم » (٢) .

وبرز في عهد المأمون على بن موسى الرضا وكان زعيم الشيعة ، واختاره

(١) كتاب بغداد ج ٦ ص ٥٢ - ابن طيفور .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ .

المؤمن لولاية العهد وزوجه ابنته ، ولكنه مات في عهد المأمون ، وقد أوصى على بن موسى بعدم الركون إلى الدنيا والتعلق بالأعمال الخادعة فقال :

لا تغرنك أباطيل المنى
والزم القصد ودع عنك العلل
انما الدنيا كظل زائل
حل فيه راكب ثم ارتحل (١)

وكان أحمد بن حنبل أبرز الفقهاء في ذلك العهد ، وحفظت له وصية دينية يوصي فيها أهله وقاربه ويؤكد تمسكه بحب الله ، ويوصي بقضاء دين عليه واعطاء أولاده أنصبائهم بعد قضاء ما عليه ، يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأوصى من أطاعه من أهله وقاربه أن يعبدوا الله في العبادين ويحمدوه في الحامدين ، وأن ينصرها لجماعة المسلمين ، وأوصى أنني رضيت باهـ رـبـاـ وبـالـاسـلـامـ دـيـنـاـ ، وبـمـحـمـدـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ نـبـيـاـ ، وأوصى أن لـعـبـدـ اللـهـ بـنـ مـحـمـدـ الـمـعـرـفـ بـبـورـانـ عـلـىـ تـحـوـيـلـ مـخـسـيـنـ دـيـنـارـاـ ، وـهـوـ مـصـدـقـ فـيـمـاـ قـالـ ، فـيـقـضـيـ مـالـهـ عـلـىـ مـنـ غـلـةـ الدـارـ اـنـ شـاءـ اللـهـ ، فـاـذـاـ اـسـتـوـفـيـ أـعـطـيـ وـلـدـاـيـ : صـالـحـ وـعـبـدـ اللـهـ اـبـنـ أـحـمـدـ اـبـنـ مـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ كـلـ ذـكـرـ وـأـنـثـيـ عـشـرـةـ دـرـاهـمـ بـعـدـ وـفـاءـ مـاـعـلـىـ لـابـنـ مـحـمـدـ .

شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابناً أحمداً بن حنبل « (٢) » .

ومن أبرز المسائل التي ثارت حولها خلافات حادة في عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، وقد اعتنق المأمون مذهب المعتزلة وقال : بخلق القرآن ، وحمل العلماء على اتباع هذا المذهب ، وعارضه كثير من العلماء وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل ، ولم يكتف المأمون بالجدل المنطقى بل تعداه إلى الحاق الأذى بمعارضيه ، ولحق أحمداً بن حنبل أذى كثير ، ولكن وقف ثابت لا يتزحزح عن رأيه ، وأوصى أصحابه بالتمسك بالقول بأن القرآن قديم غير مخلوق ، وورد في ذلك :

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥٠

(٢) حلية الأولياء ج ٩ ص ٢١٢

« قال أَحْمَدُ بْنُ غَسَانَ : حَمَلْتِ أَنَا وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ فِي مَحْمَلِ عَلَى جَمْلِ يَرَادِ بْنِ الْمَأْمُونِ ، فَقَالَ لِي ابْنُ حَنْبَلَ : يَا أَحْمَدُ بْنُ غَسَانَ ، إِنِّي مُوصِيكَ بِوَصْيَةِ فَاحْفَظْهَا عَنِّي ، رَاقِبُ اللَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ ، وَاسْكُرْهَا عَلَى الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَانْ دُعَاْنَا هَذَا الرَّجُلُ أَنْ نَقُولَ : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ . فَلَا تَقْلِ ، وَانْ أَنَا قُلْتُ فَلَا تَرْكَنْ إِلَيْيَ ، وَتَأْوِلْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَيْ الَّذِينَ ظَلَمُوكُمْ فَتَمْسِكُمُ النَّارَ » (١) .

وكان عامة الناس يميلون إلى مذهب أهل السنة ، ويبعدون أنفسهم كانوا يشفقون على أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ أَنْ تنهار قوته ويسقط مسلمه إلى رأي المأمون فينهار الرمز الذي يتبعونه ويقتدون به ، ولذلك حذر أحد هم ابن حنبل أن يستسلم ، وأوصاه بالصبر ليعيش حميداً أو يموت شهيداً ، وجاء في ذلك :

« استدعي المأمون أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ سَنَةَ ٢١٨ هـ لِيَسْأَلَهُ عَنْ خَلْقِ الْقُرْآنِ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَلَادِ الرَّحْبَةِ جَاءَهُ رَجُلٌ وَقَالَ لَهُ : يَا أَهْنَا ، إِنَّكَ وَافِدٌ إِلَيْنَا فَلَا تَكُنْ شَوْءًا عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ الْيَوْمَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْيِيْبَهُمْ إِلَى مَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ فَيَجِيئُوكُمْ ، فَتَحْمِلُ أَوْزَارَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَحْبُّ اللَّهَ فَاصْبِرْ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ ، فَإِنَّهُ مَا يَبْيَنُكَ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ تَقْتَلَ ، وَإِنَّكَ إِنْ تَمُوتَ تَمُوتْ ، وَإِنْ تُعْشَتْ عَشْتَ حَمِيدًا » (٢) .

ونشطت الصراعات المذهبية بين الفرق المختلفة ، وكانت المعتزلة أحدى الفرق البارزة وعلت مكانتها في عهد المأمون ، وكان عبد الله بن المبارك ضد مذهب المعتزلة ، وأوصى بتترك البدع التي كان يعتقد بها عمرو بن عبيد فقال :

أَيَّهَا الطَّالِبُ عَلِمًا فَخِذْ الْعِلْمَ بِحَلْمٍ وَذِرْ الْبَدْعَةَ مِنْ أَ	اِيَّتِ حَمَدَادَ بْنَ زَيْدَ ثُمَّ قَيَّدَهُ بِقَيْدٍ ثَارَ عُمَرُو بْنَ عَبِيدٍ (٣)
--	---

(١) المرجع نفسه ص ١٩٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٢ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧٩ .

بعد الخليفة المأمون إلى منتصف القرن الثالث

كانت وصايا الخلفاء تجمع بين السياسة والمجتمع والدين ، وكانوا يدعون بالوصية الدينية غالبا ، وتشمل الوصية الدينية كل مبادئ الخير ، وحيثما ولـى الخليفة المعتصم ابنه الواشـق على مـكة أوصـاه بـقولـه : « فعلـيك بـتقـوى الله تعالـى والتـوسعـة على أـهل بيـته » (١) .

وفي وصية أحد العلماء للمتوكل يقول : « ان اخـسـر النـاس صـفـقة يـوم الـقيـامـة من اـصـلـح دـنـيـا غـيـرـه بـفـسـادـ آخرـتـه ، وـاذـكـر لـيـلة تـقـمـخـض صـبـيـحتـها عن يـوم الـقـيـامـة ، وـأـول لـيـلة يـخـلـو الـمرـء فـي قـبـرـه بـعـدـه » (٢) .

ولـما عـقـد الخليـفة المـتوـكـل الـبيـعـة لـبـنـيـه الـثـلـاثـة كـتـبـ العـهـد بـذـكـرـ وـجـاءـ فـيـه :

« انه جـعلـى محمدـ المـنـتصـر باـثـه بنـ جـعـفرـ الـامـامـ المـتوـكـلـ عـلـى اللهـ اـمـيرـ المؤـمنـينـ وـلـاـيةـ عـهـدـ الـمـسـلـمـينـ فـى حـيـاتـهـ ، وـالـخـلـافـةـ عـلـيـهـمـ منـ بـعـدهـ ، وـأـمـرـهـ بـتـقـوىـ اللهـ التـىـ هـىـ عـصـمـةـ مـنـ اـعـتـصـمـ بـهـاـ ، وـنـجـاةـ مـنـ لـجـاـهـيـهاـ ، وـعـزـ منـ اـقـتـصـرـ عـلـيـهاـ ، فـانـ بـطـاعـةـ اللهـ تـنـعـمـ ، وـتـجـبـ مـنـ اللهـ الرـحـمـةـ ، وـاـنـهـ غـفـورـ رـحـيمـ » (٣) .

وـمـنـ الـوـصـاـيـاـ الـطـرـيـفـةـ مـاـكـتـبـهـ الـجـاحـظـ الـىـ اـحـدـ أـصـحـابـهـ ، وـأـوـصـاهـ بـالـحـلـمـ وـالـأـنـاـةـ وـالـعـفـوـ عـنـ الـمـسـىـ وـفـيـهـ يـقـولـ : « عـلـيـكـ بـالـأـنـاـةـ فـانـكـ عـلـىـ اـيـقـاعـ مـاـ أـنـتـ مـوـقـعـهـ أـقـدـ مـنـكـ عـلـىـ رـدـ مـاـقـدـ أـوـقـعـتـهـ » (٤) .

وـفـيـ مـوـقـفـ آخـرـ يـقـولـ : « وـلـيـسـ يـصـارـعـ الغـضـبـ أـيـامـ شـبابـهـ شـيءـ

(١) زهر الأدب ج ٤ ص ١٠٩٧

(٢) أحكام أهل الذمة ص ٢٢١ - ابن قيم الجوزية . مطبعة جامعة دمشق

(٣) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٧٧

(٤) رسائل الحافظ ج ١ ص ٢٤٢ - مطبعة السنة الحمدية .

الا صرעה ، ولا ينazuه قبل انتهائه وادباره شيء الا قهره ، وانما يحتال له قبل هيجه ، ويتقدم في حسم اسبابه وفي قطع عللها ، فأما اذا تمكنا واستفحل ، وأذكى ناره وأشعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعا وطاعة ، فلو أسعطته بالتوراة ووجرته بالإنجيل ولدته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن افراغا ، وأتيته بأدم عليه السلام شفيعا لما قصر دون أقصى قوته ، وقد جاء في الآخر : ان أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب .

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيك في عتابي التماسا للعفو عنى ، ولا تقص عن افراطك من طريق الرحمة بي ، ولكن قف وقفه من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للكرام أعداء ، ويمسك امساك عن لا يبرئ نفسه من الهوى ، ولا تذكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو ، فقد زل آدم صلى الله عليه وسلم ، ولست أساًلك الا ريشما تسكن نفسك ، ويرتد اليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحداثة «(١)» .

وفي دار الكتب المصرية كتاب مطبوع عنوانه (الوصايا - أو - النصائح الدينية) . مؤلفه الحارث بن أسد المخاسبي المتوفى سنة ٢٤٢ هـ ، ويتحدث الاستاذ المحقق عن منهج الكتاب فيقول : « ينزع المؤلف إلى بناء انسان متكملا ، وشعاره : ان الانسان يجب ان يكون ابن وقته او لا ، لا يائى على الماضي ، ولا يقلق من المستقبل ، وهو يدعى الى عدم الانحراف مع الهوى ، وينهى عن الجري وراء المال » (٢) .

والكتاب مقسم الى واحد وأربعين فصلا في مائة وسبعين صفحة ، ويحوى وصايا عامة لا تخضع لمنهج منظم ، ونرى فيها تكرارا وتدخلا في أبواب الكتاب ، وبعض هذه الوصايا لا يتقبلها عامة الناس ولا يقال بها الا المتصوفون كما في حديثه عن السرور بمصائب الدنيا ، والرضا بالمذمة .

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٠ بتصرف يشير - وجراه الدواء جعله في فيه - اللدود واللديد ما انصب من الدواء في الفم .

(٢) الوصايا . مقدمة الكتاب . بتصرف . الحارث بن أسد المخاسبي . محمد على صبيح .

ونورد هنا بایجاز شديد مايوضى به المحاسبى فى هذا الكتاب :

- الباب الأول يدور حول حتمية الموت .
- الباب الثاني عن تبدل شرائع اليمان .
- الباب الثالث يقول : ان المال أصل البلاء .
- الباب الرابع فى القناعة والتواضع .
- الباب الخامس فى الحلال وندرته .
- الباب السادس فى الاقتصاد فى الإنفاق وعدم الإسراف .
- الباب السابع فى ذم البخل .
- الباب الثامن فى تحبيب العزلة والتحذير من مخالطة الناس .
- الباب التاسع فى السرور بمصائب الدنيا .
- الباب العاشر فى مكانه الشيطان فى الطاعات .
- الحادي عشر فى التحذير من الاعجاب بالأعمال .
- الثاني عشر فى علاج الكبر .
- الثالث عشر فى تقدى السرائر وتطهيرها من الغل والحسد .
- الرابع عشر فى فرائض العقول والجوارح .
- الخامس عشر فى رعاية الجوارح والقلوب .
- السادس عشر فى النفس الأمارة بالسوء .
- السابع عشر فى تفاؤل العاملين بالبر .
- الثامن عشر فى العلم النافع وأهمية النية .
- التاسع عشر فى شرف العقل .
- العشرون فى أصناف الناس فى محاب الله تعالى .
- الحادي والعشرون فى أصناف الناس فى حب مايبغضه الله .
- الثاني والعشرون فى خشوع القلوب مع الأبدان .
- الثالث والعشرون فى الصوم .
- الرابع والعشرون فى وجوب نية التوافل لاتمام نقص الفرائض .
- الخامس والعشرون فى وجوب نية العمل لمحو السيئات .
- السادس والعشرون فى وجوب الإنابة من الآثام .
- السابع والعشرون فى وجوب الإسرار بالدعاء .
- الثامن والعشرون فى وجوب الدعاء بالقلب واللسان .

- الناسع والعشرون في التدبر عند تلاوة القرآن .
- والثلاثون في وجوب التطهير من المال الحرام .
- الحادي والثلاثون في تجنب الشبهات .
- الثاني والثلاثون في النية الصحيحة لبذل المال .
- الثالث والثلاثون في طرق شكر النعم .
- الرابع والثلاثون في تصحيح السلوك العلمي .
- الخامس والثلاثون في وجوب الاسرار بأعمال البر .
- السادس والثلاثون في أخطار المدح .
- السابع والثلاثون في فضل الرضا بالمذمة .
- الثامن والثلاثون في وجوب تفقد القلوب .
- الناسع والثلاثون في التقرب بطاعات القلوب .
- والأربعون في آفات العلم .
- والحادي والأربعون في خمول الذكر واحفاء أعمال البر .

ويبدأ المؤلف كل فصل بقوله : اخوانى ، ويكرر نداء اخوانه في ثنايا
 الحديث .

في النصف الثاني من القرن الثالث

طلت الوصية بقوى الله تتصرد الوصايا كما نرى في وصية الموفق لأحد رجاله حين وله الصلاة وال الحرب والأحداث وأوصاه ، وقد قلنا : ان الوصية تجمع بين السياسة والمجتمع والدين ، وترد الوصايا الدينية في المقدمة وفي ثنايا الوصية ، وقد بدأ الوصية بقوى الله في السر والعلانية ، واستشهد بأية قرآنية كريمة . يقول في مطلع الوصية :

« أمره بقوى الله وطاعته وخشيته ومرقبته في سره وعلاناته وظاهر أمره وباطنه ، والعمل بما أمر الله به ، والانتهاء مما نهى عنه فيما وافقه وخالقه وأرضاه وأسخطه ، فإنه من يتق الله يقه ، ومن يعتصم به يهدى ، ومن يطعه يتوله ويكتبه . ان الله مع الذين انقوا والذين هم محسنون » .

ويستمر في الوصية بهذه المعاني المعروفة ، ويأمره بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام فيقول : « وأمره أن يشعر قلبه خيفة الله وهبته والتقويض إليه والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عز وجل له إماما ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مثلا ، فان فيهما دلالة وتبيانا وضياء ونورا وشفاء لما في الصدور » .

ويخص الصلاة لأنها عماد الدين فيقول : « وأمره أن يكون أول ما يعني به ويؤثره اقامة الصلاة لمواقيتها باتمام ركوعها وسجودها ، وأداء فرض الله فيها اذ كانت عماد الدين وأفضل ما تقرب به المؤمنون ، وكان من أخصاعها وقصر في واجبها أشد تضييعا لما سواها من حقوق الله عز وجل وفرائضه ودينه وشرائعه ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » .

ويوصيه كذلك بتحري الصواب في أحكامه ، واليقظة في تطبيق الحدود باتباع الكتاب أو السنة أو الاجماع ، وهنا ينص على أن الاجماع مصدر من مصادر التشريع الإسلامي . يقول : « وأمره أن تكون أحكامه فيما ينفرد

بالنظر فيه واقامته من الحدود وما أشبهها بما يجب لله عليه في ذلك من اتباع محكم تنزيل أو مأثور سنة أو رأي يتافق عليه نبيل محسن ومن يليه من الفقهاء وذوى المعرفة » (١) .

ونشطت الوصايا الصوفية في القرن الثالث الهجري ، وستتحدث عن وصايا الصوفيين في القرنين الثالث والرابع معاً إن شاء الله .

فی القرن الرابع الهجري

لم يعد الخلفاء يفتحون صدورهم لوصايا العلماء والزاهدين ، وقللت الوصايا الموجهة الى كبار رجال الدولة ، ولكن لا نعدم أمثل هذه الوصايا ، ومن أشهرها وصية أبي الحسن المأوردي لأحد الوزراء يوصيه بمراقبة الله في معاملته للرعية ، وتمثلت الوصايا السياسية والاجتماعية بالوصايا الدينية لاتصال الدين بأمور الحياة جميعها .

بدأ المأوردي بوصية الوزير بمراقبة الله تعالى في خلوته ، وبمراقبة السلطان أيضاً وجعل في هذا سعادة العاجلة والأجلة ، ولم ينس تقديم حق الله تعالى على حق السلطان اذا تعارضاً فقال : « اجعل أيها الوزير الله تعالى على سرك رقيباً يلاحظك من زيف في حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيباً يكشفك عن تقصير في أمره ، ليس لم دينك في حقوق الله تعالى ، و وسلم دنياك في حقوق سلطانك فتسعد في اجلتك وأجلتك ، فإن تنافى اجتماعهما لك فقدم حق الله تعالى على حق الملك ، فلا طاعة لخلق في معصية الخالق ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب دنياه أضر باخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فأثروا ما يبغى على ما يفني . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضي الناس » (١) .

وكان معظم الوصايا الدينية ترد في ثنايا العهود التي يكتبها الخلفاء للولاة والقواد وأرباب السيوف ، وجاءت هذه الوصايا متشابهة تدور حول تقوى الله والعمل بكتابه وسنة رسوله وأداء الفرائض والعدل بين الناس وما شابه ذلك ، وله كتاب صبح الأعشى للقلقشندى بكثير من هذه العهود ، ونكتفي هنا بعرض عهدين صدر أحدهما عن الخليفة الطائع الله ، وصدر الثاني عن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي .

صدر العهد الأول عن الخليفة الطائع الله بتقليد الشريف أبي الحسن محمد ابن الحسين بن موسى العلوى نقابة الطالبيين والاشراف على المساجد ، وبدأ العهد بالوصية بالتقوى فقال : « أمره بتقوه الله التي هي شعار المؤمنين وسيما الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين ، وأن يعتقدها سراً وجهراً ، ويعتمدها قوله وفعلاً ، فيأخذ بها ويعطي ويريش ويبرى ويأتى ويذر ويورث ويصدر ، فإنها السبب المتين والمعقل الحصين والزاد النافع يوم الحساب ، والسلوك المفضى إلى دار الثواب ، وقد حض الله أولياءه عليها ، وهداهم في محكم كتابه إليها فقال : (يأيها الذين آمنوا انقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) . »

ثم أمره بتلاوة القرآن والتمسك بأحكامه وتتنزيه نفسه عن الشبهات فقال : « وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً ، وتصفحه مداوماً ملزماً ، والرجوع إلى أحكامه فيما أحل وحرم ونقض وأبرم وأثاب وعاقب وباعد وقارب ، وأمره بتتنزيه نفسه بما تدعوه إليه الشهوات وتتطلع إليه التزوات ، وأن يضبطها ضبط الحكيم ، ويفتها كف الحليم » .

ثم يأمره بفقد أحوال الرعية ، وحياطة النسب الهاشمى من أن يدعى أحد ، وبمراجعة الصالحين والنظر في المظالم ، ويأمره بحماية الحاج ورعاية المساجد ، وما إلى ذلك من الأمور التي تمس الدين والمجتمع^(١) .

وكتب العهد أبو اسحاق الصابى ، وختم العهد بتاريخه حيث يقول : « وكتب في مستهل شعبان سنة ثمانين وثلاثمائة » . واضح أن العهد يهتم بالافتتان وجمال الأسلوب في المقام الأول ، وأن الوصية الدينية صارت تقليداً متشابهاً في كل عهد يصدر عن الخلفاء .

أما العهد الثاني الذي نعرضه هنا فعهد كتب عن الحاكم بأمر الله الفاطمى للحسين بن على بن النعمان ، بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وببلاد المغرب ، مضافاً إلى ذلك النظر في دور الضرب وأمر المساجد . في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٩ هـ . ويبدو في هذا العهد النظريات الشيعية حيث

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٥٦ إلى ص ٢٦٣ . بتصريف .

ينسبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والى على بن أبي طالب سيد الأوصياء كما يقولون ، ويتحدثون عن آبائهم الأئمة النجاء .

ويبدأ العهد ببيان المهام الموكولة إلى الحسين بن علي بن النعمان ، ثم يأمره بتقوى الله فيقول : « أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى في السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهاي ، وينفص عن الشبهات والشكوك والمهوى ، فان تقوى الله موئل ملئ وآل اليها حسين ، ومعقل ملء افتاتها أمين ، قال تبارك وتعالى : (يا لها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) » .

وتبدو العقيدة الشيعية في قوله : « وأن يجعل كتاب الله وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء ، والمأثور عن أبيينا على سيد الأوصياء ، وأباينا النجاء ، صلى الله على رسوله وعليهم قبلة لوجهه إليها يتوجه ، وعليها يكون المتجه » .

« نعم يأمره بالنظر في المظالم وفي الشهود الذين بهم يقطع في منافذ القضاء ، ويأمره برعاية اليتامي وأولي الخلل ، وأن يشارف أئمة المساجد ، ويرعى دار الخرب وعيار الذهب والفضة ، وما إلى ذلك . »

ويختتم الوصية بأهمية الوفاء بالعهد والاهتداء بهدى أمير المؤمنين فيقول :

« هذا ما عهد أمير المؤمنين فأوف بعهده تهتد بهديه وترشد برشده ، وهذا أول أمرها لك ، فاعمل بها وحاسب نفسك قبل حسابها ، ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنتظر ملائتها (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتترى كل نفس ما عملت لهم لا يظلمون) » .

وكتب في يوم الأحد لسبعين ليال بقين من صفر سنة ٢٨٩ هـ(١) .

ولا تخرج الوصايا المواردة في العهود في القرن الرابع الهجري عن هذه المعانى التي رأيناها في هذين العهدين .

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٩٢ إلى ص ٣٩٧ - بتصريف .

وصايا الشيعة

والشيعة وصاياهم الخاصة التي تواافق معتقداتهم ، ومعروف أن الشيعة يقدسون خلفاءهم ، ويزعمون أن هؤلاء الخلفاء ملهمون من الله ومنزهون عن الخطأ ، بل ويزعمون أنهم يعلمون الغيب ، ويوافقهم الخلفاء أنفسهم في هذه الادعاءات ، ويدعون دعوة الشيعة إلى افتقاء أثار الخلفاء وكان أفعالهم تشريعات ملزمة .

واستطاع الفاطميون إقامة دولة شيعية في المغرب العربي ، ثم استولوا على مصر ونقلوا إليها عاصمتهم في منتصف القرن الرابع الهجري ، وكان لهم دعوة يذيعون بين الناس تقدير خلفائهم ، ومن كبار هؤلاء الدعاة القاضي النعمان بن محمد ت ٣٦٢ هـ ، له (كتاب المجالس والمسائرات) وفيه وصايا القاضي النعمان لعامة الشعب) وفيه وصايا الخليفة المنصور وال الخليفة العز لدين الله الفاطمي .

ومن وصايا القاضي النعمان وصية للقضاة بـأداء الأمانة فيما قلدوه من أعمال ، وامتثال ما عهد به أمير المؤمنين عليه السلام (كما يقول) ويسمى الخليفة ولـى الله ، ويجعل ما يصيبونه من فضله ، ويجعل ثواب الله أثراً لطاعته . ومن قوله للقضاة :

« ان أحق مانظرتم فيه وعملتم له الوفاء بالعهد وأداء الأمانة فيما قلدتموه ، وامتثال ما عهد أمير المؤمنين عليه السلام اليكم فيه ، لما يجب الله ولـه عليكم في ذلك ، ولا أقل من أن تنتظروا فيما تدوم لكم به النعمة ، وأن تقدروا في ذلك بما من تشاهدونه من عوام الناس من ضرائب وصائرات وخياط وأمثالهم من الصناع ، فقد ترون أن أحدهم يسلم اليه العمل يساوى المال العظيم يعمله بالأجر التافه اليسير ، ولا يشهد به عليه ، ولا يتوثق فيه منه ، وقد يكون فقيراً أو غيره .

وأنتم تصيرون من فضل ولـى الله ما ان استدمنتـوه بـحفظ ما استحفظـكم دام لكم مع حسن الأحدثـة فيكم ورجاء الزيادة لكم وما ترجون من ثواب ربكم ، فمن سمع من أولياء الله مثل ما قدـمت ذكره فلينزله على مـنزلـته ،

ولا يذهب به الى حيث ذهب من نطق الكتاب بذمه ، وبين الله عليه فساد ماتوهمه وذهب اليه ، والله يهدى من تمسك بحبل أوليائه الى طاعته وطاعتهم ، والعمل بما يرضيه ويرضيهم قوله وعملاً ونيةً موافقة للصواب ان شاء الله تعالى «(١)» .

ويردد الخلفاء أنفسهم هذه المعانى ، ويذعن المعز لدين الله الفاطمى أن الخير كله فى الاقتداء بخلافهم ، وأن يفعلوا ما يؤمرون به ويتجنبوا ما ينهاون عنه ، ويقول :

« ان الخليفة المنصور أوصاه بذلك عند احتضاره . ومن قوله :

« يكفيكم من وصايانا اليكم أنا نأمركم أن تقتدوا بنا في جميع الأمور كلها ، ما رأيتمونا نحبه ونفعله ونأمر به فعلتموه وأمرتم به ، وما رأيتمونا نكرهه وتجنبه كرهتموه وتجنبتموه ، ففيما واثة لكم خير أسوة حسنة .

والله انها وصية المنصور عليه السلام وقد احتضر ، قال لى : انتى أجمع لك الوصايا كلها في كلمة واحدة ، فانظر ، فما كنت رأيتني افعله فافعله ، وما كنت رأيتني تركته فاتركه ، واصنع بعد وفاتي ما كنت رأيتني اصنع في حياتى ، فنعم السلف أنا لك » (٢) .

وهناك وصايا دينية أخرى لا تدور حول تقدير الخلفاء ، وإنما تدور حول أوامر ونواه تتصل بالدين ، ومن ذلك وصية المنصور للمعز لدين الله الفاطمى ينهاه عن زيارة قبره حيث يقول :

« دع عنك ملازمة قبرى والاختلاف اليه ، فان ذلك يبعث الحزن ولا يؤدى الى غاية من الحزن ، وإنما يفعله الجهال من الرجال ، فان لم يكن لك من ذلك بد فالوقفة بعد المدة للترحم ، ثم تنصرف بسرعة ، ومن عرف مصير الأرواح لم يلتقط الى محل الأبدان » (٣) .

(١) كتاب المجالس والمسايرات ص ٥٣ - القاضى النعمان بن محمد - المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٢١ .

وصايا الصوفيين

من المعروف أن اصطلاح التصوف لم يظهر إلا في أواخر القرن الثاني الهجري أو بعد سنة مائة وثمانين ، أما قبل ذلك فكان هناك الزهد . وكانت هناك وصايا الزاهدين ، ومن أشهر هؤلاء الزاهدين أبو العتاهية الذي برب في عهد الرشيد ، وأيضاً إبراهيم بن أدهم وقد اشتهر أمره في عهد المنصور ثم المهدى ، وقد أوردنا لهما فيما مضى بعض الوصايا .

ونرى في وصايا إبراهيم بن أدهم ملامح تشبه وصايا الصوفية ، ولا نستطيع أن نقول : ان التصوف عرف منذ منتصف القرن الثاني ، ولكننا نقول : ان المعانى التي رددتها المتصوفون بدأت تجرى على بعض الألسن منذ منتصف القرن الثاني الهجرى ، وقد أورد القشيري اسم إبراهيم بن أدهم في «رسالة القشيرية» ضمن مشاهير المتصوفين ، ولكننا كما قلنا : لا نعدم ضمئهم ، وإنما نرى في أقواله ملامح من ملامح المتصوفين كما في وصيته لرجل في الطواف :

«اعلم أنك لا تزال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

- أولاها : تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة .
- والثانية : تغلق باب العز وتفتح باب الذل .
- والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد .
- والرابعة : تغلق باب النوم وتفتح باب السهر .
- والخامسة : تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر .
- والسادسة : تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت «(١) .

فاغلاق باب العز وفتح باب الذل ، واغلاق باب النوم وفتح باب السهر شبيه بما رددته الصوفيون بعد ذلك .

وفي القرن الثالث الهجرى ازدهر التصوف وظهر كبار المتصوفين واتسعت نظرياتهم التى اتسم بعضها بالاعتدال ، واتسم بعضها بالتطرف ، وسنعرض هنا بعض وصايا المتصوفة ، ونبداً بعرض الوصايا التى صدرت عن متصوفة قضوا معظم حياتهم فى النصف الأول من القرن الثالث ، ثم نعرض وصايا المتصوفة الذين قضوا حياتهم فى النصف الثاني من القرن الثالث .

والحقيقة اننا لا نستطيع أن نجزم بالسنة التى قيلت فيها هذه الوصايا فكثير من هذه الوصايا وردت فى كتب التراث وفي كتب التصوف منسوبة إلى أصحابها غير محددة للسنة التى قيلت فيها ، وكثير من هؤلاء المتصوفين عاشوا فى النصف الأول وفي النصف الثاني ، كما أن بعض هؤلاء المتصوفين عاشوا فى القرنين الثالث والرابع .

ونستطيع أن نقول : إن كتاباً ألفت فى النصف الأول من القرن الثالث تدعو إلى المبادئ التي يقرها الصوفيون ، وقد تحدثنا منذ قليل عن كتاب الوصايا الذى ألفه الحارث بن أسد المحاسبي أحد المتصوفين والم توفى سنة ٢٤٣ هـ .

وخاص بعض المتصوفة مشكلات عصرهم ، ومن هؤلاء أبو السرى منصور بن عمار ت سنة ٢٢٥ هـ وعاصر الخليفة المؤمن المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وكانت مسألة خلق القرآن أبرز المسائل العقائدية التي ثارت في عصر المؤمن ، فقد عذب العلماء الذين رفضوا القول بخلق القرآن ، وقد كتب منصور ابن عمار إلى بشر المرسي يوصيه بعدم الخوض في هذه المسألة . حيث يقول :

« أما بعد ، عافانا الله وأياك من كل فتنه ، فإن يفعل فأعظم بها من نعمة ، ولا فهى الهلكة ، أعلم أن الكلام في القرآن بدعة اشتدرك فيها المسائل والمجيب ، فتعاطى المسائل ماليس له ، وتتكلف المجيب ماليس عليه ، والله تعالى الخالق ، وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله ، وانته إلى اسمائه التي سماه الله بها تكون من المهددين ولا تتبع في القرآن من قبلك اسماء تكون من الضالين ، وذر الذين يلحدون في اسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون » (١) .

ومفهوم هذه الوصية أنه يرفض الخوض في هذه المسألة ، ولكن عبارة : « والله تعالى الخالق وما دون الله مخلوق » هذه العبارة قد توهم القول بأن القرآن مخلوق ، ولكنها يردفها بقوله : « القرآن كلام الله » . وقد يفهم منها أن القرآن غير مخلوق ، لأن الكلام صفة من صفات الله ، والله قديم فصفاته قديمة ، ولكن لا نرى أنه يريد الخوض في هذه المسألة ، وإنما يورد حقائق مسلمة لا يماري فيها مؤمن بالله ، ويهدف منصور بن عمار إلى الاقتصار على هذه الحقائق ، وتجنب مسوهاها مما يتثير خلافات لا طائل وراءها .

وكثير من وصايا المتصوفين في هذه الفترة تتنسم بالاعتدال وتدعى إلى التمسك بأهداب الدين في وضوح واعتدال ، ومن أمثلة ذلك وصية أبي على أحمد بن محمد بن عاصم الأنطاكي أذ يقول : « اذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك » (١) .

ويوصي أبو محمد عبد الله بن خبيق بأن يكون هم الإنسان في الآخرة ، ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا فيقول : « لا تغتم إلا من شيء يضرك غدا ، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غدا » (٢) .

ويؤكد بعض الصوفيين أنه لا تصوف إلا في حدود التمسك بأوامر الدين وحدوده ، يقول أبو ميزيد : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تفتروا به حتى تنتظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود » (٣) .

واستمرت وصايا الصوفيين بالزهد كما في قول أبي زكريا يحيى بن معاذ الرازى ، ت ٢٥٨ هـ . « تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك » (٤) .

ومما أوصى به الصوفيون تجنب الناس ، وأسرفوا في ذلك حتى أوصى

(١) الرسالة القشيرية ص ١٨ .

(٢) الصفحة نفسها .

(٣) تلبيس أبليس ص ١٦٧ .

(٤) الرسالة القشيرية ، ص ١٦ .

السرى السقطى ت ٢٥٧ . بعدم مجالسة الأخيار حتى لا يشغلوا جليسهم عن الله ، ويقول الجنيد : « كنت أعود السرى السقطى ، فدخلت عليه وهو يوجد بنفسه فبكى ، وسقط من دموعي على خده ، ففتح عينيه ونظر إلى ، فقلت له : أوصنى ، فقال : لا تصحب الأشرار ، ولا تشغل عن الله بمحالسة الأخيار » (١) .

وأحيانا يلجهنون إلى المبالغات والعبارات غير الواضحة ، ويوصى أبو محمد عبد الله بن حنبل صديقه فتح بن شخرف ، فيوصيه بالنظر إلى عينه ولسانه وقلبه وهواء في عبارة واضحة ، ولكنه يختم وصيته بأن يجعل الرماد على رأسه حيث يقول : « ياخرا سانى ، إنما هي أربع لغير : عينك ولسانك وقلبك وهواك . فانظر عينك ولا تنظر بها إلى مالا يحل .

وانظر لسانك لا تقبل به شيئا يعلم الله تعالى خلافه من قلبك .
وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين .
وانظر هواك لا تهوى به شيئا من الشر .

فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال فاجعل الرماد على رأسك فقد شفيت » (٢) .

جعل الرماد على الرأس مبالغة غير مستساغة ، وقد يقال : إنها كناية ، ونقول : إنها كناية غير مستساغة .

ومع تقدم الأيام زادت المبالغات وزاد الغموض والتعقيد ، فأبو سعيد الخراز أحمد بن عيسى يوصى من يدخل في الصلاة بأن ينسى الدنيا والآخرة فيقول : « اذا رفعت يديك في التكبير فلا يكن في قلبك الا الكبراء ، ولا يكن عندك في وقت التكبير شيء اكبر من الله تعالى حتى تنسى الدنيا والآخرة في كبرياته » (٣) .

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٩١ - أحمد بن على الخطيب البغدادي - دار

الكتب العلمية .

(٢) الرسالة الـ قشيرية ص ١٨ .

(٣) اللمع ص ٢٠٥ - ٢٠٦ - السراج الطوس - دار الكتب الحديثة - بمصر .

ويوصى أبو سعيد الخراز مريداً فيوصي به بمخالفة الناس ، فإذا ضحكوا بهكى ، وإذا شبعوا جاع ، وما إلى ذلك من المبالغات . وفي ذلك يقول :

خالص أصحابك مخالصة ، وخالف أهل الدنيا مخالطة ، شاهدهم بظاهره وخالفهم بفعلك ، ودينك لا تثبت ، إن ضحكوا فابك ، وإن فرحوا فاحزن ، وإن استراحوا فجد ، وإن شبعوا فتجوع ، وإن ذكروا الدنيا فاذكر الآخرة ، وأصبر على قلة الكلام والنظر والحركة والطعام والشراب واللباس ، حتى يسكنك الله من الفردوس حيث يشاء برحمته (١) .

وكانت وصايا الصوفيين تهاجم الغنى وتشيد بالفقر ، ومن مبادئ الصوفية ترك العمل لأنه ضد التوكل ، يقول أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبرى : « اصحاب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل ، فإن التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء شرف » (٢) .

وفي منتصف القرن الثالث الهجرى ظهر مذهب الملامية ، وتزعم هذا المذهب أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ . ويقول عنه أبو القاسم القشيرى : « منه انتشر مذهب الملامية » (٣) .

ويقول محققاً الرسالة (د. عبد الحليم محمود ، د. محمود الشريفى) : « الملامية هم الذين يسترون صلاحهم بأمور يتداولها العوام ليست بمخالفات ولا معا�ص مبالغة في الخفاء عن الشهرة » (٤) .

ويفهم من هذا أنهم يأتون بأعمال يظنها عامة الناس معا�ص ولكنها ليست بمعا�ص ، ويفيد هذا وصية زعيمهم أبي صالح حمدون القصار الذي يقول : « إذا رأيت سكرنا فتمايل لثلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك » (٥) .

(١) اللمع ص ٣٣٤ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٢٢ مطبعة حسان .

(٣) المرجع نفسه ص ١٨ مطبعة محمد على صبيح .

(٤) المرجع نفسه ص ١٨ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٨ .

ويقول محقق الرسالة : « المراد ترك الكبر على العصاة ورحمتهم ، وأفهم من هذا العبارة الصحيحة « اذا رأيت سكرانا » .

وسواء أكانت العبارة : اذا رأيت سكرانا ، أو : اذا رأيت سكرنا فتمايل . فاننا لا نرى في هذه العبارة الا شطحا وخروجا على حد الاعتدال . فالذين لا يحث على التظاهر بالمعاصي لتجنب الشهرة ، ولو كان المراد السكر بحب الله لما كان هناك محل لقوله : « لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك » . فمفهوم العبارة السكوت وعدم الاعتراض لأنه ابتلاء من الله فهم مسيرون بأمر الله .

ويوافق هذه الوصية وصية أبي صالح لعبد الله بن منازل حين قال له : أوصني ، فقال أبو صالح : « لا تفش على أحد ماتحب أن يكون مستورا . منك ، فمبدأ الستر وعدم الاعتراض هو مذهب الملامية .

ويزعم رويم بن أحمد أحد كبار المتصوفة أن التصوف لا يكون الا ببذل الروح ولا يطيقه جميع الناس ، ويشير إلى أن عامة الناس يرون في التصوف ترهات وأباطيل ، وجاء في الرسالة القشيرية : « سأله أبو عبد الله بن خفيف أبا محمد رويم بن أحمد فقال : أوصني ، فقال : ما هذا الأمر الا ببذل الروح ، فان أمكنك الدخول فيه مع هذا ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية » (١) .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ظهر الحلاج وعرف بشطحاته الصوفية ، وقال بمبدأ وحدة الوجود وبمبدأ الحلول ، وانتهى به الأمر إلى قتله وصلبه في أوائل القرن الرابع الهجري سنة ٣٠٩ هـ .

والحسين النوري يوصي بعدم الخروج عن حد علم الشرع فيقول : « من رأيته يدعى مع الله عن وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربه ، ومن رأيته يدعى حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه » (٢) .

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٠ .

(٢) تلبيس ابليس ص ١٦٨ عبد الرحمن بن الجوزي مطبعة النهضة .

ومن وصايا الخلاج التي تتضم معانى غامضة وشطحات متطرفة وصيته لأحد تلاميذه حيث يوصيه بضون قلبه عن التفكير في الله ، وضون لسانه عن ذكر الله ، ويعمل لذلك تعليلاً غامضاً فيقول : « يا ولدى ، صنْ قلبك عن فكره ، ولسانك عن ذكره ، واستعملهما بادامة شكره ، فان الفكرة في ذاته ، والخطرة في صفاتاته ، والنطق في اثباته . من الذنب العظيم والتكبر الكبير » (١) .

وجاءت بعض الوصايا الصوفية شعراً ، قال أبو بكر بن مسلم (من أصحاب الجنيد) :

ان كان حقاً فاستعد خصالاً واعجل خروجك للصلوة خيالاً لا ترجى عند القريب وصالاً عون المرید يسدد العملاً (٢)	« يامن يريد بزعمه الاخملاً ترك التذكرة وال المجالس كلها بل كن بها حياً كأنك ميت وأنس بربك واعلم من بأنه
--	--

واستمرت الدعاوى المتطرفة في القرن الرابع الهجري ، ووُجدت إلى جانبها وصايا معتدلة تحث على العمل للدنيا وعدم اغفال الآخرة .

ومن الوصايا التي تهتم بالألفاظ الغامضة التي لا تعطى معانى محددة ، ولا تنفق مع مفاهيم الإسلام الواضحة الصريحة قول أبي بكر محمد بن موسى الفرغانى الواسطى : « من ذكر افترى ، ومن صبر اجترأ ، واياك أن تلاحظ حبيباً أو كليماً أو خليلاً وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً ، فقيل له : أولاً أصلى عليهم ؟ . قال حل عليها بلا وقار ، ولا تجعل لها في قلبك مقدار » (٣) .

وظلت الدعوة إلى تجنب الناس كما في قول أبي بكر الحسين بن علي ابن يزدانيار :

(١) أخبار الحلاج ص ٢٩ - ٣٠ - على بن أنجب السلمي .

(٢) حلية الأولياء ج ١٠ ص ٣٠٩ .

(٣) تلبيس أبليس ص ١٦٩ عبد الرحمن بن الجوزي مطبعة النهضة بمصر .

ومكنا جاء : (ولا تجعل لها في قلبك مقدار) وال الصحيح مقداراً .

« اياك ان تطمع في الانس بالله وانت تحب الانس بالناس .
واياك ان تطمع في حب الله وانت تحب الفضول .
واياك ان تطمع في المنزلة عند الله وانت تحب المنزلة عند الناس » (١) .

ودعوا الى عدم الاكتئاث بالنفس ، وتسليمها الى الله يفعل بها ما يشاء .
يقول أبو الحسين بن دار بن الحسين الشيرازى : « لا تخاصم لنفسك فانها
ليست لك دعها لمالكها يفعل بها ما يريد » (٢) .

وتحدثوا عن حالة المكافحة ورؤيه الله ، يقول أبو عثمان سعيد بن سلام
المغربى : « ليكن تدبرك في الخلق ، تدبر عبرة ، وتدبرك في نفسك تدبر
موعظة ، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة ومكافحة » (٣) .

ويقول أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصر ابازى : « اذا بدا لك شيء
من بوادي الحق فلا تلتفت معها الى جنة ولا الى نار ، فاذا رجعت عن تلك
الحال فعظم ماعظمه الله » (٤) .

وهنا يزعم الموصى أن الانسان ينتقل الى حالة يرى فيها الحق ويتجدد
من انسانيته ولا يجب عليه أن يعظم ماعظمه الله .

ولم تكن جميع الوصايا على هذا النطح الحالف بالشطحات الصوفية ،
فهناك وصايا صوفية تأمر بتقوى الله والاخلاص له في حدود معقولة وأوامر
مفهومه ، وأبو بكر محمد بن علي الكتاني يوصي بالعمل فيقول : « اذا سالت
الله تعالى التوفيق فابدأ العمل ، وكن في الدنيا ببندك ، وفي الآخرة
بقلبك » (٥) .

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٨ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٩ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٩٢ مطبعة حسان .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٣٠ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٦٦ مطبعة حسان .

الباب الثاني
الخصائص الفنية
لأدب الوصايا

الموضوعات والغواصات المؤثرة

جاءت الوصايا نابعة من ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والدينية ، والنظر في هذه الوصايا يستطيع أن يتعرف على كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة ، ويرى بعض هذه الجوانب امتداداً طبيعياً لظروف الحياة العربية والانسانية ، ويرى بعضاً منها طارئاً على الحياة العربية كالزندقة التي طرأت على الحياة العباسية بعد أن سرت عدواها من الفرس الذين اندمجاً في المجتمع العربي ودخلوا في الإسلام حقيقة أو ظاهراً ، وحملوا معهم كثيراً من تقاليدهم .

ويلاحظ الباحث تشابه الموضوعات التي طرقتها الوصايا طيلة الفترة التي بحثناها وذلك نظراً لتشابه ظروف الحياة في الدولة العربية ، ويلاحظ أن الشابه كان أكثر بين وصايا القرنين الثاني والثالث ، وفي القرن الرابع جدت بعض الظروف واختلفت طريقة العرض في الوصايا .

تأثرت الوصايا بظروف قيام الدولة العباسية منذ الاعداد السرى لقيام هذه الدولة ، فقد بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الاعداد لقيام الحكم العباسي ، واختار رجال الدعوة وأوصاهم ، ودللت الوصية على تفكير وانعام نظر ، فقد أوصى رجاله بأن يبيتوا الدعوة في خراسان حيث العدد الكبير والجلد الظاهر والقلوب الفارغة التي لم تتقسمها الأهواء ، وحيث السخط الذي يعم النفوس لاضطهاد الأمويين لهم ، ودرس القائد سائر البلدان وعلل لاستبعادها ، فالكوفة شيعة على ، والبصرة عثمانية ، وأهل الشام سفيانيون مروانيون ، ومكة والمدينة غلب عليها أبو بكر وعمر .

وأوصى أبو مسلم الخراساني جنوده بذكر الضغائن وتأثيرتها في النفوس ، وعمل الخليفة العباسيون على تثبيت دعائم الأسرة العباسية ، ومن المتوقع أن يعمل كل خليفة على تنصيب ابنه ولدعا للعهد من بعده ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فأوصى المنصور للمهدي بولالية العهد وأليس وصيته ثواباً دينياً فحضر الناس على الرفاء بالعهد وعدم التفرق ، واتبع الخليفة هذه

السنة غير أنهم وقعوا في خطأ عندما صار الخليفة يوصى لأبنائه من بعده واحداً فواحداً ، فالمهدى يوصى لموسى المادى ثم للرشيد ، والرشيد يوصى للأمين ثم الأمون ثم المعتصم ، وأوصى الخليفة المتوكل لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، وأدت هذه الخطوة إلى اثارة النزاعات بل وتشعل الحروب بين الأخوة حيث حاول الخليفة خلع أخيه واستبدال ابنه به .

ومن البين أن يوصى الخلفاء أبناءهم وصايا تتعلق بالسياسة وال الحرب ، وأخرى تتعلق بتقوى الله والتزام العدل بين الرعية ، ومجالسة العلماء ، وأخرى تتعلق بماله ويكتفى أن ننظر إلى وصية المنصور للمهدى حين عزم على المسير إلى مكة ، وكان ذلك في السنة الأخيرة من حياته ، فقد أوصاه وصية (تتعلق بالخارج وأرذاق الجنود ومصلحة التغور) ، وأوصاه بأهل بيته ومواليه وبأهل خراسان على وجه الخصوص ، كما أوصاه بعدم ادخال النساء في مشورته (١) .

وأوصى المنصور أبنه بتقوى الله ، وتجنب سفك الدم الحرام ، والإيقاع بالمحدين والمارقين ، ثم الحكم بالعدل وصلة الرحم ، وأيضاً شحن التغور وتأمين السبيل ، وعدم التبذير ، وحسن الظن بالله وسوء الظن بالناس (٢) .

واشتغلت الحروب والثورات في عهد العباسيين ، وأرسل الخلفاء كبار الولاية وكبار القادة لاصلاح أمور الولايات والاخماد ثورات الثنائيين ، وأوصى الخلفاء وأوصى الوزراء ، ورسموا قواعد السياسة وقواعد الحرب ، كما نرى في وصية المهدى للربيع بن أبي الجهم حين ولاد فارس ، وكما نرى في وصية الرشيد لهرشمة بن أعين ، وعندما خرج على بن ماهان لحرب المأمون لخالقه آخاه الأمين أوصاه الخليفة الأمين ، وأوصته السيدة زبيدة ، وأوصى المأمون آخاه المعتصم بمحاربة الخرمية حتى يقضي عليهم ، وأوصى عبد الله بن طاهر جنوده حينما خرج لحرب الخوارج في عهد المأمون ، ومن أبرز الوصايا في هذا المجال وصية الموفق لأحد رجاله وقد ولد الصلاة وال الحرب والأحداث ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٥ .

وكثر ظلم الخلفاء وكثير العزل والمصادرة ، ورأينا بعض الوزراء يوجه بالمحذر من الملوك ، (وأوصى أبو عبيد كاتب المهدى بالحرصن على السكوت) (١) .

وكان هناك صراعات بين العناصر العربية ، وفي وصية ابراهيم ابن محمد يقول لأبي مسلم الخراسانى : « انظر هذا الحى من اليمن فالزمام ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فهم العدو القريب الدار » (٢) .

وكان الخلفاء العباسيون يختصون الخراسانيين بالولدة حيث قامت الدولة العباسية على اكتافهم وكثرت وصايات الخلفاء بخراسان ، بل انهم كانوا يتباذلون عن أخطائهم فى بعض الأحيان فمحمد بن على بن عبد الله ابن عباس يوصى رجال الدعوة بالتزام أهل خراسان ، وأوصى المنصور ابنه المهدى بأهل خراسان ، ووصفهم بأنهم أنصاره وشيعته ، وثار بعض الخراسانيين فى عهد الخليفة المهدى فاغتفر زلة أهل خراسان وأرسل ابنه موسى واليا على جرجان وأوصاه بأهل خراسان خيرا :

وكشفت وصايات الشيعة عن معتقداتهم ، وكان العلويون يطمعون أن تكون الخلافة لهم فهم الذين قاوموا الدولة الأموية منذ قيامها على يد معاوية ابن أبي سفيان ، ثم ان الدعوة فى خراسان كانوا يدعون لآل البيت بدون أن يحددو شخصيات معينة ، والعلويون أبرز آل البيت في تلك الفترة ، ولكنهم فوجئوا باستيلاء العباسيين على الخلافة ، وتوجس العباسيون من يبني عمومتهم شرًا فعاملوهم معاملة سيئة ، وقبض أبو مسلم الخراسانى على عبد الله بن معاوية وزج به فى غياب السجون ، وكتب عبد الله الى أبي مسلم يوصيه بتقوى الله والعدل ، وأن يعطي من نفسه ما يجب أن يعطى ، وأوصاه بأن يرعى حرمة من كانوا وسيلته الى الوصول الى ما وصل اليه :

ولما ولى المؤمن الخليفة أحسن الى العلويين أبناء عمومته ، واختار زعيمهم على بن موسى الرضا وأوصى له بالخلافة من بعده ، كما أوصى

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٢ .

(٢) تاريخ الكامل ج ٥ ص ٣٤٨ .

الملعون أخاه المعتصم بأن يحسن معاملة أولاد على رضى الله عنه ، ويصلهم
ويتجاوز عن مسيئهم .

وظهرت في وصايات الشيعة نظرياتهم وأراءهم العقائدية ، وكان الشيعة
يقدسون زعماءهم ويضفون عليهم صفات لا تتفق ومبادئ الإسلام ويرفعونهم
 فوق مستوى البشر ، ولما قامت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر في القرن
 الرابع بالغ الشيعة في تقديس خلفاء هذه الدولة ، وادعى الخلفاء الفاطميين
 أنهم يتمتعون بهذه الزيارات التي ينسبها أتباعهم إليهم ، والناظر في (كتاب
 المجالس والمسائرات) للقاضي النعمان بن محمد يجد كثيرا من الوصايا التي
 تقipن بهذه العتقدات الشيعية .

وصورت الوصايا جوانب عديدة من النواحي الاجتماعية في تلك الفترة ،
 وكان مجالس الخلفاء تقليد يجب مراعاتها ، وكان للخلفاء أخلاقهم المرهوبة
 وسيططتهم المطلقة ، وطرقت الوصايا هذه المجالس ، فأوصى الحكام بمرااعة
 التقليد وأوصوا بالحذر في معاملة الخلفاء وعدم الركون إليهم ، ولا بن المفع
 كثير من الوصايا في هذا المجال . ومن قوله : « ينبغي لمن خدم السلطان
 إلا يفتر به إذا رضى ، ولا يتغير له إذا سخط ، ولا يستثقل ماحمله ولا يلحف
 في مسألته » (١) .

واهتم الخليفة وكبار الدولة بتربية ابنائهم واحضروا لهم كبار المؤدبين
 وأوصوهم بحسن رعايتهم وتأديبهم وعدم التهاون معهم ، ومن أجمع الوصايا
 وصية الرشيد للأحرmer النجوى معلم ابنه الأمين حيث أوصاه وصية قدم لها
 بأنه سلم إليه مهجة نفسه وثمرة قلبه ، وأطلق يده في تأديبها ، وأوصاه بأن
 يعلمه أدب السلوك ومعاملة الناس والمحافظة على مظهره وعدم التهاون
 في تأديبه .

وكان كبار العلوين أيضا يهتمون بتآديب ابنائهم وتعليمهم ، وكانوا
 يوصونهم لينشئوا جامعين بين العلم والأدب ، وأوصى عبد الله بن معاوية

ابنه بعفة اللسان وقلة الكلام وطول الفكر ومشورة العقلاه وعدم الاستبداد
بالرأى .

وهناك كثير من الوصايا التي تصور الآداب الاجتماعية ، وهي مستمدۃ
من الوصايا القرآنية أحياناً ، وأحياناً أخرى تستمد من الذوق السليم والعقل
الوازعى ، وهي وصايا تساير الأزمان وتلائم المجتمعات ، ومن اللون الأول
قلل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : « لا تفسدن تالد احسانك بطارف امتنانك
واقتصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك »^(١) . وهي مستمدۃ من قوله
تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى »^(٢) .

ومن اللون الثاني قول ابن المعتز : « لا تسرع الى أرفع موضع في
المجلس ، فالموضع الذي ترفع اليه خير من الموضع الذي تحط منه ، لا تذكر
الميت بسوء ف تكون الأرض أكتم عليه منك ، ينبغي للعاقل أن يداري زمامه
مداراة السابع للماء الجاري »^(٢) .

ومن الموضوعات البارزة التي طرقتها الوصايا نظريات الزاهدين
والمتصوفين ، فقد أكثر الزهاد من الوصايا ، وبرز ابراهيم بن أدهم في عهد
المهدى ، وبرز أبو العتاهية في عهد الرشيد ، وجاءت وصايا هؤلاء حاثة
على التخلّى عن التهالك على الدنيا ، والحرص على نعيم الجنة ، وتبعه بعض
الشعراء حتى ان أبا نواس دعا الى الزهد في اواخر حياته .

وجاءت بعض وصايا الزاهدين حاوية بذور التصوف كما رأينا في
عرضنا السابق ، ثم ظهر التصوف في أواخر القرن الثاني الهجري ، وأكثر
هؤلاء المتصوفة من وصاياتهم ، وجاءت بعض هذه الوصايا معتدلة مسايرة
للمبادئ الإسلامية الواضحة ، وجاءت بعض هذه الوصايا متطرفة تحمل
مبادئ غريبة كالبعد عن الناس حتى الأخيار منهم .

وعالجت الوصايا بعض المذاهب الطارئة على المجتمع العربي ، وأوصى

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٤٢ .

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٥٦ .

الخلفاء والكُبراء بمقاومة الزنادقة وتتبعهم والقضاء عليهم ، وقرروا الفعل بالقول فقتل ابن المفعع وصالح بن عبد القدوس وبشار بن برد ويعقوب ابن الفضل وغيرهم ، وأوصى المهدى ابنه الهادى بتتبع الزنادقة وقتلهم ، وأوضح لابنه بعض المبادئ الهدامة التى يدعون إليها فى تستر وكيف يجتذبون الناس فى بادئ الأمر ثم يفسدون دينهم وأخلاقهم ، وأوصى الصليف المأمون أخاه المعتصم بمحاربة الخرمية وعدم التهاون فى قتالهم .

وكثرت الوصايا بالأشخاص ، والتصفح لكتب التاريخ والأدب يجد كثيرا من هذه الوصايا يكتبها الوزراء وكبار رجال الدولة موصيين ببعض أصدقائهم أو اتباعهم لقضاء مصلحة أو للالتحاق بوظيفة أو ما شابه ذلك ، وتتل هذه الوصايا على شیوع الوساطة وأن العدالة لم تكن مطلقة .

. ودارت بعض الوصايا حول موضوعات ثقافية تتعلق بالشعر والبلاغة والفصاحة . فبشر بن المعتدر يوصى الأديب بأن يختار ساعة نشاطه وفراغه ، ويوصيه بترك التنوع وتجنب الألفاظ العامية والسوقية ، ويوصيه أيضا بالاهتمام باللفظ والمعنى وبرعاية مقتضى الحال ، وأوصى أبو تمام تلميذه بالبحترى باختيار الوقت الذى تصفو فيه النفس وأنساب الأوقات وقت السحر ، وأوصاه بأن يختار لكل غرض ما يناسبه ، ففى الغزل يختار اللفظ الرشيق والمعنى الرقيق ، وفي المديح يظهر أيادى المدوح ومناقبه ، وعليه أن يتتجنب الألفاظ الرديئة وأن يتتجنب أوقات الضجر ، وكتب الجاحظ وصية عامة حيث فيها الكاتب على اختيار عنبر الكلام وصائب المعانى ورعاية مقتضى الحال .

وكتب ابراهيم بن المدبر وصية مطولة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة فأوصى باتخاذ البرهان فى الكتابة للأقناع ، واتباع الحق فيما يحاول الكاتب الأقناع به ، ودعا إلى التعلم على العلماء وقراءة كتب الحكماء وتصفح رسائل المتنميين ، ومراعاة مستوى العقول وأقدار المخاطبين ، والاهتمام باللفظ والمعنى معا ، وعرج ابن المدبر على القلم وحدد صفات العود وطريقة برى الفلم واختيار السكين .

وهناك موضوعات خاصة طرقتها الوصايا لا نستطيع أن نعدّها موضوعات إنسانية ، ولا نستطيع أن نقول : إنها وصايا صادرة عن عاطفة

صادقة وان الوصى يهدف الى تحقيقها وتحث الناس على اتباعها ، وانما هي وصايا صدرت في ظروف خاصة وفي موضوعات خاصة . تلك هي وصايا البخلاء .

كتب الجاحظ كتاب البخلاء في القرن الثالث ، وحفل هذا الكتاب بوصايا يهديها البخيل لابنه أو يعبر بها عن رأيه ، وفيها يدعو الوصى إلى الحرص على المال وجمعه بكل الطرق واستغلال الناس للاستحواذ على أموالهم ، ولم يكن الجاحظ يهدف إلى دعوة الناس إلى البخل ، وإنما قصد من وراء ذلك – كما وضح في مقدمة الكتاب – إلى ادخال السرور والنشاط على قلوب الناس بقراءة هذه الطرائف ، وكانت هناك دوافع نفسية أخرى دفعت الجاحظ إلى كتابة هذا الكتاب ، منها مهاجمة الشعوبية بنسبة معظم هذه الحكايات إلى الفرس والى أهل مرو على وجه الخصوص ، وكان يهدف أيضاً إلى اظهار تفوقه وبراعته بابداع هذا اللون الأدبي الجديد الذي لم يسبق إليه .

وفي القرن الرابع ظهرت وصايا شادة شبيهة بوصايا البخلاء التي كتبها الجاحظ ، تلك هي وصايا المكدين التي كتبها بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ، وكان هؤلاء المكدون يوصون بالتحايل وخداع الناس لاستغلالهم ، وكان بديع الزمان يهدف أيضاً إلى اظهار مقدرته الفنية وتفرده ، وجاءت هذه المقامات صورة فريدة في الأدب العربي في ذلك الوقت .

وفي القرن الرابع أيضاً ظهرت وصايا المتطفين ، وقد عرضنا نموذجاً منها كتبه أبو اسحاق على لسان أحد المتطفين يوصي أحد أتباعه ويوضح له الوسائل التي يجب أن يتبعها المتطفل للوصول إلى ما يريد ، وكتب الصابي هذه الوصية بابعاً من معن الدولة بن بويه .

ونحن لا ننكر أن هذه الوصايا صورت جانباً من جوانب المجتمع ، فلا يخنو مجتمع في أي زمان من هذه النماذج الشادة ، ولكننا نريد أن نقول : إنها لم تقصد إلى تقديم وصايا يصفى إليها الناس ويمثلون ماجاء فيها .

وكثير من هذه الوصايا طرقت الجوانب الدينية التي تمس علاقة الإنسان بربه أو بنفسه أو بمجتمعه ، وكان المجتمع العباسي قريباً عهد بالبعثة

المحمدية ، وكان الخلفاء العباسيون يحكمون باسم الاسلام وبحكم قرابتهم من النبي صلی الله عليه وسلم ، فكانوا يعلنون أنهم حماة الدين حتى ان المنصور يقول في الخطبة رادا على من أوصاه بالتقوى : « فان الحكم علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردو الأمر الى أهله توردوه موارده ، وتصدروره مصادره » (١) .

وتصف معظم الخلفاء العباسيين بالحلم أو تظاهروا بذلك ، فاتسعت صدورهم لقبول الوصايا الدينية ، ويرز علماء وفقهاء نالوا ثقة الخليفة ونالوا ثقة الناس ، ووثق كل خليفة ببعض العلماء فكانوا يدخلون على الخلفاء ويوصونهم بالتقوى ، بل ان الخلفاء كانوا يستيقنون الى هؤلاء العلماء ويرسلون اليهم اذا تأخر قدومهم عليهم ويطلبون وصيتهم ، وكان عمرو بن عبيد كثير الدخول على المنصور ، وكان صالح بن عبد الجليل كثير الدخول على المهدى ، وكان ابن السماعي كثير الدخول على الرشيد ، وكذلك كان أبو العتاية يدخل على الرشيد ويوصيه وصايا شعرية تحثه على الزهد وتذكره بأهوال القيامة ، وكان الرشيد يتاثر بهذه الوصايا ويبكي حتى تبتل لحيته .

وكانت وصايا هؤلاء العلماء والزهاد والشعراء تدور حول الحث على الطاعة وايثار الدار الباقية على الفانية ، وتصوير أهوال القبر والمحشر ، والبحث على العدل بين الرعية ، وشكر الله الذي أعطاه هذه السلطة .

وكان بعض الأئمة يكتبون وصايا مطولة الى الخلفاء تدور حول المعانى السالفة كما فعل الامام مالك حين كتب وصية الى الرشيد ، وكذلك أوصى الأئمة بعضهم بعضا فأوصى الامام مالك صديقه الليث بن سعد باتباع فتيا علماء المدينة ، وأوصى الامام مالك الشافعى بتقوى الله حتى لا تطفئ المعصية نور قلبه ، وكان العلماء والزهاد والصوفية يتواصون بالتقوى والعلم والعمل ، وأوصى أبو حنيفة ابراهيم بن أدهم بالاهتمام بالعلم الى جانب العبادة ، وأوصى ابراهيم بن أدهم بالعبادة والعمل الى جانب اهتمامه بالعلم ،

وأورد الجنيد وصية الشافعى أخاله فى الله ، وأوصى رجل احمد بن حنبل بالثبات وعدم الاستسلام للمؤمنون فى القول بخلق القرآن ولو مات فى سبيل ذلك شهيدا .

وكان الخلفاء أنفسهم يوصون الشعب بالتقى والاستقامة على طاعة الله وطاعة الخلفاء ، كما أوصوا الولاة بالاعتصام بحبل الله والعدل بين الرعية وطاعة الخليفة ، ولا تكاد تخلى وصية أو عهد من الوصايا الدينية .

وفى القرن الرابع صار كبار الكتاب يكتبون الوصايا عن الخلفاء موصين الولاة والرعية بالتزام طاعة الله وطاعة الخليفة كما فى وصية ابن الحميد لأبى عبد الله الطبرى(١) .

وقد يكتب الكاتب شامتا بشخص نكب كما فى وصية أبى بكر الخوارزمى لأبى اسحاق الحاجب(٢) ، وكانت العهود تكتب للولاة ولأرباب السيوف وتتضمن كثيرا من الوصايا الدينية كما فى العهد الذى كتبه أبو سحاق الصابى عن الخليفة المطيع لله الى الحسين بن موسى العلوى بتقلide المظالم بمدينة السلام(٣) .

وهناك وصايا عامة كتبها الحكماء غير موجهة الى شخص معين ، يهدفون من ورائها الى زرع الفضائل فى النفوس واصلاح ما فسد منها كما ذرى فى الوصية التى كتبها الجاحظ وأوصى فيها بالأنارة ومصارعة الغضب واتهام الشيطان والهوى(٤) .

(١) زهر الاداب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

(٢) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٧ .

(٣) صبح الاعشى ج ١٠ ص ٢٥٢ .

(٤) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٦٠ .

الأفكار والمعانى

نستطيع أن نقول : ان الوصايا فى الفترة التى نتحدث عنها طبعت بطابع دينى ، فجميع الوصايا سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو دينية ترتبط بالوصايا الدينية من قريب أو بعيد وعندما يوصى الخليفة أو أحد كبار رجال الدولة واليا أو قائداً أو عملاً يبدأ بالوصية بتقوى الله ، ثم يوصى بما يريد ، وكثيراً ما تناشر الأوامر الدينية فى ثنايا الوصايا على اختلاف انواعها ، والحقيقة أنه ليس هناك فارق قاطع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، فمعظم التقاليد السياسية والاجتماعية مستمدة من وصايا الدين الإسلامي .

وكان الخلفاء العباسيون حريصين على الظهور بمظهر المحافظين على الدين الإسلامي فقد كان أولئك الخلفاء يحكمون باسم الإسلام ، و كانوا أبناء عم النبي صلى الله عليه وسلم و كانوا يسيطرؤن على الشعب العربى ويكتسبون أحقيه للخلافة بهذه القرابة الوثيقه فلا عجب أن تكون وصاياتهم عاصمة بتقوى الله .

ولا يتعارض مع هذه الفكرة اقبال الأمين على اللهو ، فقد كانت هناك عوامل اجتماعية ونفسية وجهت الأمين هذه الوجهة ، وقد أوصى الأمين قائدته أحمد بن فريد فقال : « اياك والبغى فانه عقال النصر ، ولا تقدم رجلاً الا باستخاره ولا تشهر سيفاً الا بعد اعذار ، ومهما قدرت باللين فلا تتعده الى الخرق والشره الخ » (١) .

وهكذا كانت الأفكار الدينية مسيطرة على الوصايا طيلة هذه الفترة ، وال الخليفة المنصور يوصى ابنه المهدى فيقول : « واعلم أن الخليفة لا تصلحه الا التقوى » (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٤٠ .

وأوصى الرشيد قائد هرثمة بن أعين بالتقى وأن يجعل كتاب الله
اماما فى جميع ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند مشابهه
ويسائل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ويرده الى امامه
ليرييه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده (١) .

وفي القرن الثالث الهجرى نرى هذه المعانى الدينية مسيطرة على
الوصايا ، وفي وصية الخليفة المتوكى لأبنائه الثلاثة بولاية العهد يقول
المتوكى : « انه جعل الى محمد المنتصر بالله ابن جعفر الامام المتوكى على
الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين فى حياته ، والخلافة عليهم من بعده ،
وأمره بتقوى الله التى هي عصمة من اعتصم بها ، ونجاة من لجا اليها ، وعز
من اقتصر عليها » (٢) .

وفي القرن الرابع نرى أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف يكتب عن
ال الخليفة الطائع لله الى عضد الدولة : « استدم النعمة عليك بالتقى لله
تعالى ، وبحسن الطاعة لأمير المؤمنين ، فانهما جنتاك وعدتاك وذرعيتك
المشفعتان عند الله تعالى فى أولاك وأخراك ، وأحسن كما أحسن الله اليك » (٣) .

ولما كان الخلفاء العباسيون يحكمون باسم الدين ويرون لأنفسهم الأحقية
بالخلافة كانوا يعلنون أن الخليفة أمر توقيفى من الله وأنها متوارثة عن النبي
عليه السلام ، وأن العباس أولى الناس بوراثة الخليفة ، فهو عم النبي ووارثه
الوحيد من الرجال عند موته ، ويقول ابراهيم الامام فى وصيته لأبى مسلم
الخراسانى : « يا أبا عبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت فاحفظ
وصيتي » (٤) .

ويقول السفاح فى أول خطبة له فى الكوفة : « ان الله من عليكم بامام
منه العدالة وأعطاه حسن الابانة ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٧٦ .

(٣) ينمية الدهر ج ٢ ص ٣١٣ .

(٤) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣٧ لابن قتيبة .

طاعتني ، وانه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (وأشار بيده الى أبي العباس) . فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مرريم عليه السلام (١) .

والخطيب هنا يجعل خلافته منه من الله تعالى ، ويجعل العدالة والابانة عنده منحة من الله خصه بهما ، ويجعل الخلافة مقصورة على أقارب النبي عليه السلام ، ثم يوهم الناس أن الخلافة ستظل في بنى العباس حتى يعود عيسى بن مرريم .

وفي وصية المنصور لابنه المهدى يقدس الخليفة ويؤكد غضب الله للسلطان فيقول : « واعلم أن من شدة غضب الله للسلطان أمر في كتابه بتضييف العذاب على من سعى في الأرض فسادا مع ما ذكر له عنده من العذاب العظيم فقال : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ..) الآية . فالسلطان يا بنى حبل الله المدين وعروته الوثقى ودين الله القيم » (٢) .

وفي وصية هارون الرشيد لهرثمة بن أعين يصفى الرشيد على نفسه قدسية ويوهم أن الله يريه الحق ويرشده إلى الرشد فيقول لهرثمة : « أو يرده إلى امامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده » (٣) .

وفي عهد المؤمن لعلى بن موسى الرضا يصفى المؤمن على الخليفة قدسية و يجعلها قوام الدين فيقول : « فان الله عز وجل جعل العهد بالخلافة من تمام أمر الاسلام وكماله وعزه وصلاح أهله » (٤) .

وكتب عبد العزيز بن يوسف رئيس ديوان الخليفة الطائع للرسالة الى

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٤٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٧ .

(٤) صبح الاعشى ج ٩ ص ٣٦٢ .

عند الدولة فقرن بين طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين حيث يقول : « استدム
النسمة عليك بالمتقوى الله تعالى ، ويحسن الطاعة لأمير المؤمنين ، فانهما
جنتاك وعدتاك وذر يعتاك المشفعتان عند الله تعالى في أولاك وأخراك » (١) .

ولذلك حذر العلماء الخلفاء من أن يغتروا بقربتهم من رسول الله عليه
السلام ، وأوصى الأوزاعي الخليفة المنصور بذلك فقال : « أعيذك بالله
يا أمير المؤمنين أن ترى قربتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعك
مع المخالف لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : يا صفية عمة محمد ،
ويا فاطمة بنت محمد استوها أنفسكم أمن الله فاني لا أغني عنكما من الله
 شيئاً » (٢) .

وعبر ابن خريم عن فكرة صائبة تثبت دعائم الحكم وتکبر السلطان في
عيون الناس حيث يقول للمهدى : « عليك بالغفو عن الذنب والتجاوز عن
المسء فلأنه بطريقك العرب طاعة محبة خير لك من من أن تطريك طاعة
خوف » (٣) .

وعبر الرشيد عن مكانة العلماء وحفظة القرآن وأمر بتقييدهم في
العطاء وكتب إلى الأمصار بذلك (٤) كما حرص الخلفاء على ابراز تعظيم
أهل بيت رسول الله عليه السلام ، وتعظيم أهل الحرمين الشريفين ، وهذا
نابع عن رغبة في اكتساب أهل الحرمين بعد أن باعدت الأحداث بينهم وبين
الخلفاء في عهد بنى أمية ، وقد أوصى المهدى ابنه الرشيد بأهل بيت رسول
الله (٥) . وأوصاه مرة أخرى بأهل الحرمين وتحدث عن مكانتهم ومكانة
بائهم (٦) .

وفي أحياناً قليلة نجد في الوصايا فكرة خاطئة تعبّر عن رأي صاحبها

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٢٧ - ابن قتيبة .

(٥) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٣ .

(٦) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٣ - ابن قتيبة .

ولكنها لا تمثل قضية مسلمة ، وفى رساله الصحابة يوصى ابن المقفع الخليفة المنصور بأن يجمع الأقضية والحجج التى احتاج بها القضاة من سنة أو قياس ، ثم يصدر رأيه ، وينهى عن القضاء بخلافه . يقول : « فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع اليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتاج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين وأمضى فى كل قضية برأيه الذى يلهمه الله ويزعم عليه عزما ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جاما لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا » (١) .

وهذه وصية صادرة من ابن المقفع ، ولم يكن ابن المقفع عالما من علماء الاسلام ، ولم يكن الخليفة المنصور من يحتاج برأيهم فى التشريع الاسلامى ، وهذا الرأى يقضى على الاجتهاد الذى يجب أن يظل مفتوحا أمام القضاة العاملين بأصول التشريع الاسلامى .

ودارت بعض الوصايا حول الزنادقة ، وفند الخليفة المهدى أفكار الزنادقة وكشف عن الأعيبهم فى وصية لابنه الهادى اذ قال له : « يابنى ، ان صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ، فانها فرقه تدعى الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحريا ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالببول وسرقة الأطفال من الطرق لتدقفهم من ضلال الظلمة الى هداية النور » (٢) .

ومن الأفكار التى تدور حول أمور اجتماعية تسير النظم فيها على ضوء الأفكار الدينية فكرة انصاف أهل الذمة ونظم فرض الأموال عليهم ، وقد أوصى أبو يوسف الخليفة الرشيد بانصاف أهل الذمة فقال : « وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى

(١) رسالة الصحابة ص ١٦٨ من رسائل الجاحظ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

الله عليه وسلم ، والتفقد لهم ، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوها فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا حبيبه » (١) .

وعلى العكس من ذلك تبرر احدى الوصايا عن جور أهل الذمة على المسلمين ، وكان المنصور قد أذن للنصارى في أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية ، ويبعدو أنهم تطرفوا في الاستيلاء على الضياع ، وأورد ابن قيم الجوزية أن جماعة من المسلمين اجتمعوا إلى شبيب بن شيبة والمنصور في الحج فطلبوه إلى شبيب مخاطبة المنصور في الا يمكن النصارى من ظلمهم في ضياعهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية ، وكان مما قاله شبيب للمنصور : « يا أمين المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين ، ظلموهم وعنفوه ، ولن يقضوا عنك من الله شيئاً يوم القيمة » (٢) .

وهنالك أفكار الشيعة وتصور تقدس زعماء الشيعة ، وكأنهم أنبياء يوحى إليهم وكأنهم متصلون باش اتصالاً مباشرأ وهم متزهون عن الخطأ ، وشبيه بتقديس زعماء الشيعة تقدس كبار الصوفية ، ونرى في وصاياتهم كثيراً من الأفكار الغريبة مثل تجنب الناس ومجافاة مشاعرهم بالحزن ان فرحاً ، ومثل مجازاة الصوفيين وعدم الاعتراض على أفعالهم ، وهي أفكار لا تتفق مع الأفكار الإسلامية الصريحة .

وحوت الوصايا كثيراً من الأفكار السياسية والاجتماعية التي تبرز السيطرة المطلقة لل الخليفة وتبيده في الإنفاق وفي بناء القصور ، كما صورت لنا الآداب الاجتماعية المتبعة في معاملة الخلفاء وفي مجالسهم ، وصور ابن المفع في كتابيه : (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) كثيراً من الآداب الاجتماعية ، وفي وصايا الخلفاء لأبنائهم نرى كثيراً من الأفكار التي كانت مسيطرة على عقول الرؤساء والآباء ، والمبادئ التربوية السائدة آنذاك .

ونرى في هذه الوصايا كثيراً من القوانين الأدبية والبلاغية المرعية ،

(١) كتاب الخراج ص ١٤٩ - أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم - المطبعة السلفية.

(٢) أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٤ - ابن قيم الجوزية . مطبعة جامع دمشق .

وبعض هذه القوانين جديد نادى به أدباء العصر العباسي ، وتأثروا في دعوتهم هذه ببعض النظريات الأجنبية بسبب ازدهار حركة الترجمة ، ونقرأ مع هذه المبادئ مفهوم البلاغة عند الهنود والفرس وغيرهم .

ومن بوакير الآراء البلاغية ما نراه في وصية بشر بن المعتمر باختيار الأوقات التي يحس فيها الأديب بالراحة وفراغ البال ، ووصيته أيضاً بترك التوعر والتعقيد ، والجمع بين الاهتمام باللفظ والمعنى معاً ، ومراعاة مستوى السامعين ، ومراعاة مقتضي الحال ، والتفت بشر بن المعتمر إلى أهمية الموهبة ، وأرى أن بشر بن المعتمر سبق عبد القاهر الجرجاني في هذه الأفكار .

وفي القرن الثالث الهجري برزت وصيتان أدبيتان ضمتا كثيراً من المبادئ الأدبية والبلاغية ، فرأينا أباً تاماً يوصي بالتحري بتغيير الأوقات التي يخلو فيها قلبه من الهموم وحدها وقت السحر ، كما أوصاه باختيار الألفاظ الملائمة للغرض ، والمعانى الملائمة للموضوع .

أما الوصية الثانية فهي وصية إبراهيم بن المدبر ، وهو يوصى باتخاذ البرهان في الكتابة والاكتساب بالاختلاف إلى العلماء ، ودراسة كتب الحكماء ، والتفت إلى أهمية اللفظ والمعنى معاً .

وهناك وصايا مطولة حوت كثيرة من الأفكار في شتى المواقف ، ومن أبرز هذه الوصايا وصايا ابن المفع في كتابيه (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) وربما كان ابن المفع متأثراً بوصايا السابقين من العرب والساسانيين ، فقد كان ابن المفع مطلعاً واسع الاطلاع ، ثم أنه يكتب علم السابقين ويرى أننا نفتقر من بحثهم وفي ذلك يقول في كتاب (الأدب الكبير) : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وأحسن ما ي慈悲ب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم » (١) .

وكذلك جاءت وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله حاوية لجوانب

عديدة في السياسة والمجتمع والدين ، وأيضا جاءت وصية الإمام مالك لهرون الرشيد شاملة للكثير من الجوانب وإن غلب عليها الأفكار الدينية ، وكذلك كتب الحارث بن أسد المحاسبي كتاباً يشمل وصايا دينية لا ترتيب ولا ترابط بينها .

وجاءت معظم الوصايا في القرنين الثاني والثالث موجزة تعرض الأفكار عرضاً مباشراً وتهدف إلى توصيل الأفكار واستيعابها والاقتناع بها ، وقد تحوى الوصية فكرة واحدة وقد تحوى أكثر من فكرة ، وقد تكون الفكرة واحدة ولكن الموصى يفصلها ويوضح جوانبها كما في وصية المأمون لابنه العباس اذ وضح له واجب المشارك في الحكم وفصل له ذلك بأن ينافس في الخير وينشر العدل ويدفع الجور ويحيي السنن الصالحة ويميت البدع ويعتقد المكرمات ويؤدى الصنائع الخ (١) .

وبعض هذه الوصايا تعرض أفكاراً مطروقة كما نرى في الوصايا الدينية الصادرة من العلماء والخلفاء ، وكما نرى في الوصايا السياسية والاجتماعية التي تنظم علاقة الحاكم بالحكومين وتنظم علاقة الناس ببعضهم وإلى جانب ذلك نرى بعض الأفكار الجديدة في الدين والسياسة والمجتمع ، ففي مجال الدين نرى وصايا الصوفيين وما تحويه من أفكار غريبة أحياناً ، وفي مجال السياسة نرى وصايا ترسم مراسيم جديدة تضفي على الخلفاء هالة من التمجيل ، وترسم نظماً محددة يجب مراعاتها في علاقاتهم مع الخلفاء .

وفي مجال الاجتماع نرى وصايا تحدد النظم المتبعة في مجالس الخلفاء ، وأخرى تنظم آداب المعاشرة ، وثالثة تتضمن وصايا بلاغية وأدبية تستمد أحياناً من الثقافات الأجنبية ، وظهرت بعض الأفكار الشاذة التي لا يرمي صاحبها إلى نشرها والاقتناع بها ، وإنما جاءت في ظروف خاصة لأهداف معينة ، ومن هذه وصايا البخلاء التي كتبها الجاحظ ، ووصايا المكدين التي كتبها بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ، ووصايا الطفيليين

(١) كتاب بغداد ص ٥٢ لابن طيفور .

التي عرضنا نموذجا منها كتبه أبو اسحاق الصابى ، كما أوصى أبو نواس
وأمثاله بالاقبال على الخمرة والتهتك وكانوا يهدفون إلى نشر هذه المبادئ
المهداة .

وقد يدعو المؤمن إلى فكرة خطأ ولكن يعتقد صوابها ، كما نرى في
وصية ابن المفع للخليفة المنصور بأن يجمع أحكام القضاة وينظر فيها
ويصدر أمرا يلزم القضاة باتباع مبدأ معين في قضائهم ، وهذا رأي خاطئ
لأنه يقضي على مبدأ الاجتهاد .

وقد تحوى الوصايا مغالطات للواقع في أحيان قليلة ، وهذا ناشيء من
الصراعات السياسية والمذهبية كما نرى في قول داود بن علي : « ألا وانه
ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير
المؤمنين على بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده
إلى أبي العباس السفاح) » (١) .

ورهناك مواقف يلجأ فيها المؤمنون إلى المبالغة لبيان الخطورة أو
لتخفيم الآثار ، وفي بيان سطوة الغضب إذا سيطر على الإنسان يقول
الجاحظ : فاما اذا تمكن واستفحـل ، وأنكى ناره وأشعل ، فلو استبطنته
بتوراة وأوجرتـه بالإنجـيل ولدتهـ بالزبـور وأفرـغتـ على رأسـه القرآنـ افراـغاـ
وأتـيـتهـ بـآدمـ شـفـيـعاـ لـماـ قـصـرـ دـونـ أـقـصـيـ قـوـتهـ » (٢) .

وقد يبالغ المؤمن لأن الاقناع بما يوصى به يحتاج إلى المبالغة لغرابته ،
وفي كتاب البخلاء يوصى الثوري عياله باتباع النوى وبيبالغ في بيان فوائده
فيقول : « ولا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه ، وخذروا حلوةكم
بتسويفه فان النوى تعقد الشحم في البطن ، وتتدفع الكليتين بذلك الشحم ،
واعتبروا في ذلك بيطون الصفايا وجميع ما يختلف النوى » (٣) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٤٢٨ .

(٢) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٦٠ .

(٣) كتاب البخلاء ص ١١١ .

وقد يبالغ الموصى حين يصور مكانة الخليفة أو الوزير ، ويوصى أبوبيكر الخوارزمي أباً إسحاق الحاجب لما تکبه الصاحب ابن عباد فيبالغ الخوارزمي في تعظيم مكانة الصاحب ويقول : « ولا تجلس على طريق المسيل الراعب ، ولا تطعن في نحر القضاء الغالب ، ولا تحارب جيش السعد ، ولا تطاعن حد الجسد »^(١) .

وتتضمن الوصايا كما أسلفنا فكرة واحدة موجزة أو مفصلة ، أو تتضمن أفكاراً عديدة تتوالى في ترابط أو غير ترابط ، ويربط بينها في جميع الأحوال أنها وصايا ينصح الموصى باتباعها أو تجنب ما نهى عنها ، ولذلك لا نستطيع أن نقول بوجود الاستطراد في الوصايا .

وقد تأتي الوصية مشتملة على أفكار مرتبة ترتيباً لا سبيل إلى نقضه ، ولكن أمثل هذه الوصايا قليل ، ومن ذلك وصية المؤمن قبل وفاته إذ أوصى بتوجيهه إلى القبلة ، وأسباغ طهره وتكتيفه وأضجاعه على المسير والصلوة عليه ودفنه ، إلى آخر ما أوصى^(٢) ، وهذه أمور لابد من الترتيب فيما بينها .

ويتمتع بعض الموصين بقدرة على الترتيب والتدرج حتى يصل إلى الهدف المنشود ، ونرى هذا في قول الجاحظ على لسان الثوري يوصي عياله: « واعلم أن الشبع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه اللوم من قاتل غيره ، وقد قال جل ذكره : (ولا تقتلوا أنفسكم) وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضاً كان ذلك للآية تأويلاً »^(٣) .

وفي القرن الثاني والثالث كان الموصون يهدفون إلى توصيل الأفكار إلى السامع والقارئ ، وكان هدفهم الأفهام ، ولم يكونوا يلجهون إلى فلسفة

(١) رسائل الخوارزمي ص ٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٤٧ .

(٣) كتاب البخلاء ص ١١١ .

أفكارهم أو اظهار مقدرتهم وبراعتهم ، وقد تكشف الوهبية عن ذكاء وتحطيم ولكنها تعرض الفكرة عرضاً مباشراً بدون معالجة عقلية عميقه .

ومن ذلك قول المهدى فى وصيته لموسى المادى : « واجعل عمال القدر ، وولاة الحج مقدمة بين يدي عملك ، ونصفة منك لرعايتك ، وذلك أن تأمر قاضى كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجالاً توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم ، فان أحسن حمدت ، وان أساء عذرت » (١) .

وفي القرن الرابع الهجرى ساد أدب الوصايا اتجاه جديد ، حيث لجأ الكتاب الى التحليل والاطناب وفلسفه أفكارهم ومحاولة اظهار البراعمة والمقدرة الفنية ، ولم يعودوا يعبرون عن أفكارهم تعبيراً تلقائياً ، وظهر هذا الاتجاه عند كبار الكتاب من أمثال ابن العميد وأبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى . ومما يمثل هذا الاتجاه وصية ابن العميد التى بعثت الى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، وفيها يوصيه بالرجوع الى الطاعة ، وفيها يذكره بما كان ينعم به من « الأمان والسعادة » فيقول : « ألم تكن من الأولى في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل ، وهواء عدى وماء روى ومهاد وطى ، وكن كنين ومكان مكين وحسن حسنين » ويستمر على هذا النمط .

ثم يصور حاله بعد العصيان فيقول : « ففيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عدلت ، والخلف عما وصفت ؟ ، وما استقدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونفخت منها كفك وغمست فى خلافها يدك ؟ . وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلات شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ . قل نعم كذلك ، فهو والله أكثف ظلا لك فى العاجلة ، وأروحها فى الآجلة ، ان أقمت على المحيدة والعنود ، ووقفت على المشaque والجحود » (٢) .

وتجمع الوصايا بين الاستشارة العاطفية والاقناع بالنقل والعقل ، وتأتى الاستشارة العاطفية فى المواقف التى تحتاج الى جذب الشخص الذى يوصيه ، وفي وصية ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى يقول له :

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ - ٢١٢ يتصرف .

(٢) بتيمة الدهر ج ٢ ص ١٦٤ يتصرف .

« يا أبا عبد الرحمن ، إنك رجل منا أهل البيت »^(١) ، ولم يكن أبو مسلم من أهل بيت الرسول ، وإنما هدف الإمام إلى اكتساب أبي مسلم .

وقبض أبو مسلم الخراساني على عبد الله بن معاوية أحد زعماء العلوبيين البارزين والقاه في غياب السجون ، فكتب إليه عبد الله رساله يستثير عاطفته ليطلق سراحه ، وفي مطلع الرسالة يقول : « من الأسير في يديه ، بلادنـبـ اليـه ، ولا خـلـافـ عـلـيـه ، أـمـاـ بـعـدـ فـاتـاكـ اللهـ حـفـظـ الـوـصـيـةـ ، وـمـنـحـكـ نـصـحـ الـرـعـيـةـ ، وـالـهـمـكـ عـدـلـ الـقـضـيـةـ ، فـانـكـ مـسـتـوـدـعـ وـدـائـعـ وـمـوـلـيـ حـسـنـائـعـ »^(٢) .

والى جانب الاستشارة العاطفية نرى المناقشة المنطقية والاقناع العقلى والتعليل ، ونرى أيضاً الاقناع بالأدلة النقلية ، وفي وصايا ابن المفعى الواردة في كتابه (الدب الصغير والأدب الكبير) نراه في كثير من الأحيان يورد الوصية ويعلل لها كما في قوله : « غير معاتب ولا مستبطىء ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع »^(٣) .

ويفرق ابن المفعى بين الأحوال المتشابهة فيفرق بين الحذر والخور فيقول : « فإن استطعت أن يكون تجنبك من الأمر قبل مواقعتك أيام فافعل ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تنهيه فإن ذلك هو الخور ، فإن الحكيم لا يخوض نهرا حتى يعلم مقدار قعره »^(٤) .

ومن المعانى الدقيقة المقنعة ما ورد في قول طاهر بن الحسين : « لا تستعن بأحد في خاص عملك الا من ترى أن نعمتك نعمته تزول عنه بجزوها عنك ، وتندوم عنده بدوامها لك »^(٥) .

(١) تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٣) الأدب الكبير ص ١٣٤ .

(٤) الأدب الكبير ص ١٤٤ .

(٥) كتاب بغداد ص ٧٠ لابن طيفور .

وقد يأتي الاقناع في تحليل منطقى صائب عن طريق افتراض الفروض، والرد على كل منها حتى لا يبقى للموصى حجة في مخالفة الوصية، وفي وصية رجل للمنصور ينكر الرجل على المنصور انهماكه في جمع المال، ويفترض الرجل الفروض ويرد عليها، فيفترض جمع المال من أجل الولد، ويفترض جمع المال ليقوى به السلطان، ويفترض جمع المال لغاية جسيمة يهدف إليها، ويرد على كل ذلك فيقول :

«فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبرا في الطفل يسقط عن بطنه أمه ماله على الأرض مال، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، فإن قلت : إنما تجمع المال لتشد به السلطان فقد أراك الله عبرا في بنى أمية ما أغني عنهم جمعهم من الذهب، وإن قلت : إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه» (١) .

وقد يأتي الاقناع بالتفصيل والتعليق كما في وصية محمد بن عبد الله ابن عباس لرجال دعوته يوصيهم بالاهتمام ببيث الدعوة بين أهل خراسان، حيث يذكر البلاد ويعمل لانصرافه عنها، ثم يعلل لاهتمامه بخراسان، ومن قوله : «أما الكوفة فهناك شيعة على بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانية، وأما الجزيرة فحرورية وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بنى مروان، وأما أهل مكة والمدينة فقد غالب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكبير والجلد الظاهر وصدورا سليمة وقلوبها فارقة» (٢) .

وقد يكون الاقناع بتجلية الأثر الواقعى، كما نرى في وصية المأمون لأخيه المعتصم بتقديم عبد الله بن طاهر، وتجنب يحيى بن إكثم حيث يجلى أثر كل منهما فيقول : «عبد الله بن طاهر أقره على عمله ولا تتهمه، فقد عرفت بلاءه، وغناءه عن أخيك، ولا تتخذن بعدي وزيرا تلقى إليه شيئاً فقد علمت بما

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٩ . يتصرف .

(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٠٤ يتصرف .

تكتبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس ، وثبت سيرته حتى أبان الله ذلك
منه في صحة مني «(١)» .

وقد يكون الاقناع عن طريق ضرب المثل بشخص يجله السامع كما في
قول المنصور يوصي ابنه المهدى : « ولا تنم فان اباك لم ينم منذ ولد الخليفة
ولا دخل عينه غمض الا وقلبه مستيقظ » (٢) .

وقد يكون الاقناع بافكرة عن طريق الاقناع الدينى كما نرى في وصية
طاهر بن الحسين لابنه عبد الله حيث يقول : « ولا تسرعن الى سفك الدماء
فان الدماء عند الله بمكان عظيم » (٣) .

وقد تتوالى الجمل بحيث تشمل الجملة الأمر أو النهى والتعليق له كما
نرى في قول عبد الملك بن صالح يوصي ابنا له : « أى بنى ، احلم فان من حلم
ساد ، ومن تفهم ازداد ، والق أهل الخير فان لقاءهم عماره للقلوب » (٤) .

وقد يكون الاقناع عن طريق النقل فيستدل بالقرآن الكريم أو بالحديث
الشريف ، أو بأقوال الصحابة أو الأمثال أو الشعر ، ومن الاستدلال والاقناع
بالقرآن الكريم قول الخليفة المنصور في وصيته للمهدى : « واعلم ان من
شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من
سبى في الأرض فسادا ، مع ما ذكر له عنده من العذاب العظيم فقسال :
(انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسيعون في الأرض فسادا أن يقتلوا
أو يصلبوا ... الآية » (٥) .

وقد يحتفظ ببعض الفاظ النص ويغير في بعضها ، ويبقى المعنى
القرآنى واضحًا في العبارة كما في قول المنصور في الوصية السابقة :

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٤٩ يتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٨ .

(٤) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

« اتق الله فيما أهدى إليك من أمور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ويرزقك السلاماً وحسن العافية من حيث لا تحتسب » والآية القرآنية تقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وقد يكون الاستدلال بالحديث الشريف كما في قول الأوزاعي للمنصور : « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعك مع المخالفة لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ياصفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد استوهباً أنفسكمَا من الله ، فاني لا أغني عنكمَا من الله شيئاً » (١) .

وقد يكون الاستدلال بأقوال السابقين كما في وصية المنصور لابنه المهدى حيث يقول : « لا تجلس مجلساً الا ومعك من أهل العلم من يحدثك ، فإن محمد بن شهاب الزهرى قال : الحديث ذكر ولا يحبه الا ذكور الرجال ، ولا يبغضه الا مؤنثوهم » (٢) .

وقد يأتي الوصى بمثل عربى مشهور كما نرى فى وصية أحمد بن أبي دؤاد لابراهيم ابن المهدى حين أغلظ القول لبختىشوع الطبيب ، يقول ابن أبي داؤد : « ولا تعجل ، فرب عجلة تهب ريتها » (٣) .

وقد يستدل بأقوال السابقين بدون تحديد القائل ، كما في قول أبي الحسن الماوردى يوحى أحد الوزراء : « لا تقصر بذى فضل ، ولا تعتمد على ذى جهل ، فقد قيل : « من الجهل صحبة ذوى الجهل ، ومن الحال مجاملة ذوى الحال » (٤) .

وفى كتاب البخلاء للجاحظ يوصى أحد البخلاء بعدم الأكل حتى الشبع فويستدل بأقوال الصحابة وبالشعر وبالقرآن الكريم وبالحديث فيقول : « ولا تدم

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧٢ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٥ .

(٤) نهاية الارب ج ٦ ص ١٣٢ .

الأكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله قد فضلك فجعلك انسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، وقال الأعشى :

والبطنة يوما تسفة الأحلام

واعلم أن الشبع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميّة فقد مات ميّة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألومن قاتل غيره ، وقد قال الله جل ذكره : (ولا تقتلوا أنفسكم) ٠ أى بنى ، ان القاتل والمقتول في النار » (١) ٠

ويلجا الموصى إلى التوكيد في كثير من المواقف حيث يحرص الموصى على الاستجابة لوصيته وقد يكون التوكيد بالحروف المؤكدة مثل ان وأن ، أو أساليب القصر أو القسم أو التكرار ، ونرى المنصور في وصيته لابنه يؤكّد بـان وأن وبأسلوب القصر فيقول : « ان فكرة العاقل مرأته تربّيه حسناته وسيئاته ، واعلم أن الخليفة لا تصلحه الا التقوى » (٢) ، ويقول المنصور للمهدي في حق عيسى بن موسى : « وبالله لو لم يكن الا أن يقول قوله لما خفتة عليك » (٣) ٠

وقد يعرضن الفكرة الواحدة في صور مختلفة كما في قول ابن المفعع يحذر من الغضب : « واعلم أن من الناس ناسا كثيرا يبلغ من أحدهم الغضب اذا غضب ان يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب في غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن بهم بعقوبته ، وشدة العاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به الا دون ذلك ، ثم يبلغ به الرضا اذا رضى ان يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد اعطاءه ، ويكرم من لا حق له ولا مودة » (٤) ٠ فهنا بيان لأثر الغضب والرضا في صور عديدة ٠

(١) كتاب البخلاء ص ١١٨ بتصرف .

(٢) نهاية الارب ج ٦ ص ٤١ ٠

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ ٠

(٤) الادب الكبير ص ٧٣ بتصرف .

وفي وصية المهدى لابنه موسى نرى الاجمال ثم التفصيل للتشويق ، ويورد المعنى ثم يورد المقابل له لابراز المعنى بأبراز الفارق بينه وبين ضده ، ومن ذلك قوله في الرنادقة : « يدعون الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة » (١) . فهنا يذكر الظاهر الحسن ثم يفصله ، وينكر عبادة الاثنين ثم يفصلهما ، وينكر الظاهر الحسن ثم المقابل له .

ويوصي الشافعى أخا له فى الله فيورد المعنى مقرئونا بضده مصورا الدنيا ومصيرها فيقول : « عمر انها الى الخراب صائر ، وساكنها الى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقف ، وغناها الى الفقر مضروف ، الاكتار منها اعسار ، والاعسار فيها يسار » (٢) .

وقد يعبر المؤوى عن المعنى تعبيرا مجردا ، وقد يبرزه في صورة محسوسة مجسمة للهدف ، ومن التعبير عن المعنى تعبيرا مجردا قول الرشيد له رثمة بن أعين : « أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الشومر اقبته ، وأن يجعل كتاب الله اماما في جميع ما هو بسبيله » (٣) .

ومن التعبير عن المعنى في صورة كاشفة عن الأثر قول المنصور لابنه المهدى : « يابنى لا تبرم أمرا حتى تفكّر فيه ، فإن فكرة العاقل مرأة تريه حسناته وسيئاته » (٤) .

فهنا عبر عن أهمية التفكير وأثره في استجلاء الأمور حيث أتى بالمرأة التي ترى الإنسان حسناته وسيئاته ، هو تشبيه ملموس في حياتنا .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٢) نهاية الارب ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٤) نهاية الارب ج ٦ ص ٤١ .

العاطفة

السمة الغالبة على الوصايا أنها صادقة العاطفة ، فالوصية عهد من شخص إلى آخر ، ويغلب أن يكون الموصى صادق العاطفة فيما يوصى به أمراً أو ناهياً ، ونرى هذه السمة غالبة في وصايا القرنين الثاني والثالث ، أما في القرن الرابع فانتها نرى كلاًّثيراً من الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية يكتبهما الكتاب والوزراء والأدباء عن الخليفة أو عن الولاة ناصحين أو محذرين ، ويحاول أولئك الكتاب أن يفتونوا في أسلوبهم ، وأن يظهروا البراعة وهم يتحدثون بلسان غيرهم أو بعاطفة غيرهم ، ولذلك نحس في هذه الوصايا فتوراً في العاطفة ، وتكلفاً في القول كما سنوضح ذلك .

تصدر بعض هذه الوصايا من الأدباء والأمهات لأولادهم ، وفي هذه الوصايا قمة الصدق العاطفى ، فليس أحقر من على مصالح الأولاد من أبنائهم ، ويستوى في ذلك أن تكون الوصية صادرة من خليفة أو وزير أو من شخص من عامة الناس ، وسواء كانت الوصايا سياسية أم اجتماعية أم دينية .

عرضنا وصايا عديدة للمنصور والمهدى والرشيد والمؤمن وغيرهم يوصون فيها أبناءهم وصايا تنم على حرصهم على تربية أبنائهم وتنشئتهم على كل ما يزينهم ويثبت ملتهم ، ويكتفى أن نقرأ وصية المنصور للمهدى قبل أن يتوجه المنصور إلى مكة ، حيث أوصاه وصية رسم له فيها الأمة ، وضمنها الوصايا الدينية التي تقربه إلى الله وتتضمن رضاه وتائيده (١) .

وفي وصية الرشيد لعلى بن المبارك الندوى مؤدب ولده الأمين يوصيه بتحفيظه القرآن والسنة ، وتعليمه الآثار والأشعار وطريقة الحديث والوقار وإنزال الناس منازلهم ، والاعتدال في معاملته لمحمد الأمين فلا يتهاون معه ، ولا يقسوا عليه قسوة تنفره (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ دار الاندلس .

ويقول أبان بن تغلب : شهدت أعرابية توصى ولدا لها ، ويورد وصية تجمع بين المبادئ الخلقية والحرص على الدين وعلى الكرامة ، وتجنب ما يزري به ، وتوصيه بالنظر إلى الناس و فعل ما يستحسن منه ، وترك ما يستحبه (١) . وهذا قياس صحيح في سلوك الإنسان .

ونسمع في هذه الوصايا النداء الأبوي ، ونسمع المنصور يقول لابنه المهدى : « احفظ يابنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك » (٢) .

ويقول عبد الله بن معاوية لابنه : « أى بنى ، انى مؤذن حق الله فى تأدبك ، فأد الى حق الله فى الاستماع منى » (٣) . وهذا النداء الأبوى يضفى على الموقف قدسيه ، ويربطه بحق الله ، وحق الله على الابن الاصغاء . وقبول النصيحة .

ونرى الصدق العاطفى في سائر الوصايا الصادرة في القرنين الثاني والثالث ، وإن لم تكن صادرة من الوالدين ، ذلك لأن هذين القرنين كانوا على وجه العموم فترة يسودها الصدق وعدم التكلف ، ولم تكن الرغبة في اظهار المقدرة الفنية واللغوية قد طفت على الأدباء .

وكان الحرية الرأى أثر في صدق العاطفة ، فقد كان العلماء والزهاد يوصون الخلفاء ولا يخافون بطشهم ، وكان الخلفاء يصنفون إلى وصايا العلماء والزاهدين ، ويتأثرون بها ، بل ان الخلفاء كانوا يرسلون في طلب هؤلاء الواعظين اذا تأخروا عنهم ، ويطلبون منهم الوصية ، فتنطلق السنة الموصيin في حرية وصدق .

ويتحقق الصدق العاطفى في بعض وصايا القرن الرابع ، ومنها

(١) زهر الأداب ج ٢ ص ٤٣٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ .

(٣) زهر الأداب ج ١ ص ١٢٠ .

الوصايا الصاسرة من الآباء إلى أبنائهم كما في وصية أبي الهيجاء ابن حمدان لابنه ناصر الدولة (١) .

وفي القرن الرابع كان كبار الكتاب يكتبون نيابة عن الرؤساء ، ولم يكونوا يكتبون عن عاطفة صادقة ، وإنما كان هدفهم الأول اظهار البراعة الفنية ، وقراءة نموذج من هذه الوصايا يوضح لنا ذلك ، يقول ابن العميد لأبي عبدالله الطبرى : « واركب فى الخدمة طريقة تبعك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الاكتار والاقلال ، ولا تسترسل الى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقصى من قريب » (٢) . وواضح أنه يظهر الافتتان وأن السجع هدف من أهدافه الأصلية .

والناظر فى وصايا القرن الرابع يجد تشابها فى مضمونها ، فهو توصى بتوقوى الله ، واتباع الكتاب والسنّة ، والعدل بين الناس ، ورعاية المساجد ، وما ماثل ذلك .

ويحكم قارئ هذه الوصايا بأنها توجيهات محفوظة يضمونها كل موصيته ، حتى إننا نقرأ عهدا كتبه أبو اسحاق الصابى (وهو مسيحي) بتقليد أبي الحسن العلوى نقابة الطالبيين والاشراف على المساجد فنراه يوصيه بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين ، ويأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى وتصفحه مداوما ملازما (٣) .

وهو عهد مطول يقع فى ثمانى صفحات ، ويسير على هذا النمط ، والكاتب وإن كان يكتب عن الخليفة الطائع لله ولكن هذا الاطناب فى الجانب الدينى إنما هو اتباع لتقليد شاع فى ذلك الوقت ، وتتكرر هذه المعانى فى كثير من الوصايا كما نرى فى العهد الذى كتبه أبو اسحاق الصابى بتقليد حماية الكوفة لأبي طريف بن عليا (٤) . وفي عهد آخر كتبه أبو اسحاق

(١) نشور المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ - المحسن التنوخي .

(٢) زهر الأدب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٥٦ الى ص ٢٦٣ .

(٤) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

الصابى أيضاً عن المطیع لله بتقلید الحسن بن موسى العلوی المظالم بمدينة السلام (١) .

وكان الوصایا تجمع بين الاستشارة العاطفية والاقناع العقلی والنقلی ، ولا يقل ورود الأدلة النقلية والعقلية من صدق العاطفة ، بل ان هذا الاستدلال قد يكشف عن حرص الموصى على الاقناع بالوصیة والعمل بها ، وانما نريد أن ننصل على أن بعض الوصایا قد تعتمد في بعض المواقف على الاستشارة العاطفية ، وان لجأت الى المغالطة في احياناً قليلة ، كما في قول ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى « يا ابا عبد الرحمن ، انك رجل من اهل البيت » (٢) ولم يكن ابى مسلم من اهل بيت الرسول ، وانما يهدف الامام الى الاستشارة العاطفية واكتساب أبى مسلم واكتساب مناصريه .

وتحفل الوصایا بمختلف المشاعر وتسودها المشاعر الدينية سواء في ذلك وصایا الحاکمين والحاکمین ، ونرى عاطفة السخط في بعض وصایا الحکام لقادة جيوشهم وبعض ولاتهم حين يتقمون على بعض الولايات تمددهم على السلطة ، كما نراها عند المعتقلين والمستضعفين حين يوصون الحاکمين بالعدل والانصاف .

وتظهر عاطفة الشفقة والحرص على المصلحة في الوصایا الصادرة إلى القضاة والولاة ، والمتعلقة برعاية العلماء ورجال القرآن والحديث ومن ماثلهم ، وفي الوصایا المتضمنة نصحاً للثائرين بالعودة إلى حظيرة الطاعة ، وفي وصایا الكبار باتباعهم لقضاء مصالحهم وتحقيق أمالهم .

كما تبدو العواطف الاجتماعية في الوصایا الخاصة بمعاملة الحکام والتمسك بالتقاليد الاجتماعية السائدة .

ونرى العواطف الشاذة في وصایا البخلاء والمكدين والمتغطلين ، حيث نرى حب المال حباً جارفاً ، ونرى كراهية الناس والدعوة إلى استغلالهم

والتخايل للحصول على ما معهم ، والدعوة الى الشره والاقبال على الماد
بدون دعوه اليها .

وقد أوضحنا الظروف المحيطة بهذه الوصايا ، وأن مؤلفيها لا يدعون
إلى هذه المبادئ دعوة جادة .

وبعض الوصايا كانت موجهة الى اشخاص معينين ، او انها وصايا
خاصة ، وبعضها وصايا عامة موجهة الى جميع الناس ، ومنها معظم
وصايا ابن المفع و معظم وصايا المتصوفة والشيعة وبعض وصايا الزاهدين
والعلماء ، ولا يقلل تعليم الوصية من صدق العاطفة ، فامثال الامام مالك
وامثال الاوزاعي وعمرو بن عبيد كانوا صادقى العاطفة فى توجيه الوصايا
لجميع الناس ، وكانوا يرجون فى اعماقهم صلاح الانسانية ، كما ان وصايا
الخلفاء لرعايتهم كانت صادقة العاطفة حيث كان الخلفاء يرغبون رغبة صادقة
فى صلاح الرعية واستقامتها .

الأسلوب

(١) الألفاظ والعبارات

امتاز أسلوب الوصايا على وجه العموم بالسهولة والوضوح ، ذلك لأن الموصى إنما يهدف – قبل كل شيء – إلى الوعظ والتأثير وتوصيل ما في نفسه إلى من يقدم إليه الوصية واقناعه به ، والوضوح يحقق هذا الهدف .

يوصى الخليفة المهدى ابنه الرشيد فيقول : « عليك يا بى بتقوى الله العظيم وطاعتة فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة » (١) . أسلوب سهل خال من التعقيد ومن الغموض ومن التكلف ، ثم أنه يتمتع بالتأثير العاطفى : يابى ، الله العظيم ، الربح ، وهو أسلوب مناسب للوصية يضمن لها التأثير .

ونرى الإيجاز الوافى بالغرض والذى يجمع بين البراعة وحلوة الأسلوب فى قول عمرو بن مسعدة موصيا بشخص : « كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع من كان محله بين الثقة والعناية » (٢) . فالثقة تناسب من كتب اليه ، والعناية تناسب من كتب له ، ولن لتأكيد عدم الضياع .

وفى بيان اثر أهل خراسان فى نصرة العباسيين يقول المهدى لابنه موسى الهادى : « وان أهل خراسان أصبحوا أيدى دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين تستدفع المكاره بطاعتهم ، ونصرف نزول العظام بمخاصحتهم ، وندافع ريب الزمان بعزمائهم ، ونراحم ر肯 الدهر ببصائرهم ، فهم عمام الأرض اذا أرجفت كنفها » (٣) . وهذا الألفاظ الموجبة المصورة ، فهم أيدى

(١) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٣ – ابن قتيبة .

(٢) تحفة الورزاء ص ١٣٨ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ .

الدولة ، واليد وسيلة القدرة ، وهم المسيوف ، وهذا المضامن والقطع والحماية ، وتنزول العظام وما يوحى به من الكوارث الفاجعة ، وهم العماد ، فهو الأساس الذى تقوم عليه الدولة .

وإذا كان أدباء القرن الرابع قد اهتموا بتنمية الأسلوب ، وأثر هذا الاهتمام على صدق العاطفة ، فإن أسلوبهم في الوصايا يتمتع بالسلاسة والابياء ، ويخلو من التعقيد والتناقض ، يقول ابن العميد لابن بلكا بعد استعصائه على ركن الدولة :

«الم تكن من الاولى فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عدى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، و肯 كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المخالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكتفك من نواب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان » (١) .

وتكثر في أسلوب الوصايا الألفاظ الدينية والاصطلاحية ، وترد المفاظ: أهل البيت ، وأهل بيت رسول الله ، وتعمر الوصية بتقوى الله ، ويتبعها ذكر الجنة والنار ، ويوصي الرشيد بمن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم والتزم الأذان ، ويتحدث طاهر بن الحسين عن الله وعن الصلوات والجماعة واسباب الوضوء وترتيب القرآن والركوع والسجود والتشهد وغير ذلك من الألفاظ الاصطلاحية الدينية .

وفي وصايا المتصوفة نرى بعض الألفاظ التي تجري على السنتهم ، يقول سعيد بن سلام المغربي : « ليكن تدبرك في الخلق تدبر عبرة ، وتدبرك في نفسك تدبر موعظة ، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة ومكاشفة » (٢) . وهذا من كلام المتصوفة .

وتتأثر الأفكار والعبارات في الوصايا بالقرآن الكريم ، ومن ذلك قول الرشيد لهرثمة بن أعين في شأن القضاة : « أن يصب عليهم سوط

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ .

(٢) الرسالة الشيرية ص ١٩٢ مطبعة حسان .

عذاب الله واليم نقمته » (١) . وهو متأثر بقوله : « فصب عليهم ربك سوط عذاب » .

ووردت في الوصايا مصطلحات أدبية وبلغية ، وفي وصية بشر بن المعتمر تولد الألفاظ الاصطلاحية ، ومن ذلك قوله : « واياك والتوعر ، فإن التوعر يسلفك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ، ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (٢) .

وقد أسلفنا أن أسلوب الوصايا يغلب عليه الوضوح ، وقليلاً ما نرى الفاظاً غامضة وقد كانوا يوصون بتجنب الغريب كما رأينا عند بشر بن المعتمر وأبن المفع والجاحظ ، ومن الألفاظ الغربية التي وردت قول محمد بن الليث يوصى جعفر بن يحيى البرمكي باختيار قلمه : « أما بعد ، فليكن قلمك بحريراً لا سمعيناً ولا رقيقة ضيق النقب » (٣) ويريد بالنقب الفراغ الذي في وسط القلم .

ويقول بشر بن المعتمر في وصيته : « ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً » (٤) أراغ أراد وطلب .

وللحاجظ وصية مليئة بالألفاظ الغامضة ، ويبدو أنه يهدف من ورائها إلى اظهار مقدرته اللغوية ، وفيها يقول : « لا ينبغي للفتى أن يكون مكحلاً ولا مقيباً ولا مكوكباً ولا شacamداً ولا حرامداً ولا نقامداً » (٥) . ثم فسر الكلمات فقال : أما المكحل فالذى يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحالة عاج ، والم Cobb الذى يركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة ، والمكوكب الذى ييصلق فى الطست ويتنخم فيها حتى يصير بصاقه وكأنه الكراكب فى

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ .

(٤) العمدة ج ١ ص ١٤٢ - ابن رشيق القิروانى . مطبعة السعادة .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٨ .

اللست ، والحرامد الذى يأتي فى وقت الغداء والعشاء فيقول : « ما تأكلون ؟ » فيقولون من بغضه : سما ، فيدخل يده ويقول : في حرام العيش بعدكم ، والشمامد الذى يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يسيغها فيختنق كأنه ديك قد ابتلع فارة ، والنقامد الذى يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدى غيره .

والفاظ الوصايا عربية فصيحة ، وتندر فيها الألفاظ الأجنبية ، وورد في وصية الموق ل أحد رجاله : « وأمره أن يتفقد طرف عمله ومسالحه بالضبط لها وبذرقة السانية المختلفة فيها » (١) . والمسالح جمع مسلحة وهي الثغر ، والبذرقة الخفارة ، فارسية معربة .

وتلزم الفاظ الوصايا حدود الأدب واللباقة ، ولا نجد الفاظا نابية الا قليلا في وصايا المقامات ، وهي وصايا مخترعة جاءت على لسان المكدين ، وتحث على الخداع والاحتيال للاستيلاء على الأموال ، وتحوى بعض الألفاظ النابية ، ومن ذلك ما جاء في المقاومة الوصية ، وفيها يوصى أبو الفتح الاسكندرى ابنه فيقول :

« ولست آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهرة وشيطانها ، فاستعن عليهمما نهارك بالصوم وليلك بالنوم ، انه لبوس ظهارته الجوع وبطانته الهجوع ، وما بسهما أسد الا لانت سورته ، أفهمتها يا ابن الخبيثة ؟ » . ثم يقول : « فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى فخذلان ، لا أقول : عقرى ، ولكن بقرى ، أفهمتها يا ابن المشئومة ؟ » (٢) .

أما الأخطاء النحوية واللغوية فلا نكاد نجدنا ، ووجدت أخطاء تعد على أصابع اليد الواحدة ، وبعضها خطأ مطبعى على ما ييدو ، وهو قول أبي بكر محمد بن موسى الفرغانى أحد كبار الصوفية فى القرنين الثالث والرابع : « صل عليهم بلا وقار ، ولا تجعل لها فى قلبك مقدار » (٣) . والخطأ فى

(١) اختيار المنظوم والمنشور ٣٤٦/١٣ .

(٢) مقامات بديع الزمان المهدانى ص ١٤٤ .

(٣) تلبيس ابليس من ١٦٩ عبد الرحمن بن الجوزى . دار القلم .

لقط (مقدار) والصحيح مقدارا) لأن الكلمة مفعول به منصوب ، وربما كان خطأ مطبعيا ، وربما سكن الموصى الكلمة لتنسجم موسيقيا مع (وقار) .

وجاء في وصية المؤمن قبيل وفاته قوله : «أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد ومن حضره أن الله عز وجل وحده لا شريك له في ملوكه» (١) . والأفصح أن يقول : «يشهد هو ومن حضره» لأن لفظ (من) معطوف على الضمير المستتر في (يشهد) . والفصيح أنه لا يجوز العطف على ضمير الرفع المستتر إلا مع وجود فاصل ، فنقول : «يشهد هو ومن حضره» .

وذكر الأستاذ عباس حسن : أنه يجوز العطف على الضمير المرفوع المستتر اذا كان المطوف صالحًا لمباشرة العامل المذكور ، (٢) وبتطبيق هذه القاعدة نجد أنه يجوز أن يقول : يشهد ويشهد من معه .

وفي كتاب البخلاء للجاحظ أوصى الشورى عيالله فقال : « لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه . وأخذوا حلوكم بتسويفه » (٣) .
والمصحح « وخذنوا » .

وقد يأتى الموصى بجزء من الآية ، كما فى قول الشافعى لمهون الرشيد :
« واعلم أن الله تعالى يفتش سرك فان وجده بخلاف علانتك شغلك بهم الدنيا ..
وفتق لك ما ينزلق عليك ، واستغنى الله والله غنى حميد » (٤) .

^{١١}) تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٣ .

(٢) النحو الوفي ج ٣ ص ٦٥٥ - عباس حسن . دار المعرفة .

(٣) كتاب البخلاء ص ١١١ .

(٤) حلية الادلياء ج ٩ من ٨٩ .

وقد يصل بالآلية حرفاً أو جملة كما في الوصية السابقة اذ يقول الشافعى للرشيد : « فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . ويقول في الوصية نفسها : « فعليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكن على طريقة الذين هدأهم الله فبهدائهم اقتده » . والآلية : « أولئك الذين هدأهم الله في هدائهم اقتده » .

وقد يأتي بمعنى الآية مدحجاً في حديثه بحيث يدرك القارئ الاقتباس كما في قول المنصور لابنه المهدى : « واتق الله فيما عهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العافية من حيث لا تحتسب » (١) . وهو يأخذ من الآية الكريمة : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وقد يورد المؤصل حديثاً نبوياً كاملاً في وصيته كما في وصية الأوزاعي للمنصور اذ يقول : « فأعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعك مع المخالف لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : ياصفية عمّة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوّهباً أنفسكم من الله فاني لا أغنى عنكم من الله شيئاً » (٢) .

وقد يقتبس المؤصل جزءاً من الحديث الشريف كما في قول الثورى لعياله : « وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضاً كان ذلك للآلية تأويلاً ، أى بنى ، ان القاتل والمقتول في النار » . والجملة الأخيرة جزء من حديث الشريف .

وقد يدخل حرفاً على الحديث كما في قول الثورى في الوصية السابقة : « فلا طاعة لخلوق في معصية الخالق » .

ويستشهد المؤصل بآقوال الصحابة رضي الله عنهم ، ومن ذلك ما جاء في كتاب البخلاء على لسان الثورى يوصى ابنه : « ولا تنهش نهش الانفاعى ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ .

ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تندم الأكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله قد فضلك فجعلك انسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا » (١) .

وقد يستشهد بأقوال العلماء السابقين ، يقول صالح بن عبد الجليل للمهدي : « جاء في الأثر : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابا من أقبل إليه العلم فأذبر عنه » (٢) .

وقد يقتبس مثلا كما في قول أحمد بن أبي دؤاد لابراهيم بن المهدى : « ولا تعجل ، فرب عجلة تهب ريثا » (٣) . وفي وصية المنصور لأبي مسلم الخراسانى يحذره من الخروج على الطاعة : « للبيدين والفم » (٤) . وهو مثل يقال في الدعاء بالهلاك .

وقد يستشهد الموصى بحكم أجنبية كما جاء في وصية أبي الحسن الماوردى اذ يقول : « وقد قيل في حكم الهند : ذو المروءة يرتفع بها ، وتاركها يهبط ، والارتفاع صعب ، والانحطاط هين ، كالمحجر الثقيل الذى رفعه عسير وحطه يسيرا » (٥) .

وقد يأتي الاستشهاد بالشعر كحافى وصية أبي عبيد الله كاتب المهدى : « كن على التماس الحظ بالسكتوت أحقر منك على التماسه بالكلام .

ان البلاء موكل بالمنطق (٦)

ونرى في أسلوب الوصايا مختلف وسائل التوكيد ، ويستخدم الموصى

(١) كتاب البخلاء ص ١١٨ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٨ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٥ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .

(٥) نهاية الأربع ج ٦ ص ١٣٢ .

(٦) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٧ .

أدوات التأكيد مثل ان وان وقد ، ويلجأ الى القسم وأساليب القصر ، كما يستخدم عطف الألفاظ او الجمل لتأكيد ما يهدف اليه .

والجاحظ من يكثرون من اللجوء الى التوكيد ، وحين تلقى نظره على كتاب البخلاء نجد الجمل التالية في صفحة واحدة في وصية واحدة : « ان الله قد فضلك ، واعلم ان الشيع داعية البشـم ، وان البشـم داعية السقـم ، وأن السقـم داعية الموت ، ومن مات هذه المـيـة فقد مات مـيـة لـيـمة ، ٠٠ ان عـامـة أـهـل الـقـبـور اـنـما اـتـوا بـالـتـخـم ، وـاـللـهـ ماـ أـدـى حـقـ الرـكـوعـ لـوـاـ وـظـيـفـةـ السـجـودـ ذـو كـظـةـ » (١) . وهنا يستعمل الجاحظ ان وان ، ويورد ان ثلاث مرات في ثلاث جمل متـوالـية ، ويستعمل قد وأسلوب القصر بـاـنـماـ وـالـتـأـكـيدـ بالـقـسـمـ بـلـفـظـ وـالـهـ .

ويؤكد الحسين النوري في وصيته الصوفية بنون التوكيد فيقول : « من رأيته يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقرنه » (٢) .

ويؤكد بديع الزمان بالسين فيقول في وصية لوارث : « وسـيـعـجمـ الشـيـطـانـ الـآنـ عـودـكـ » (٣) .

ومن الوسائل التي يلجأ إليها الموصون للتأكيد توالى المطوفات مفردات وجملـاـ بـمـعـنىـ وـاحـدـ أوـ مـتـقـارـبـ ، يقول المنصور لـابـنـ المـهـدىـ : « فالـسـلـطـانـ يـاـيـنـىـ حـبـلـ اللهـ المـتـينـ ، وـعـرـوـتـهـ الـوـثـقـىـ ، وـدـيـنـ اللهـ الـقـيمـ ، فـاحـفـظـهـ وـحـطـهـ وـحـصـنـهـ وـذـبـعـهـ وـأـقـعـهـ بـالـلـهـدـيـنـ فـيـهـ وـاقـعـهـ الـمـارـقـيـنـ مـنـهـ وـاقـتـلـهـ الشـيـطـانـ الـآنـ عـودـكـ » (٤) .

ويقول أبو بكر الخوارزمي موصيا بمسايرة الزمان : « امش مع الدهر

(١) كتاب البخلاء ص ١١١ - بتصرف .

(٢) تلبيس المليس ص ١٦٨ .

(٣) الـيـتـيـمـةـ جـ ٤ـ صـ ٢٨٩ـ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ .

كما يمشي ، واجر مع الفلك كما يجري ، وارفق بمن رفقت الأيام به ، وارع
لم رعت السعادة له ، ولا تزاحم الفلك الدوار ، ولا تناطح الأقسام والأقدار ،
ولا تصغر الكبار » (١) .

ولَا نرى فِي الْوَصَائِيَا مَحَاوِلَاتٍ لِاظْهَارِ الثِّقَافَاتِ وَالْمَعَارِفِ إِلَّا نَادِرًا ،
وَمِنْ ذَلِكَ مَا نَرَاهُ عِنْدَ الْجَاحِظِ حِيثُ يُورِدُ وصِيَةً خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ لِابْنِهِ ، وَيَحَاوِلُ
فِي تِلْكَ الْوَصِيَّةِ اِظْهَارَ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَخَبْرَتِهِ بِالْحَيَاةِ وَبِالْغَةِ ، وَنَقْبِسُ مِنْ
الْوَصِيَّةِ جَمِلاً تَكْشِفُ عَنْ ذَلِكَ . يَقُولُ :

« قَدْ بَلَغْتُ فِي الْبَرِّ مِنْقُطَعَ التَّرَابِ ، وَفِي الْبَحْرِ أَقْصَى مِبلغِ السَّفَنِ ،
وَلَوْ رَأَيْتُ تَمِيمَ الدَّارِيَ لَأَخْذَ عَنِ صَفَةِ الرُّومِ ، وَلَأَنَا أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَمِنَ
دِعَمِيَّصِ ، أَتَأْتُ لَوْ ذَهَبْتُ مَالِيَ لِجَلْسَتْ قَاصِّاً ، أَوْ طَفَتْ فِي الْأَفَاقِ كَمَا كُنْتُ
مَكْدِيَا ، وَصَرَّتْ مَحْتَالًا بِالنَّهَارِ ، وَاسْتَعْمَلْتْ صَنَاعَةَ اللَّيلِ ، أَوْ خَرَجْتْ قَاطِعَ
طَرِيقِ ، أَوْ صَرَّتْ لِلْقَوْمِ عَيْنَا ، وَلَهُمْ مجَهْرَا ، سَلَ عَنِ صَعَالِيكَ الْجَبَلِ ،
وَزَوَّاقِيلَ الشَّامِ ، وَزَطَ الْأَجَامِ ، وَرَعَوْسَ الْأَكْرَادِ وَمَرْدَةَ الْأَعْرَابِ ، وَفَتَاكَ
نَهْرَ بَطِ ، وَلِصُوصَنَ الْقَفْصِ ، فَكُمْ مِنْ دِيمَاسَ قَدْ نَقْبَتَهُ ، وَكُمْ مِنْ مَطْبَقَ قَدْ
أَفْضَيْتَهُ ، وَكُمْ مِنْ سَجْنَ قَدْ كَابَدَتَهُ » (٢) .

وَأَحَسْبَ أَنَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ كَانَتْ مِنَ الْعَوَالِمِ الَّتِي أَوْحَتْ لِبَدِيعِ الزَّمَانِ
الْهَمْذَانِيَّ بِمَقَامَاتِهِ الشَّهِيرَةِ ، وَكَانَ الْجَاحِظُ مِنْهُ سَمِعَ الْعَالَمَ الْعَرَبِيَّ وَبِصَرِهِ ،
وَقَدْ تَحْدَثَ عَنْهُ بَدِيعُ الزَّمَانِ فِي مَقَامَاتِهِ ، وَكَانَ بَدِيعُ الزَّمَانِ ذَا مَخْيِلَةً لَاقِطةً ،
وَقَرَأَ عَنِ الْقَاصِ وَالْجَوَالِ فِي الْأَفَاقِ وَالْمَكْدِيِّ وَالْمَحْتَالِ وَالْزَّوَّاقِيلِ وَمَا إِلَى
ذَلِكَ ، فَاتَّخَذَ مِنْ هَذَا الْإِحْتِيَالِ وَمِنَ الْكَدِيَّةِ مُوْسَوِعَاتٍ شَائِقَةً دَارَتْ حَوْلَهَا
مَقَامَاتِهِ .

وَيَتَرَوَّحُ أَسْلُوبُ الْوَصَائِيَا بَيْنَ الْلَّيْنِ وَالشَّدَّةِ ، وَيَغْلِبُ الْلَّيْنُ عَلَى
عَلَى أَسْلُوبِ الْوَصَائِيَا لَأَنَّ الْوَصِيَّ حَرِيصٌ عَلَى اِجْتِذَابِ مِنْ يَوْصِيهِ ، وَغَالِبًا

(١) كتاب رسائل الخوارزمي ص ٧

(٢) كتاب البخلاء ص ١٣١

ما تكون الوصية صادرة من حريص على مصلحة من يوصيه وشقيق عليه ، وأحيانا تكون الوصية مصحوبة بالتهديد أو التوبيخ اذا كان في موافق السخط والزجر .

ومن أوائل الوصايا التي يسود أسلوبها العنف والتهديد وصية الخليفة المنصور لأبي مسلم الخراسانى اذ يقول له : فع أيها الطائش ، وافق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مغدور بأضغاث أحلام كاذبة فى برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك ، فلا تفتر بمن معك من شيعتى وأهل دعوتى ، فكتئهم قد صالحوا عليك بعد أن صالحوا معك ، احذر البغي أبا مسلم ، فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ونصر عليه من يصرعه للbidin والغم » (١) .

رتبدو الشدة والعنف فى وصايا الخلفاء للقاده الذين يرسلونهم لتأديب العصاة والمفسدين ، وفي وصية الرشيد لهرثمة بن أعين حينما أرسله لعزل على بن عيسى واعتقاله وارساله الى الخليفة يقول الرشيد : « فان ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق للمسلمين فدفعوا بها واجدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله ، وأليم نقمته ، فإذا خرجوا من حق كل ذق حق أشخاصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء ، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس الى باب أمير المؤمنين » (٢) .

وتكثر الاساليب الانشائية فى أسلوب الوصايا وخصوصا الأمر والنهى ، لأن الوصية أوامر ونواه يريد الموصى أن يبلغها لمن يوصيه ، وقد تأتى الوصية فى صور أخرى كما سنبين فى حديثنا القادم .

ويأتى الأمر اما بصيغة فعل الأمر كما نرى فى وصية الرشيد المؤدب ابنه الأمين حيث تتوالى أفعال الأمر : « كن له بحيث يضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره م الواقع الكلام ، وامنعه الضحك الا فى أوقاته » (٣) .

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ - بتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٨ بتصرف .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ - بتصرف .

وقد تتوالى الأوامر في الشعر ، ومما جاء في وصايا المقامات :

نوق و مخرق وكل وأطبق واسرق وطلبق لمن يزور (١)

وقد تأتى الاوامر بصيغة المضارع المقربون بلام الأمر . يقول محمد بن الليث لمعffer بن يحيى البرمكي : « فليكن قلمك بحريا ، ول يكن مدادك صافيا ، ول يكن قرطاسك رقيقا » (٢) .

ويأتي الأمر بصيغة اسم الفعل كما في قول الشافعى لهارون الرشيد :
« عليك بكتاب الله الذى لا يضل المسترشد به ، وعليك بسنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم » (٢) .

ويأتي النهي في صيغة الفعل المضارع المقرب بلا النهاية ، كما نرى في قول الأمين يوصى قائده أحمد بن مزيد حين وجهه لحرب المؤمنون : « لا تقدم رجلاً إلا باستخاراة ، ولا تشهر سيفاً إلا بعد اذار ، ومهما قدرت باللين فلا تتعدى إلى الخرق والشرة ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفى عندي ، ولا تستبقيها فيما تتخوف رجوعه على ، ولا تخذله ان استنصرك ، ولا تبطئ عنه اذا استنصرت » (٤) .

وقد يقترن الفعل بنون التوكيد كما في قول الرشيد مؤدب الأمين :
ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها « (٥) » .

وقد يستعمل الموصى أسلوب التحذير ، يقول الحسين بن علي بن يزدانيار أحد متصرفوفة القرن الرابع :

• «إياك أن تطمع في الانس باهله وأنت تحب الانس بالناس»

(١) **بِيَتِمَةُ الْدَّهْرِ جَ ٣ ص ١٧٦ - المطبعة الحفنيَّةُ .**

٢) العقد الفريد ح ٤ ص ١٩٥

٨٩ ص ٩ حلة الاولاد (٣)

(٤) تاريخ الطبع، ج ٨، ص ٤٢٢.

: ۲۰) و ۳۲) میلے ۲۰۰ (۸)

وأياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول .

وأياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس»^(١) .

وقد يتوالى الأمر والنهي كما في قول عبد الله بن خبيق أحد متصوفة القرن الثالث : « انظر عينك ولا تنظر بها مala يحل ، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله تعالى خلافه من قبلك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد »^(٢) .

وتعد الأساليب الانسائية في الوصايا بدرجة أقل من الأمر والنهي ، ويأتي النداء في حالتي الرضا والغضب ، ويكترا النداء في وصايا الآباء لأبنائهم للتودد إليهم ، والمهدى يوصى ابنه الهادى فيناديه ويكرر النداء فيقول:

« أى بنى ، إنك قد أصبحت لسمت عيون الناس نصباً ، ولمني أعطاف الرعية غاية ، أى بنى ، ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها »^(٣) .

ويوصى الحلاج أحد تلاميذه فيقول : « يا ولدى »^(٤) ، ويوصى الرشيد مؤدب الأمين فيبدأ الوصية بقوله : « يا أحمر »^(٥) ، ويوصى أبو تمام البحترى فيبدأ الوصية بقوله : « يا أبا عبادة »^(٦) .

ويرد النداء في مواقف الغضب ، وحدث أن المنصور كان يخطب ، وذكر الناس بالله ، فاعتراض معرض فقال : « أيها الإنسان ، أذكرك من ذكرت به »، ورد المنصور : « وأنت أيها القائل ، فوالله ما أردت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعقوب فصبر »^(٧) .

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٨ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ - بتصرف .

(٤) أخبار الحلاج ص ٢٩ .

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ .

(٦) زهر الأدب ج ١ ص ١٥٢ .

(٧) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٩٠ .

وفي وصية أبي الفتح الاسكندرى لابنه يناديه : « يا ابن الخبيثة » ، ثم يناديه « يا ابن المشئومة » (١) .

ويتوالى الاستفهام فى وصية ابن العميد لابن بلكا عند استعصاره على ركن الدولة ، ومن ذلك : « كيف وجدت مازلت عنه ؟ ، وكيف تجد ما صرت اليه ؟ ، ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ؟ .. ففيما الان أنت من الأمر ؟ ، وما العوض عما عدلت ؟ والخلف مما وصفت ؟ ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونفخت منها كفك ، وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ » (٢) .

وقد يأتي الأسلوب خبريا لفظا انشائيا معنى كما فى قول المنصور فى وصيته لابنه المهدى : « هذه وصيتي إليك ، والله خليقتي عليك » (٣) وهو فى المعنى دعاء أى « اللهم اخلفنى عليه » .

ويقول أحمد بن مزيد لل الخليفة المؤمنون : « أوصني - أكرم الله أمير المؤمنين - » (٤) وهو جملة دعائية فى المعنى ، أى : اللهم أكرمه .

ويأتي أسلوب القسم أيضا كما فى قول الثوري : « والله لو حملتم أنفسكم على البذر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت لوجدتموها سريعة القبول » (٥) ، ويقول المنصور لابنه المهدى متحدثا عن عيسى بن موسى : « وبالله لو لم يكن الا أن يقول قوله لما خفته عليك » (٦) .

وقد يأتي بالفاظ أخرى ، وفي وصية الرشيد للأمين والمأمون بولاية العهد يقول :

« وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمم المسلمين

(١) مقامات بدع الزمان ص ١٤٤ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٤) تزريح الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٥) المرجع نفسه .

(٦) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين»^(١) .

وترد الصلاة على النبي عندما يرد ذكره في كثير من الأحيان ، ومن ذلك ما ورد في وصية المنصور لابنه المهدى : « احفظ يابنى محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته يحفظ الله عليك أمورك »^(٢) ، ويوصى الأوزاعى الخليفة المنصور فترد الصلاة على النبي في وصيته أربع مرات كما في قوله : « وقال صلى الله عليه وسلم : ما من راع بيت غاشا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة »^(٣) ، ويقول طاهر بن الحسن في وصيته لابنه عبد الله : « ثم اتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٤) .

وفي مقامات بديع الزمان الهمذانى يقول : « لما جهز أبو الفتح الاسكندرى ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم »^(٥) .

وتقى الجمل الاعتراضية في الوصايا ، ذلك لأن الوصايا تهدف إلى النصح والتوجيه ، والناصح في معظم الأحوال لا ينافق ولا يتملأ ، وإنما تكثر الجمل الاعتراضية في مواقف التعظيم حيث تأتى الجمل الدعائية معتبرضة في الحديث ، ولذلك زادت الجمل الاعتراضية في القرن الرابع حين سادها التأقى ، وحين صدرت عن كبار الكتاب الذين يكتبون في الدواوين ، أو يكتبون الخلفاء ، أو يكتبون باسمهم .

ونرى هذه الجمل الاعتراضية الدعائية أحياناً كما في وصية أعرابية لابنها ، حيث تقول : « أى بنى أجلس أمنحك وصيتك - وبasha توفيقك »^(٦) وهذه جملة دعائية صادرة من أم لابنها . ومن الجمل الاعتراضية الدعائية

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٧٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٣ .

(٥) مقامات بديع الزمان ص ١٤٤ .

(٦) زهر الأدب ج ٢ ص ٤٣٨ .

ما جاء في قول أَحْمَدُ بْنُ مُزِيدٍ قَائِدُ الْأَمِينِ حِينَ دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ فَقَالَ :
« أَوْصَنِي - أَكْرَمُ اللَّهَ أَكْرَمُ الْأَمِيرِ - » (١) .

ومن الجمل الاعتراضية الدعائية ما كتب به الصاحب بن عباد موصيا بالقاضي الجرجاني : « قد تقدم وصفى للقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني - آدام الله عزه - إلى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش - آدام الله تعالى علوه - ليستعجل انكفاوه إلى بما يرسم - آدام الله تعالى أيامه - » (٢) . وهنا ثلث جمل اعتراضية توضح ما أشرنا إليه من كثرة الجمل الدعائية في وصايا القرن الرابع .

وقد يأتي الاعتراض بالنداء كما في قول المنصور في وصيته لابنه المهدى : « فالمسلطان - يابنى - حبل الله المتن » (٣) والنداء هنا للتودد والتعاطف .

وتراوح الوصايا بين الإيجاز والمساواة والاطناب ، وكان الإيجاز هو الغالب على الوصايا في القرن الثاني ، وكانت يعودون الإيجاز مظهراً من مظاهر البلاغة ، وأوصى جعفر بن يحيى البرمكي بالإيجاز فقال : « إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » (٤) .

على أتنا نجد قليلاً من الوصايا المطولة في تلك الفترة ، وعلى رأسها وصية الإمام مالك للخليفة هارون الرشيد .

واستمرت الوصايا الموجزة في القرن الثالث ولكن المساواة غلت في هذا القرن ، ومن الوصايا الموجزة ما كتبه المؤمن إلى عمرو بن مسعة : « يا عمرو ، اعمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » (٥) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ - بتصرف .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٤) زهر الأدب ج ١ ص ١٩٩ .

(٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ .

ومن الوصايا المطولة وصية الموفق لأحد رجاله حين ولاه الصلاة وال الحرب والأحداث وتقع في ست صفحات كبيرة ، وتجمع بين السياسة والاجتماع والدين ، وكذلك وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، وتقع في تسع صفحات ، وقد تدارسها الناس وحفظوها .

وفي القرن الرابع قلت الوصايا الموجزة ، ومالت الوصايا إلى الطول حيث كان كبار الكتاب يكتبون الوصايا نيابة عن الخلفاء والوزراء ويحاولون اظهار مقدرتهم الفنية ، ومن الوصايا الموجزة وصية الصاحب ابن عياد : « اذا ولاك سلطانك فزده من التعظيم واحذر وراقب . »

فما السلطان الا البحر عظما وقرب البحر محذور العواقب»(١)

وجاءت بعض وصايا الصوفية موجزة كما في قول أبي سعيد بن دار ابن الحسين الشيرازي : « لا تخاصم لنفسك فإنها ليست لك ، دعها لمالكها يفعل بها ما يريد » (٢) .

أما الوصايا المطولة فنجدتها كثيرا عند كبار الكتاب من أمثال ابن العميد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبي اسحاق الصابي ، وقد قدمنا نماذج منها .

وفي القرنين الثاني والثالث نرى الجمل تميل إلى القصر أو التوسيط ، ومن الجمل القصيرة قول الرشيد مؤدب ولده الأمين : « أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن »(٣) . ويقول المؤمن لبعض ولده : « ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفل حجاج خصميه ، بمسكتات حكمه »(٤) .

(١) زهر الأداب ج ٣ ص ٧٣٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٩ .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ .

(٤) زهر الأداب ج ٣ ص ٧٧٥ .

ومن الجمل المتوسطة قول الرشيد: «أما بعد ، فانظروا من التزم الأذان
عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء » (١) .

أما الجمل الطويلة فلا ترد في الوصايا لأنها إنما ترد في مواقف الجدل والمناقشة ، والموقف هنا لا يحتمل الجدل والمناقشة لأنه من جانب واحد .

وفي القرن الرابع ظل الحال هنا كما كان عليه ، وقد عنى الكتاب بأسلوبهم ، وظهرت هذه العناية في أدب الوصايا ، وهذه العناية لا تتطلب طول الجمل ، بل إنها تتطلب قصر الجمل ليزيد ايقاعها قوة وتزييد موسيقاها ووضوها ، كما في قول ابن العميد : « ألم تكن من الأولي في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل (٢) .

وقد تميل الجمل الى التوسط كما فى قول بديع الزمان : « العزاء من الأعزاء رشد كأنه الغى ، وقد مات الميت فليحيى الحي ، واشدد على حalk بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس » (٣) .

وتاتى معظم الوصايا نثرا ، وتاتى أيضا شعرا كما فى وصايا أبي العتاهية والمتتبى ، وقد يمترز فيها الشعر بالنثر ، كما فى قول يحيى ابن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم نخذ منه ، فان المرء عدو ماجهل ، وأنا اكره ان تكون عدو شيء من العلم ، وأنشد :

تفنن و خد من کل علم فانما
فانت عادی للذی انت جاہل

وترد الوصايا بضمير المفرد للمتكلم وللمخاطب أيضاً، إلا إذا خاطب جماعة، أي أن الموصى لا يلحد إلى تعظيم من يوصيه باستعمال الضمير (نا) .

(١) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٨ .

١٦٤ ص ٣ ج الدهر يتيمة (٢)

٢٨٩ ص ٤ ج الدهر يتيمة (٣)

٤١ - أدب الدنيا والدين ص

يقول أبو جعفر المنصور : « هدا كتاب وصيتي مختوما » (١) ولم يقل : « كتاب وصيتنا » . ويقول لأبي مسلم الخراسانى : « فلا تفتر بمن معك من شيعتنا وأهل دعوتها » (٢) . ولم يقل : « شيعتنا وأهل دعوتنا » ، ولما حضرت الوفاة ابن عباد أوصى فخر الدولة ابن بويه فقال له : « قد خدمتك خدمة استفرغت فيها وسعي ، فان أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل اليك وتركت أنا » (٣) ، ولم يقل : « قد خدمتاك » ، ولم يقل : « قد خدمتكم » ، أو : « فان أجريتم » .

اما قول المنصور : « فان الحكمة علينا نزلت » (٤) فهو لا يتحدث هنا عن نفسه ، وإنما يتحدث عن آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول منصور ابن عمار موصيا بشرا المريسي بعدم الخوض في خلق القرآن : « أما بعد – عافانا الله واياك – » (٥) ولا أظن أنه يدعو لنفسه ، وإنما يدعو لنفسه ولمن عنده ، وكذلك يقول حمدون بن احمد أحد المتصوفين في القرن الثالث : « اذا رأيت سكرنا فتمايل » (٦) والضمير يعود على المتصوفة ، لا على المحدث .

وترد في الوصايا أحيانا عبارات تدل على ذوق رفيع ، ومن ذلك قول ابن المقفع للمنصور : « فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع اليه في كتاب ، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين ، أمضى في كل قضية رأيه » (٧) ويقول الصاحب بن عباد في وصيته بالمقاضي الجرجاني مخاطبا تاش الحاجب : « فان رأى الأمير أن يجعل من حظوظي الجسيمة عنده تعهد القاضي أبي الحسن بما يergus رده » (٨) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ١١٠ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٩٠ .

(٥) الرسالة القشيرية ج ١ ص ١١٢ مطبعة حسان

(٦) الرسالة القشيرية ص ١٨ .

(٧) رسالة الصحابة ص ١٦٨ .

(٨) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ .

(ب) التصوير

أسلوبوصايا من أكثر الأساليب ترسلا وبعده عن التكلف ، وواضح أن ذلك راجع إلى اهتمام الموصين بالمعنى وتوصيله إلى الموصى ، ولذلك كان الاهتمام بالمعنى في المقام الأول . وقد يضمون إلى ذلك الاهتمام بالأسلوب ولكن بدون أن يظهر التكلف .

لا نجد في أسلوبوصايا تكالفا في التصوير ، ولا نجد اهتماما ب>Show the style of theوصايا تكالفا في التصوير ، ولا نجد اهتماما بـShow the style of the الأسلوب بالصور البيانية ، ولا نجد تكالفا في تكوين الصور وتركيبها ، وحتى في وصايا القرن الرابع كبار الكتاب يهتمون بالتركيز وتأكيد المعنى ، وترتدى الصور في عباراتهم لابراز المعنى وتوضيحه أو تجسيمه ، ولكن بدون تكلف أو اغراق في تكوين الصورة .

نقرأوصايا في القرن الثاني الهجري فنرى قليلا من الصور البيانية ، ونحس أنها جاءت عفو الخاطر لتوضيح المعنى المراد وابرازه محسوسا ، ونحس أنها مألفة قريبة إلى النقوس ليس فيها جزء غريب نحس أنه دخيل على الصورة .

وفي وصية المنصور لابنه المهدى يقول له : « وانظر هذه المدينة فاياك أن تستبدل بها فانها بيتك وعزك »^(١) . فتشبيهه مدينة بغداد ببيته تشبيه يشعره بأهمية المدينة له ، و يجعله يطمئن إليها ويستريح لها ، وكأننا نقرأ تعبيرا حقيقيا .

ويقول الخليفة المنصور لأبي مسلم الخراسانى : « أفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم »^(٢) . والسكران والنائم استعارات تصريحيات يجريان على الألسنة ، وكأنهما حقائقتان ، وتجسم الاستعارات غفلة أبي مسلم وجهله بحقائق الأمور .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .

ويقول الرشيد في وصيته لهرثمة بن أيمن : « أمره بتقوى الله وطاعتة ، وأن يجعل كتاب الله اماما » (١) ، فتشبيه كتاب الله بالامام تشبيه مألف محقق للهدف ، ونحن نقف وراء الامام كل يوم ونتبعه في كُل خطواته ، وهذا التشبيه يحث على اتباع أوامر الكتاب اتباعا كاملا .

ويقول الامام مالك للشافعى : « انى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية » (٢) ، يشبه الهدایة بالنور ، والنور يهديننا في سيرنا ، والظلمة شيء محسوس بالنظر لا يستطيع الانسان الابصار والهدایة فيها ، فتشبيه المعصية بالظلمة يبغض المعصية الى الانسان وينفره منها .

وقد يرسم التشبيه بالمحسوس صورة واضحة للمشبه كما في قول محمد بن الليث لجعفر بن يحيى في وصية بشأن القلم : « فابره بربيرا مستوريا كمنقار الحمامه » (٣) وبذلك يرسم صورة واضحة للقلم كما يريد أن يكون .

وفي القرن الثالث ظل الكتاب يجرون على سجيتهم ، وكانت الصور ترد في وصاياتهم عفو الخاطر ، ولم يحاولوا حشدها في أسلوبهم ، وجاءت الصور محسوسة مألفة لا تكشف عن تعمق في الخيال أو تكافف في تكوين الصورة .

وكان الخليفة المأمون كثير التوصية ، وكان أسلوبه جميلا ، وقد كتب إلى عمرو بن مسعدة يقول : « اعمر نعمك بالعدل فان الجور يهدمها » (٤) . وهي وصية في غاية الإيجاز ، وتضم صورتين رائعتين ، فقد شبه النعمة ببناء يعمره ، وشبه الجور بمعول أو بشخص يهدم ، وما استعاراتان مكنيتان ، والنعمة والجور أمور معنوية وهذا التجسيم أو التشخيص يؤدي إلى إبراز الأثر ويدفع إلى الحرث على الوصية .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٢) أعلام الموقعين ج ٤ ص ٢٥٨ - ابن القيم الجوزية . مكتبة الكتب الازهرية .

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ .

(٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ .

ويقول أبي تمام للبحترى في وصيته الأدبية : « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » (١) . وتشبيه الأديب بالخياط يجسم مهمة الأديب في اختيار الألفاظ الملائمة للمعاني ، وأثر الخياط ملحوظ أمام أعيننا.

ومن الصور التمثيلية مانراه في قول المؤمن لولده موصيا : « استشيروا ذوى الرأى والتجربة والحيلة ، وتحملوا مايغلوطن من قول ، أو يكتفون من عيب ، فان من جرعمكم المراة لشفائكم أشفع من أطعمكم الحلاوة لاسقامكم » (٢) .

وفي الجملة الأخيرة استعارتان تمثيليتان ، فقد شبه الشخص الذي يقدم النصيحة المؤلمة بشخص يسبق آخر جرعة مرة ، وشبه الشخص الذي يقدم الكلام اللين الذي يوافق هوى النفس بقصد التضليل بشخص يقدم حلاوة مسمومة ، وربط الموصى بين الاستعارتين التمثيليتين .

هكذا رأينا شيئاً من العناية بالتصوير في أسلوب الوصايا في القرن الثالث الهجرى ، وفي القرن الرابع زاد الاهتمام بجمال الأسلوب ، ولم يعد الأدباء يجرون على سجيتهم ، وإنما لجئوا إلى العناية بالألفاظ والعناء بالتصوير أيضاً والعناية بالسجع والمحسنات البديعية .

ونرى كثيراً من الأدباء يحشدون الصور في وصاياتهم ويفتنون في تكوينها ، ومن الافتنان في تكوين الصورة قول ابن العميد لأبي عبد الله الطبرى : « واركب فى الخدمة طريقة تبعك من الملال » (٣) . شبه الطريقة التي يتبعها في معاملة الرؤساء بدابة يركبها على سبيل الاستعارة المكنية ، والصورة والتعبير هنا غير مطروقين .

وشبيه بها قول أبي بكر الخوارزمى : « ومن قاتل عساكر الاقبال فى

(١) زهر الأدب ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) تحفة الوزراء ص ٨٧ - التعالى .

(٣) زهر الأدب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

أيام كرها هزمته «(١)» . شبه الاقبال بالعساكر ، أو شبه الاقبال بقائد له عساكر ، ونفي عن مقاتلتها ، وهدف الموصى هنا عدم التصدى للرؤساء الذين تقبل عليهم الأيام ويساندهم الحظ .

وقد يفتتن الموصى ويائى بصور متتابعة لشيء واحد ، وكلها تدرج تحت جو نفسي واحد يوائم الهدف الذى يهدى إليه الموصى ، كما فى وصية ابن العميد لابن بلكا يوصيه بالرجوع إلى الطاعة ، ويوازن بين حالتى الطاعة والمعصية فيقول :

«ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عدى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، و肯 كدين ، ومكان مكين ، وحصن حصين» (٢) ، وكلها صور توحى بالسعادة والطمأنينة وتلائم الحالة النفسية التى يريد ابرازها وكلها تكشف عن افتتان وتألق فى تكوين الصور .

ونرى جميع الملوان الصور البىانية المعهودة فى الأدب العربى ، وفى وصايا القرن الثانى الهجرى نرى الصور المطروقة التى يحسبها القارئ حقيقة لا مجازا لمكثرة دورانها على الألسنة ، وفي وصية عبد الله بن معاوية لأبى مسلم الخراسانى بالمرفق والعدل يقول :

«وأيرادهم علينا الغموم» (٣) . فاييراد الغموم استعارة مكنية متداولة على الألسنة ، ويقول عبد الملك بن صالح فى وصيته لابنه : «المزاح يورث الضفائن ، وشر ما صحب المرء الحسد» (٤) . وكلها استعارات مكنية مطروقة ، ويقول المهدى للربيع بن أبى الجهم : «وابسط العدل وارفق بالرعية» (٥) . فبسط العدل استعارة مكنية وهى صورة قديمة ، ويقول ابن المقفع : «فإن المعاتبة مقطعة للود» (٦) ، وهى استعارة شبه الود بحبيل .

(١) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٩٨ .

(٢) بستان الدهر ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٤) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٥) العقد الفريد ج ١ ص ٣١ .

(٦) الأدب الكبير ص ١٢٤ .

ومن الكنيات المطروقة قول عبد الله بن معاوية لأبي مسلم الخراساني : « فان الناس من حوضك رواه ونحن منه ظماء »^(١) ، كنایة عن قاتل عامة الناس بالخير في هذا العهد ، وحرمان العلويين منه ، والری من الحياض والظما معهودان منذ الجاهلية ، ويقول الرشيد للأحمر النجوى مؤدب ولده : « قصیر يدك عليه مبسوطة »^(٢) ، كنایة عن السيطرة عليه .

ونرى كثيراً من الصور متاثراً بالإسلام ، ومن ذلك قول أبي حنيفة لابراهيم بن أدهم : « فليكن العلم من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين »^(٣) وهذا استعارات مكنتهان ، شبه العبادة بانسان ، وشبه الدين بخيمة ، وفي وصية المهدى لابنه موسى يقول : « لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور »^(٤) يشبه الضلال بالظلمة ، ويشبه الهداية بالنور .

ونلح في بعض الصور اقتباساً من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ، ومن ذلك قول المهدى لابنه موسى : « يجدد حبل الإسلام »^(٥) متاثر بقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً » . ويقول ابراهيم بن أدهم أحد الزاهدين : « فروا من الناس كفاركم من الناس »^(٦) ، متاثر في استلوبه بقول النبي عليه السلام : « وفر من المجنوم فرارك من الأسد » .

والى جانب ذلك نرى - على قلة - بعض الصور غير المطروقة ، ومن ذلك قول المنصور لابنه : « يابنى ، لا تبرم أمراً حتى تفكّر فيه ، فإن فكرة العاقل مرأته تزيل حسناته وسيئاته »^(٧) ، وهذا يشبه التفكير العميق بالمرأة حيث يكتشف حسناته وسيئاته .

ويقول عبد الملك بن صالح موصياً ابنه : « ولقاح المعرفة دراسة

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) بروج الذهب ج ٢ ص ٣٥١ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٥) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ .

(٦) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٩ .

(٧) نهاية الأدب ج ٦ ص ٤١ .

العلم «(١) ، لما كان العلم ينمي المعرفة ويزيدها شبه المعرفة بشء يلعن ويتكاثر ، وجعل العلم هو الملقح لأن العلم يؤدى إلى تكاثر المعرفة ونموها ، ويكشف هذا عن خيال دقيق يربط بين دقائق الأمر ، ويقول ابن المقفع : « ان من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً فإذا الصغير كبير ، وإنما هي ثم يلتمها العجز والتضييع »(٢) . يشبه استصغر الإنسان للأمور حتى تتعاظم عليه بالثلمه التي تحدث في البناء أو ما يشبهه ، وهذا خيال دقيق .

وقد يضيف المؤصل إلى الصورة جزئية مؤثرة في تحقيق الهدف ، ولو حذفت هذه الجزئية لاختل الهدف من الصورة ، ومن ذلك قول عبد الملك ابن صالح لأمير سرية : « أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذي ان وجد ربحا تجر ، والا احتفظ برأس المال »(٣) . فقد شبه القائد بالتاجر المضارب ، وأضاف (الكيس) لأن المضارب قد يكون أحمق أو عديم الخبرة فيتضيع المال .

ومن الإضافات المؤثرة في الصورة قول يحيى بن خالد البرمكي : « اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق »(٤) . وهنا اضافتان حيث أضاف (العاقلة) إلى المرأة ، فليست كل امرأة تدارى زوجها ، وأضاف (الأحمق) إلى الزوج ، لتبين مدى خطورة مصاحبة السلطان ، وإلى أى حد يجب مداراته .

ونرى في هذه الصور تشبيه المحسوسات بالمحسوسات ، وتشبيه المعنويات بالمحسوسات ، أما تشبيه المحسوسات بالمعنىات فلا نجد في أدب الوصايا في هذه الفترة ، وهو قليل في الأدب العربي ، ومن تشبيه المحسوس بمحسوس قول محمد بن الليث لجعفر بن يحيى في القلم : « فايده بريدا

(١) البيان والتبين ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) الأدب الصغير ص ٥ من رسائل البلاء .

(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) المستطرف ج ١ ص ٢٠٣ .

مستريا كمنقار الحمامه «١) . ومن تشبيه المعنوی بمحسوس قول المهدى
لابنه موسى : « لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية الذور » (٢) .

ونرى الصور الكلية والخيال التمثيلي - على قلة - ، ومن أمثلة ذلك
قول ابن المفع في كتابه (الأدب الصغير) : « لا يمنعك صغر شأن امرئ
من احتباء مارأيت من رأيه حوابا ، فان المؤلئة الفائقة لا تهان لهوان
غائزها الذى استخرجها ۰۰۰ لا يتم حسن الكلام الا بحسن العمل ، كالمريض
الذى قد علم دواء نفسه ، فادا هو لم يتداوى به لم يفنه علمه ، والرجل
ذى المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يهاب وان كان عقيرا ، والرجل
الذى لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وان
طوق وخلخل » (٣) .

هنا أربعة تشبيهات تمثيلية ، شبه الرأى الصائب يصدر من الرجل
الصغير الشأن بالمؤلئة الفائقة يستخرجها غواص صغير الشأن ، وشبه
الرجل يتكلم ولا يعمل بالمريض يعرف الدواء ولا يتداوى به ، وشبه الرجل
يتكلم ولا يعمل بالمريض يعرف الدواء ولا يتدارى به ، وشبه الرجل ذا المروءة
يكرم على غير مال بالأسد يهاب (وهو جريح) وشبه الرجل عديم المروءة يهان
وان كثر ماله بالكلب يهون على الناس وان طوق وخلخل .

ومن التشبيهات التمثيلية التي وردت في الوصايا الشعرية قول أبي
العتاهية للرشيد :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
ان السفينة لا تجرى على الييس (٤)

شبه الانسان الذي يرجو النجاة من عذاب الله ولا يأتي بالأعمال الصالحة
بالسفينة يراد تسخيرها على الأرض بدون ماء .

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٣) الأدب الصغير ص ٩ رسائل البلفاء .

(٤) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٨ .

وفي هذه الصور يكثر التشخيص والتجمسيم ، والتجمسيم ابراز المعنى
عى صورة حسية ، تدرك باحدى الحواس ، أما التشخيص فتشبيه المعدوم
الحياة بالانسان الذى يحس ويدرك ، ومن التجمسم قول عبد الملك بن صالح
لابنه : « المزاح يورث الضغائن »^(١) . والضغائن شئ معنوى شبهه بمال
الذى يورث ، وجاء فى الوصية نفسها : « وشر ما صحب المرء الحسد »
وهذا تشخيص حيث شبه الحسد وهو معنوى بشخص يصاحب ، وهذا هو
التشخيص .

والخيال فى هذه الصورة خيال استحضارى يستحضر الصور الموجودة
ويربط بينها وبين المشبهات ، وقد يكون الربط قريبا ملحوظا بدون تعمق فى
التفكير والتخيل ، كما رأينا من تشبيهه كتاب الله بالامام ، وقد يكون الربط
بعيدا لا يدركه ولا يستطيع الربط بين المشبه والمشبه به الا صاحب الخيال
اللاقط ، كما رأينا من تشبيه الرأى الصائب يصدر من الرجل الصغير الشأن
باللؤلؤة الفائقة يستخرجها غراص حقير الشأن .

ولا يحاول المؤصنون أن يبرزوا المشبه فى صور عديدة ، ولذلك لا نرى
الصور تتوالى فى الموقف الواحد ، ونادرًا ما تتوالى صورتان على معنى واحد
كما فى قول المنصور لأبي مسلم : « أفق أيها السكران ، وانتبه أيها
النائم »^(٢) .

ويتحقق الصدق الفنى فى هذه الصور فيقبلها الخيال والذوق لأنهم
لا يتكلفون فى تكوين الصورة ولا يبالغون مبالغة منفرة ، وحقا أن التصوير
الفنى لا يخلو من المبالغة ولكن المبالغة التى نراها هنا يسيرة مقبولة فى الذوق
والخيال ، فابراهيم بن أدهم يقول فى التنفيير من الناس :

« قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاريا »^(٣)

فتشبيه الناس بالعقارب فيه مبالغة ، ولكنها مبالغة مقبولة لما يلاقى

(١) البيان والتبين ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٢ .

الناس من بعضهم من أذى ، ويقول ابراهيم بن أدهم أيضا في المعنى نفسه : « فروا من الناس كفرا رکم من الأسد الضارى » (١) .

ويوصي العباس بن محمد ابن أخيه الرشيد فيقول : « إنما هو درهمك وسيفك ، فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك » (٢) وحصد الناس صورة توحى بكثرة القتلى ، وهذا يتناسب مع انتقام الخليفة من قوم كفروا نعمته وحاولوا هدم ملكه وسلطاته .

ونرى كل هذه الملامح في التصوير في القرن الثالث الهجري ، ومن الصور القديمة التي تجرى على الألسنة قول طاهر بن الحسين لابنه : « وتفرد بتفويم نفسك ٠٠٠ وأشدد لسانك » (٣) . والجملة الأولى استعارة مكنية شبه نفسه بعود أو رمح يقزم ، والثانية كناية عن عدم الكلام .

ومن الصور المتأثرة بالاسلام قول طاهر بن الحسين لابنه : « ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله ٠٠٠ واعلم أن القضاء بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله » (٤) . والجملة الأولى استعارة شبه أمر الله بالمحبل ، الذي يتمسك به ، والجملة الثانية تشبيه شبه القضاء بميزان الله .

ومن التشخيص قول طاهر بن الحسين لابنه : « ولا تجibin باطلا » (٥) .
شبه الباطل بشخص يناديه .

ومن الصور الجديدة قول أبي تمام للبحترى يوصيه باختيار الفاظه على
قدر المعانى :

« ولتكن كأنك خياط يقطع الشياب على مقابر الأجساد » (٦) .

(١) المرجع نفسه ص ١٣٩ .

(٢) نهذية الارب ج ٦ ص ٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٦ .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٦ .

(٦) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ .

ومن الاضافات المهمة في الصورة قول على بن موسى الرضا :

« لا تغرنك أباطيل المنى
والزم القصد ودع عنك العلل
انما الدنيا كظل زائل
حل فيه راكتب ثم ارتحل » (١)

فوصف الظل بأنه زائل مهم لبيان عدم دوام الدنيا ونعيها، ويدون هذا
اللفظ توحي كلمة (الظل) بالراحة النفسية والطمأنينة .

ومن الخيال التمثيلي قول أحد البخلاء يومي ابنه بمقاومة رغبته في
الفاكهة : « فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة عندك الا مثل
مالقيت منها في نومك » (٢) ، وهو يشبه ما يلقى من العنت في مقاومة رغبته
في الفاكهة بما يلقاء النائم في نومه في الحلم الذي لا يلبث أن ينول .

وقد ذكرنا أن الموصين لا يكترون من المبالغة في التصوير ، ومن المبالغات
القليلة قول أبي سعيد الخراز : « ان ترجع الى نفسك فتدببها بالطاعة ،
وتفارقها وتميتها بالمخالفة ، وتذبحها بالإياس فيما سوى الله » (٣) . وكلها
استعارات فيها مبالغة .

وفي القرن الرابع الهجري بقيت الملامح العامة التي لحظناها في القرنين
الثاني والثالث ، وزاد عليها أنها رأينا زيادة في الاهتمام بالتصوير ، ورأينا
الصور تتواتي في وصايا كبار الكتاب الذين عنوا بالتنمية في أسلوبهم ،
ورأينا افتنانا في تكوين الجسور الكلية ، وقليلا من التشبيه بالمعنييات .

نرى الصور القديمة في قول أبي بكر الخوارزمي : « فاني أرى للشيخ
أن يلبس ثوبا من الصبر » (٤) شبه الصبر بثوب ، ويقول الصاحب بن عباد :

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥٠

(٢) كتاب البخلاء ص ٩٨

(٣) اللمع ص ٣٤٤ ، ٣٢٥

(٤) كتاب رسائل الخوارزمي ص ٩٨

وتشبيه السلطان بالبحر قديم .

ومن الكنایات المتأثرة بالاسلام قول رویم بن احمد أحد المتصوفة يوصى
أبا عبد الله بن خفیف بشأن التصوف : « ما هذا الأمر الا ببذل الروح » (٢)
ويذل الروح كنایة عن الانصراف التام عن الدنيا والتلقاني في العمل للأخرفة .

ويبرر المؤمنون بعض الصور القديمة في ثوب جديد ، كما ينتكرون صوراً جديدة يربط فيها خيالهم بين أجزاء متبااعدة في الواقع ، ومن ابراز الصور القديمة في ثوب جديد قول أبي بكر الخوارزمي : « لا تزاحم الفلك الدوار ، ولا تنطاخ الأقسام والأقدار ، ولا تجلس على طريق السبيل الراعب ، ولا تعطن في نحر القضاء الغالب »^(٢) ، والتنطاخ قديم ولكن الكاتب هنا يتخيّل الرجل والقدر يتناطحان ، وكذلك يوصي المؤمنون بعدم معاندة القدر ، والخوارزمي هنا يشخص القدر ويجعل له نحراً يطعن فيه الإنسان وهذا عرض للصور القديمة في ثوب جديد .

ومن الكنایات الجديدة قول مسکویه : « حتى لا يفوته شيء من العلوم والمعارف الصالحة لصلاح أولاد نفسه »(٤) ، وأولاد نفسه كنایة عن الأمانى والأمال .

ومن التجسيم قول ابن العميد : « واركب فى الخدمة طريقة تبعدى من الملال »^(٥) وقد جسم الطريقة التى يسلكها وجعلها دائمة يركبها .

ومن الربط بين أشياء متباينة تشبه أبي الحسن الماوردي للرجل الذي

(١) زهر الأدب ج ٣ ص ٧٣٠

٢٠ الرسالة الفشيرية ص (٢)

^٧ (٣) كتاب رسائل الخوارزمي ص ٧

١٧ - (٤) معلم الأدباء ح ٥ ص

١٠٦٤ ص: ٤ ح: الأدب زهر (٥)

يتخلى عن المروءة بالحجر الثقيل حيث يهبط كل منها إلى القاع بسهولة ، ويصعب رفعه إلى أعلى ، يقول : « ذو المروءة يرتفع بها ، وطاركتها يهبط ، والارتفاع صعب ، والانحطاط هين ، كالحجر الثقيل الذي رفعه عسير ، وحطه يسير » (١) .

ويفلسف بديع الزمان المرقف فيقول في وصيته لوارث : « العزاء من الأعزاء رشد كأنه الغي وقد مات الميت فليحيى الحي » (٢) ، فالعزاء رشد لأنّه مشاركة للناس في الامم ، ولكنّه يشبه الغي لأنّ الميت مات ولن يحيى مرة أخرى فيجب الانصراف عن التفكير فيه ، ولحيي الحي ، وهكذا كان العزاء رشداً كأنه الغي .

وتتوالى الصور الجديدة في المقامات الوصية لبديع الزمان الهمذاني ، ومن قول أبي الفتح الاسكندرى : « لا آمن لصين ، أحدّهما الكرم ، وأسم الآخر القرم ، واياك واياهما ، ان الكرم أسرع في المال من السوس ، وإن القرم أسلم من السوس ، ودعني من قولهم : ان الله كريم ، أنها خدعة الصبي عن اللبن » (٣) .

وبهذا يشبه الكرم والقرم (وهو الشهوة للحم) بلصين ، لأنّهما يأخذان المال ، ثم يشبه الكرم بالسوس ، والقرم بالبسوس ، والبسوس رمز الشّؤم ، وهي صاحبة الناقمة التي تسببت في حرب دامت أربعين عاماً بين بك وتغلب ، ثم يأتي بتشبيه تمثيلي فيقول : « أنها خدعة الصبي عن اللبن » ، فيشبهه خداع الناس للرجل لصرفه عن ماله بخداع الأم للطفل لصرفه عن الرضاع ، ثم يأتي بتشبيه طريف فيقول لابنه : « ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج ، خذ كل مامعهم ، واحفظ كل مامعك » .

ويوصى المتنبي بعدم الاغترار باكلام المعسول لأنّ الأفئدة تندطوى على الغل والحدق ، ولا بد أن يتفجر العداء يوماً ما ، ويأتي بتشبيه تمثيلي رائع

(١) نهاية الارب ج ٦ ص ١٣٢ .

(٢) بنتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٣) مقامات بديع الزمان الهمذاني ص ١٤٤ .

فقيه يشبه حالة الشخص الذي ينطوي قلبه على الغل بالجرح الذي يندمل على فساد ثم يتفجر بعد ذلك ، يقول المتنبي :

« فلا تغدرك السنّة موال
وكن كالموت لا يرثي لباك
فإن الجرح ينتحر بعد حين
تقابهن أئمة أعادى
بكى منه ويروى وهو صادى
إذا كان البناء على فساد»^(١)

وقد تتوالى الصور الموحية بجو نفسي واحد كما في قول أبي بكر الخوارزمي يوصي وزير خوارزمشاه لما نكب : « فاني رأى للشيخ ان يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثخينا ، ويولى حوادثه ركنا من التماسك ركينا ، وان تجده الأيام حرا ، وان تصيبه الحوادث اذا ذاقته مرا » (٢) .

^{١١٠} زهر الآداب ج ١ ص .

^{٩٨} كتاب رسائل أبي ميك الخوارزمي ص .

السجع والمحسنات البدوية

خضع أسلوب الوصايا لما خضعت له سائر الفنون الأدبية ، ففي القرنين الثاني والثالث ساد الأسلوب المرسل الذي لا يتقييد بالسجع ولا يتكلف المحسنات البدوية وإن تتمتع أسلوبهم بانتقاء الألفاظ الملائمة وتسلسل العبارات وتجنب الابتدا .

يقول يحيى بن خالد : « مساعلة الملوك عن حالها من تحية التوكى ، فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وإن كان عليا فأردت أن تسأله عن حاله فقل : « انزل الله على الأمير الشقاء والرحمة » (١) ، ولا نرى في هذا الأسلوب تكلا ، وهكذا كانت معظم الوصايا في القرن الثاني .

وكان المحسنات تأتي في الوصايا عفو الخاطر حين يتطلبها المعنى ، كما نرى في قول الرشيد يوصي هرشمة بن أعين : « وأن يجعل كتاب الله اماما في جميع ما هو بسبيله فيجعل حلاله ويحرم حرامه » (٢) . وهنا مقابلة بين الجملتين : « يحل حلاله ويحرم حرامه » وهي مقابلة يتطلبها المعنى الذي يعبر عنه .

وكان الموصون يعنون أحيانا بأسلوبهم بدون أن يتزموا فيه السجع ، ونقرأ الوصية فننس أن الموصى لا يسترسل على سجيته وإنما ينتقي الجمل في كثير من الأحيان ، وبيدو أن الموصى كان يهدف في أمثال هذه المواقف إلى أن يكون لأسلوبه وقع مؤثر في نفس من يوصيه ، ونقتطف هنا عبارات من وصية المنصور لأبي مسلم الخراساني اذ يقول له : « أفق إليها السكران ، وانتبه إليها النائم ٠٠٠ إن الله لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ،

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٦٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٧ .

فلا تفتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي ، فكأنهم قد صالحوا عليك بعد أن صالحوا معك ان أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة «(١) . وفي هذا الأسلوب شيء من الأزدواج والسجع .

ونقرأ بعض الوصايا فنحس أن الموصى يقصد الى تجميل أسلوبه بالسجع والمحسنات ، ولكنه لا يتلزم ذلك ، ولا عجب ، فالسجع معروف منذ الجاهلية ، وقد ورد كثيرا في القرآن الكريم ، ولكنه لم يكن يتلزم حتى هذه الفترة الا في القليل النادر ، ونقتبس جزءا من وصية عبد الملك بن صالح لابنه ، وسنرى أنه يقصد الى السجع والمقابلة ، ولكنه لا يتلزم ذلك . يقول : « المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الاسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والاسراف يتبرر الكثير ، ونعم الحظ القناعة ، وشر ما صحب المرء الحسد ، وما كل عورة تصاب ، وربما أبصر العمى رشده وأخطأ البصائر قصده »(٢) ، وهذا يأتي بجملة لا يتبعها بالسجع ، ثم يراعي السجع ، ويعود فيتخلى عنه ، ثم يقصد اليه .

وتطالعنا في صدر الدولة العباسية وصية تلتزم السجع تماما وتهتم بالمحسنات البديعية وهي حالات نادرة لا يمكن الحكم بمقتضاهما بأن الموصين كانوا يتذمرون السجع والمحسنات في القرن الثاني الهجري ، ولكنهما تدل على أن قليلين كانوا يهتمون بالسجع والمحسنات البديعية بدليل هذه الوصية ، وبدليل الرسالة التي أوردها الجاحظ لابراهيم بن سبابة ، والتي بعث بها إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وهي تلتزم السجع من أولها إلى آخرها(٢) ، وهذه الرسالة لا تدخل في الوصايا .

والوصية التي نشير إليها والتي تلتزم السجع وتكثر من المحسنات . وصية بعث بها عبد الله بن معاوية من سجنه إلى أبي مسلم الخراساني يوصيه فيها باتباع العدل ومخافة الله وانصاف أهل بيته . ومطلع

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ - بتصرف .

(٢) البيان والتبيان ج ٤ ص ٩٣ .

(٣) البيان والتبيان ج ٣ ص ٢١٥ .

الوصية : « من الأسيرى يديه بلا ذنب اليه ، ولا خلاف عليه ، أما بعد ، فاتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرغبة ، وألهمك عدل القضية ، فانك مستودع ودائع ، ومولى صنائع ، فاحفظ ودائك ، بحسن صنانعك » (١) .

وفي القرن الثالث الهجرى ظل الحال كما كان عليه بالنسبة لوقفهم من السجع والمحسنات البديعية ، فمعظم المؤصين ينطلقون على سجيتهم فى أسلوب مرسل لا يتکلف السجع ولا يحشد المحسنات ، وفي وصية أحمد ابن أبي داود لأبراهيم بن المهدى يقول : « يا ابراهيم ، اذا نازعت احدا فى مجلس الحكم غلا أعلمك رفعت عليه صوتك ولا أشرت اليه بيده ، ولتكن قصتك أمما ، وطريقك نهجا ، وريحك ساكنة » (٢) ويستمر على هذا النهج المرسل .

وأوصى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله ، وجاءت وصيته مطولة (قدمنا نماذج منها) ونقرا هذه الوصية فنجد الأسلوب المرسل الخالى من التکلف (٣) .

وفي وصايا القرن الثالث أيضا نرى اهتماما بجمال الأسلوب وعنایة بالسجع والازدواج أحيانا ، يقول المؤمن لبعض ولده : « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفل حجج خصميه ، بمسكتات حكمه ، ويمك مجلس سلطانه ، بظاهر بيانه ، ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته ، فلا يزال الدهر أسير كلمته » (٤) .

وكان بعض الصوفيين يهتمون بالسجع فى وصاياهم طلبا لقرة التأثير على من يخاطبونهم ، وكانوا يکثرون من الطلاق لل مقابلة بين حالى الدنيا والآخرة وما يتعلق بهما ، ومن وصايا الحاج لبعض تلاميذه : « يا ولدى

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٨٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ .

(٤) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٧٥ .

حن قلبك عن فكره ، ولسانك عن ذكره ، واستعملهما بادامة شكره «(١)» . وقد تحدثنا فيما سبق عن غموض المعانى ، والذى يعنينا هنا انما هو الاهتمام بالسجع .

ومن وصايا الكتاب البارزين فى القرن الثالث والذين لم يولوا السجع والمحسنات اهتماما وصية أبي الحسن على بن محمد بن الفرات للوزير العباس بن الحسن حيث يقول له : « فليتق الله الوزير ولا ينصب الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام » (٢) .

وكان أبو زيد أحمد بن سهل البلخي من يغلب على أسلوبهم الترسيل ، وقد عاش معظم حياته فى القرن الثالث الهجرى (٢٣٥ - ٢٢٢) ومع ذلك نقرأ له وصية موجزة تلتزم السجع اذ يقول : « شاور فى أمرك من جرب الأمور وخبرها ، وتقلبت عليه الحوادث وبashرها ، لم يوهنه ضعف الهرم ، ولم يغيره حادث السقم » (٣) .

وكتب أبو على البصیر الى عبید الله بن يحيى بن خاقان يوصيه ، ولم يلتزم السجع ولكن وصيته شملت السجع واهتمت اهتماما كبيرا بالطابق والمقابلة والازدواج ، ومن قوله : « لا يخرجك فرط النصح لأمير المؤمنين عن النظر لرعيته ، ولا ايثار حقه عن الأخذ بحقها عنده ، ولا القيام بما هو له عن تضمن ما هو عليه » (٤) .

وهو لا يلتزم السجع هنا ، ولكننا نرى المقابلة بين (ايثار حقه والأخذ بحقها عنده) وبين (القيام بما هو له وتضمن ما هو عليه) ، ونرى السجع

(١) أخبار الحلاج ص ٢٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٩ .

(٣) تحفة الوزراء للشاعبى ص ٨٩ مطبعة العانى ببغداد .

(٤) زهر الأدب ج ٢ ص ٤٣٦ .

والمقابلة والازدواج في مثل قوله : (تمضي مكان الرشد في امضائه ، وترجع مكان الحزم في ارجائه) .

وفي القرن الرابع الهجري سيطر الأسلوب المسجوع ، وظهر هذا الاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية في أدب الوصايا ، ومع ذلك فاننا نجد بعض الوصايا مرسلة الأسلوب لا تولى السجع والمحسنات اهتماما ، وفي وصية أبي الهيجاء لابنه ناصر الدولة يقول : « اذا رأيت السلطان قد رفع من أهلك رجلا ، او الزمان قد نوه به ورئسه ، فاياتك أن تحسده وتشغل نفسك بعذاؤته ، فانك تتعب ولا تصل إلى فائدة ، وتسقط أنت ولا يضره هو » (١) . وتمضي الوصية كلها على هذا النمط المتحرر من القيود .

وظل بعض الصوفية يلجدون إلى الأسلوب المسجوع طلباً لقوة التأثير كما قلنا ، ومن ذلك قول أبي بكر محمد بن موسى الفرغاني : « من ذكر افتري ، ومن صبر اجترا ، وياك أن تلاحظ جبيبا أو كليما أو خليلا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا » (٢) .

وكان كبار الكتاب يلتزمون السجع ويكترون من المحسنات كالطباق والجناس .

وكان أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني يتذمرون هذا النهج في أسلوبهما ، ووضحت هذه الظاهرة في وصاياتهما ، وتقرا وصية الخوارزمي لوزير خوارزم شاه لما نكب ، فنقرأ فيها : « وإن يداري مع ذلك سلطانه ، ويصغر بلسانه اساعته ويكثر احسانه ، ويروض لسانه في الخلوة على شكره ، لثلا يجمع به في الجلوة إلى غيره » (٣) .

ويبدو هنا السجع والازدواج ، ومن المقابلة : (يصغر اساعته ويكثر احسانه) ومن الجناس (الخلوة والجلوة) .

(١) نشور المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تلبيس ابليس ص ١٦٩ .

(٣) كتاب رسائل الخوارزمي ص ٩٨ .

وكتب بديع الزمان الهمذانى يوصى وارثا ، وجاء فى مطلع الوصية : « العزاء من الأعزء رشد كأنه الغى ، وقد مات الميت فليحيى الحى ، واشدد على مالك بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس »(١) وفي هذه العبارة القصيرة التى تلتزم السجع نرى الطباق وال مقابلة بين الرشد والغى ، وبين الميت والحنى ، أو بين (مات الميت ، ويحيا الحى) ، وبين اليوم والأمس ، ونرى الجناس الناقص بين العزاء والأعزاء ، وبين خمس وأمس .

وهكذا نرى أن أدب الوصايا كان موقفه من السجع والمحسنات شبهاً ب موقف سائر الفنون الأدبية ، ولكنه كان أقل تقيداً بالسجع والمحسنات ، حيث كان أدب الوصايا يصدر أحياناً من أنس غير كبار الكتاب الذين التزموا بالسجع والمحسنات .

ونرى في أدب الوصايا سائر اللوان المحسنات البدوية الأخرى ، ومنها الاعتراض وقد تحدثنا عنه في حديثنا السابق عن الأسلوب ، ومنها المناسب أو مراعاة النظير كما في قول المهدى يوصى ابنه الرشيد : « عليك يا بنى يتقوى الله وطاعته فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة »(٢) لما ذكر التجارة ذكر الربح .

ومنها التوشيع وهو أن يؤتى بمثني مفسر باسمين أو بجمع مفسر بأسماء ، ومنه قول بديع الزمان الهمذانى على لسان أبي الفتح الاسكندرى يوصى ولده : « لا آمن عليك لصين : أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم »(٣) ومنها التذليل وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها تركيداً لها ، مثل قول أعرابية توصى ابنها : « وإذا هززت فاهزز كريماً يلين لمهزتك »(٤) . فجملة يلين لمهزتك تذليل : ومنها الاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المراد بما يدفعه مثل قول الرشيد لمؤدب ابنه الأمين : « ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتتم فيها فائدة تفيده ايها من غير أن تخرق .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٢) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٨٣ مؤسسة الوفاء .

(٣) مقامات بديع الزمان من ١٤٤ .

(٤) زهر الأدب ج ٢ ص ٤٢٨ .

به فتميّت ذهنه «(١)» . فجملة (من غير أن تخرق به فتميّت ذهنه) احتراس من أن يلقن المعلومات حتى يرهقه .

ومنها الإيقاع وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها مثل قول المهدى لابنه الهادى يوصيه بأهل خراسان : « فهم عmad الأرض اذا أرجفت كنفها ، وتحتوف الأعداء اذا بربت صفحتها ، ومحضون الرعية اذا تضليلت الحال بها » (٢) وهذا ثلاث جمل تعد من الإيقاع .

ومنها التفرير وهو أن يفرق المتكلم بين أمررين متدرجين تحت جنس واحد ، مثل قول الرشيد : « ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم فاكتبوه فى ألفى دينار من العطاء » (٣) . وقد عطف جملة (من عمر مجالس العلم) على جملة (من طلب العلم) ، وهما متضادان .

ومنها الإيضاح بعد الإيهام ، مثل قول الصاحب بن عباد يوصى تاش الحاجب بالقاضى الجرجانى : « من مظاهرته على ما يقدم الرحيل ويفتح السبيل من بدرقة ان احتاج اليها ، والى الاستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتصرف النجح فيها » (٤) . فقد أبهم أولاً ما يقدم الرحيل ويفتح السبيل ، ثم أوضحه فى الجمل التالية .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ .

(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ .

المطالع والخواتيم

نستطيع أن نقول : إن الموصين لم يتزموا بصيغة محددة يبدون بها وصاياهم ، ذلك لأن الموصين كانوا من طبقات متعددة ، وهناك الخليفة والوزراء ، وهناك الآباء من عامة الشعب ، وهناك رجال الدين والزاهدون والتصوفون ، فالمستويات الاجتماعية والثقافية مختلفة ، فلم يتزم الموصون بصيغة معينة في مطالع وصاياهم .

ومع ذلك نستطيع أن نحدد مجموعة من المطالع غليت على وصايا تلك الفترة ، ونستطيع أن نقول - ونحن مطمئنون - : إن الوصايا كانت تبدأ بالبسملة ، وقد وردت البسملة في بعض الوصايا كما في وصية المنصور لابنه بالخلافة^(١) . وكما في وصية أحمد بن حنبل قبل وفاته^(٢) . ولكنها حذفت من بعض الوصايا وذلك من باب الاختصار ، وكانوا حريصين على البسملة في افتتاح كل كلام .

ونورد الآن المطالع الغالبة في الوصايا ، ونلاحظ أنها كانت تبدأ كثيراً بالنداء ، أما بالكلنية كقول إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني : « يا أبا عبد الرحمن » ، ويقول المنصور لابنه المهدى : « يا أبا عبد الله » ، وأبو تمام ينادي البحترى : « يا أبا عبادة » ، وقد ينادي الآباء أبناءهم بيا بني ، أو : أى بني ، كما في وصية عبد الملك بن صالح لابنه ، ويفتح المهدى وصيته للرشيد بقوله : « عليك يا بني » ويقول الحلاج في وصيته لأحد تلاميذه : (يا ولدى) ، والجنيد يقول لصاحبه (يا أخي) ويوصي عمرو بن عبد أبا جعفر المنصور فيقول : (يا أمير المؤمنين) ، وأبو محمد عبد الله بن خييق أحد متصوفة القرن الثالث يوصي صديقه فينسبه إلى بلده فيقول : (ياخراسانى) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١١١ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٤٠ .

وقد يكون النداء باللقب ، والرشيد يقول المؤدب ولده : (يا أحمد) ، وقد يكون النداء بالاسم ، والمهدى يوصى الربيع بن أبي الجهم فيناديه : (ياربيع) وأحمد بن أبي داؤد يوصى ابراهيم بن المهدى فيقول : (يا ابراهيم) .

وقد تبدأ الوصية بعبارة (أما بعد) كما فى وصية الرشيد بأهل العلم والدين ، وقد تبدأ بعبارة (من فلان) كما فى قول المنصور : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين » ، وفي الوصية التى كتبها عبد الله بن معاوية من سجنه الى أبي جعفر المنصور بدأها بقوله : « من الأسير فى يديه » .

وقد يبدأ الموصى بذلك من يوصيه اذا كان شخصية مسيطرة ، وقد كتب عبيد الله بن عمر الى أبي جعفر المنصور فبدأ الوصية بقوله : « لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين من عبيد الله بن عمر » .

وببدأ أحمد بن حنبل وصيته بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل » ، وببدأ المؤمن بقوله : « هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين » ، وعند رحيل المنصور الى مكة قال للمهدى : « هذا كتاب وصيتي مختوما » ، وببدأ الرشيد وصيته لهرثمة بن أعين بقوله : « هذا ما عهد به هارون الرشيد أمير المؤمنين » .

وقد تبدأ الوصية بالأمر كما فى قول المنصور لابنه المهدى : « اتق الله فيما أعدد اليك . وببدأ طاهر بن الحسين وصيته لابنه بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، عليك بتقوى الله » ، وقال يحيى بن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ به » ، ويقول ابراهيم بن ادhem لرجل فى الطواف : « اعلم أنك ۰۰۰ » ، ويقول أبو سعيد الخراز : « احفظ وصيتي » .

وقد تبدأ الوصية بالتحذير كما فى وصية أحمد بن هارون الرشيد لأبيه اذ يقول : « اياك أن تموت فى سكرتك » ، وفي الوصايا بالأشخاص كثيراً ما تبدأ الرسالة بعبارة (كتابى اليك) كما فى وصية الحسن بن وهب بابن أبي الشيسن اذ كتب الى مالك بن طوق : « كتابى اليك خططته بيدينى » .

وكذلك تتنوع خواتيم الوصايا ، وقد تختتم الوصية بعبارة (والسلام) ، كما في وصية عبيد الله بن عمر لأبي جعفر المنصور ، وختم عبيد الله بن معاوية وصيته لأبى مسلم بقوله : « والسلام ورحمة الله » ، أو يختتم بالمشيئة كما في وصية أبى تمام للبحترى : « فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله » .

وقد تختتم الوصية باية كريمة كما في وصية الرشيد بأهل العلم والدين حيث ختم بالآية الكريمة : « وأطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَنَا وَأُولَئِكُمْ أَنْتُمْ » .

وقد يختتمون بالدعاء ، وختم عبد الملك بن صالح وصيته لابنه بقوله : « وَاللَّهُ يُوفِّقُكَ » وختم الامام مالك وصيته للشافعى بقوله : « وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ » ، وختم المهدى وصيته لأنفنه الهادى بقوله : « أَصْحَبْكَ اللَّهُ مِنْ عَوْنَهُ وَتَوْفِيقَهُ دَلِيلًا يَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَهَارِبًا يَنْطَقُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ » ، وختم المنصور وصيته للمهدى بقوله : « هَذِهِ وصيَّتِي إِلَيْكَ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ » .

وقد يختتم الموصى بالفصيحة كما في قول المنصور للمهدى : « اتق الله فيما خولك وفيما خلفتك عليه » ، وقد يختتم الموصى بالاتجاه إلى الله والتقويض إليه ، يقول أبو سعيد الخراز في ختام وصيته : « وَاللَّهُ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ » .

وقد يختتم بالصلوة على النبي عليه السلام كما في قول المؤمن في ختام وصيته : « حسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة » ، وقد تنتهى الوصية بالنصائح التي يوجهونها ولا يأتون بخاتمة منفصلة كما في قول الفضل بن الربيع يوصى بالحذر في مخاطبة الملوك : « لَأَنَّهُمْ أَنْجَابُوكُمْ أَشْتَدُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدُوكُمْ أَشْتَدُ عَلَيْكُمْ » .

ويبدو أنهم كانوا يوردون في ختام الوصية التي تتضمنها رسالة اسم كاتب الوصية وتاريخ كتابتها ، وقد ورد ذلك في عديد من الوصايا ، وفي

ختام وصية الرشيد لهرثمة : « وكتب امير المؤمنين بخط يده ولم يحضره الا الله وملائكته » ، وجاء فى ختام وصية المهدى للهادى : « وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد » ، وجاء فى ختام وصية محمد ابن عبد الله بن طاهر باستخلاف أخيه : « وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ثلاثة وخمسين ومائتين » .

شخصيات الوصايا

لم تكن الوصايا مقصورة على الحكماء ، فقد صدرت من أشخاص من عامة الناس ولكنها على أي حال تصدر من يدعون المعرفة بحكم علمهم أو مكانتهم أو سنهما أو خبرتهم أو بدافع الشفقة أو العاطفة الإنسانية .

صدرت الوصايا من الخلفاء إلى أبنائهم أو أخوتهم ، والى عمالهم وقادتهم وزرائهم والى شعوبهم ناصحين أو محذرين ، وأوصى الرشيد الأحمر النحوى مؤدب ابنه الأمين ، وصدرت الوصايا من الوزراء أيضا مثل يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع وغيرهما ، وكانت الوصايا من القادة لجنودهم ولرعاياهم .

وصدرت الوصايا إلى الخلفاء من رعاياهم ، فقد كان العلماء والزاهدون والتصوفون يدخلون على الخلفاء ويوصونهم ، وقد يطلب الخلفاء أولئك العلماء ويطلبون وصاياتهم ، وكتب بعض العلماء وصايا مطولة مثل وصية الإمام مالك لهرون الرشيد .

وقد يوصى بعض الزعماء الروحيين القادة والولاة كما في وصية عبد الله بن معاوية لأبي مسلم الخراسانى ، وكما في وصية على عبد الله ابن معاوية لأبي مسلم الخراسانى ، وكما في وصية على بن موسى الرضا لعامة الشعب ، وكتب بعض الأدباء وصايا موجهة إلى الناس عامة ، ومن هؤلاء الأدباء ابن المقفع والجاحظ ، وأوصى العلماء بعضهم ببعض كما في وصية الإمام مالك للإمام الشافعى ، وكما في وصية أبي حنيفة لابراهيم ابن آدهم أحد كبار الزاهدين ، وكان التصوفون يوصون الناس ويوصى بعضهم ببعض ، وأورد ابراهيم بن آدهم وصية شعرية سمعها من أحد الرهبان .

وهناك وصايا لشعراء وعلى رأسهم أبو العتاھيہ والمتّبی ، وكتب بشر بن المعتمر وصية في البلاغة ، وأوصى أبو تمام صديقه وتلميذه البحترى

وصية أدبية ، وأوصى بختي Shaw الطبيب باختيار ما قدم من الشراب وما حدث من الطعام ، وأوصى أبو بكر الخوارزمي مريضاً بالجرب ولم يكن أبو بكر طبيباً متخصصاً .

وأوصى عامة الناس أبناءهم بدفع الشفقة والحرص على المصلحة ، ومن الوصايا النادرة وصية أحمد بن الرشيد لوالده الخليفة ، وكان أحمد زاهداً يعيش من كسب يده ، وأوصى بعض العلماء أنفسهم ، ومنهم شريك القاضي ، وكان يحمل في جيبه وصية لنفسه بالعدل والتقوى ، وكان يقرؤها قبل الجلوس للقضاء ، وكتب ابن مسكويه وصية لنفسه وإن كان يقصد بها عامة الناس .

وهنالك وصايا بالبخل صدرت على السنة أبطال حكايات الجاحظ في كتاب البخلاء ، وقريب منها وصايا المكدين بالاحتيال لكسب المال من كل الوجوه وخداع الناس واحتقارهم ، ووردت هذه الوصايا في مقامات بديع الرمان الهمذاني ، ووردت وصية على لسان أحد المتطفلين وكتب الوصية أبو اسحاق الصابي .

وفي القرن الرابع صارت الوصايا معرضًا لاظهار المقدرة الفنية ، وكتب كبار الأدباء كابن العميد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبي اسحق الصابي وصايا إلى الولاة والقادة يوصونهم بالتزام الطاعة ويرزونن آثارها ، أو يوصونهم بالعودة إلى الطاعة إذا خرجوا عليها ، وكتبوا في موضوعات أخرى كوصية وارث مال ووصية مريض بالجرب ووصايا المكدين والمتطفلين كما أسلفنا .

ولم يكن للمرأة مكانة كبيرة في الوصايا ، ولم تكن المرأة تتولى مناصب هامة تتيح لها أن تقدم وصايا لها لرعايتها ، ولذلك لا نجد للمرأة وصايا إلا قليلاً ، وصدرت هذه الوصايا من أم لابنها ، ووردت وصية من زبيدة أم الأمين توصي أحمد بن مزيد قائد جيش الأمين حين وجهه للقبض على أخيه الأمون ، وفي هذه الوصية توصي زبيدة قائد الجيش بمعاملة المؤمن معاملة حسنة .

القوالب التي تصب فيها الوصايا

وردت الوصايا في صور مختلفة ، فقد وردت في صورة مشافهة ، ووردت في صورة خطبة موجهة إلى عامّة الناس ، ووردت في صورة توقيع موجه إلى شخص معين ، ووردت الوصية في صورة رسالة موجهة إلى شخص بالنصيحة ، أو متضمنة وصية بشخص آخر .

وهناك وصايا مطولة مثل وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، وتقع في تسع صفحات ، وطالت رسالة الإمام مالك إلى هارون الرشيد حتى تجاوزت الثلاثين صفحة ، ، وتشمل وصايا دينية واجتماعية ، وقبلها كتب ابن المفع كتابيه (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) ويشتملان على وصايا متعددة يدور معظمها حول الأخلاق والأداب الاجتماعية ، وألف المحاسبي أحد المتصوفين في القرن الثالث كتاباً عنوانه (الوصايا) ، ويضم وصايا دينية يغلب عليها الطابع الصوفي وكان بعض كبار الرجال يكتبون وصايا قبل موتهم كما فعل المنصور حين كتب وصيته للمهدي ، وكما فعل أحمد ابن حنبل ، وكما فعل الخليفة المؤمن .

وجاءت بعض الوصايا في عهود يكتبها الخليفة بولالية العهد ويوصى ولئن عهده ، أو يكتبها الخليفة لقاض أو أحد أرباب السيف ، أو يكتبها لأحد الأشراف بتقليد نقابة أو ماماثل ذلك ، وكانوا يوصون كل شخصية بما يلائمها .

وجاءت بعض الوصايا في صورة عهد يكتبها الموصى على نفسه ، أو في صورة وصية صريحة يوجهها إلى نفسه ، وقد تأتى الوصية في صورة مناظرة يحاول فيها الموصى إثبات وجهة نظره كما في وصية الإمام مالك للبيث بن سعد بعدم الاجتهاد برأيه ، وضرورة اتباع فتيا أهل المدينة ، وسلم بشر بن المعتمر ابراهيم بن جبلة وتلاميذه وصية بلاغية مكتوبة كان يحملها ، وكان مدوناً فيها آراؤه البلاغية .

وجاءت بعض الوصايا في أبيات شعرية تحمل رأى الشاعر وفلسفته
في الحياة ، وجاءت بعض الوصايا في حكايات أو في مقامات ، وذلك حين
كتب الجاحظ حكايات البخلاء وضمنها كثيراً من وصايا البخلاء ، ثم كتب
بديع الزمان مقاماته ، وضمنها كثيراً من وصايا المكدين .

المدارس الفنية

نتحدث في هذا الكتاب عن أدب الوصايا منذ قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع ، ونلحظ تشابهاً كبيراً بين الوصايا في القرنين الثاني والثالث الهجريين نستطيع معه أن ندرج أدب الوصايا في هذين القرنين تحت أدب مدرسة الطبع .

أما في القرن الرابع فاننا نلحظ اختلافاً كبيراً بين وصايا هذا القرن ووصايا القرنين السابقين ، وعلى ضوء هذا الاختلاف ، وعلى ضوء السمات الفنية لوصايا القرن الرابع نضع أدب الوصايا في هذا القرن ضمن أدب مدرسة الصنعة .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن أدب الوصايا ساير سائر الفنون الأدبية الأخرى من حيث السمات الفنية ، فمن المعروف أن مدرسة الطبع سادت في القرنين الثاني والثالث ، وأن مدرسة الصنعة سادت في القرن الرابع الهجري .

ونورد هنا ما تحقق من سمات مدرسة الطبع في وصايا القرنين الثاني والثالث : -

١ - وضوح الأفكار وسلامتها ، والبعد عن فلسفة المعانى وتعقيدها ، حيث أن هدف الوصى توصيل الأفكار إلى من يوصيه لاقناعه باتباعها ، وهذا يتطلب وضوح الأفكار وسلامتها ، ولم يكن الموصون يهتمون بترتيب الأفكار وترتبطها في الوصايا التي تشتمل على أفكار متعددة ، ونظرة في وصايا ابن المقفع ، ووصية طاهر ابن الحسين لابنه تؤكد ذلك ، ونستثنى من ذلك الوصايا التي تتطلب الترتيب مثل وصية المؤمن قبل موته بفسله وتكتيفه ودفنه وما إلى ذلك .

٢ - الميل إلى الإيجاز ، وكان الإيجاز مظهراً من مظاهر البلاغة في القرن الثاني الهجرى وقد أوردنا بعض الوصايا التي توصى بالإيجاز ، ونلحظ أن هذه الوصايا مالت إلى الطول بعض الشيء في القرن الثالث

الهجرى ، ولم يكونوا يلتجئون الى هذا الاطناب بهدف اظهار الثقافة والمقدرة الفنية ، ولكنهم كانوا يطربون حين يتطلب الموقف ذلك ، كما رأينا فى وصية المؤمن قبيل وفاته ، وكما رأينا فى وصية الموقف لأحد رجاله حين ولاد الصلاة وال الحرب والأحداث ، وظهرت فى هذا القرن بعض الوصايا المطلولة مثل وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله .

٣ - التأثر بالتعاليم الإسلامية وبالتقالييد العربية ، وقد كانت التعاليم الإسلامية مسيطرة على الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، فالعدل بين الناس وت فقد الأحوال والجهاد فى سبيل الله وما الى ذلك من الأمور السياسية والاجتماعية كلها مستمددة من تعاليم الإسلام ، وتحديثوا عن الكتاب والسنة والاجماع ، ولا تكاد تخلو وصية سياسية أو اجتماعية من التعاليم الدينية المباشرة كاللتقوى والاخلاص لله ، كما أن الوصية بتعظيم الشايخ وتقديم الكبير يساير التقالييد العربية المتوارثة ، وكانوا يستشهدون فى وصاياتهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والحكم والأمثال العربية والاقوال المأثورة عن العرب .

٤ - السلامة اللغوية والصحة النحوية وفصاحة الألفاظ ويعدها عن الركاك او لابتذال ، وعدم القصد الى التلاعيب بالألفاظ او الاغرائب . ونادرًا ما نرى القصد الى الاغرائب كما رأينا في بعض وصايا الجاحظ .

٥ - استمداد الصور من الماضي العربي ومن حاضرهم ، ولم يكونوا يتوجهون الى الاغرائب في التصوير أو القصد الى رسم الصور الكلية ، ولم تكن الصور تتزاحم في وصاياتهم لأنهم كانوا يهدفون الى توضيح ما يهدفون اليه والاقناع به ، وغلب على هذه الصور الخيال الاستحضارى الذى يستحضر الصور المخزونة في الذهن ويربط بينها وبين المشبهات ، ولم يكونوا يحاولون الاتيان بالجديد أو تكوين الصور من أجزاء متباude .

٦ - الترسل والانطلاق على سجيتهم وعدم تكلف السجع والمحسنات البديعية ، وما يرد من السجع والمحسنات انما يجيء عفو الخاطر أو لابراز موقف معين ، وردت - على قلة - رسائل التزمت السجع ولكنها نادرة ، والنادر لا حكم له .

وهذه السمات التي أوضحتها تتوافر في أدب مدرسة الطبع ، وهذا ما يجعلنا نحكم بأن أدب الوصايا في القرنين الثاني والثالث يندرج تحت مدرسة الطبع .

★ ★ *

أما في القرن الرابع فاننا نلحظ تغيراً وتجديداً في وصايا هذا القرن ، فقد غلب التائق والتكلف على أدب القرن الرابع بوجه عام ، واتخذ الخلفاء والولاة كتاباً بارزین يكتبون لهم ما يريدون اصداره ، وكان هؤلاء الكتاب يكتبون عن الخلفاء أو الولاة موصين بالتزام الطاعة أو العودة إليها من فارقها ، كما كانوا يكتبون العهود للقضاء ولأرباب السيوف ولنقباء الإشراف ومن على شاكلة هؤلاء ، وكانت العهود التي يكتبونها تخص بالوصايا ، ولم يكونوا يهدفون إلى مجرد الاقناع بهذه الوصايا ، وإنما كانوا يهدفون أيضاً إلى اظهار الثقافة والبراعة الفنية والمهارة اللغوية ، ولذلك فاننا نحكم بأن أدب الوصايا في القرن الرابع يندرج تحت مدرسة الصنعة .

وأهم السمات الفنية التي تتوافر في وصايا القرن الرابع :

١ - الغوص على المعانى وتوليدها ، وصارت الوصايا معرضًا لاظهار البراعة الفنية ، وجمعت الوصايا بين سلامة المعانى وترتبطها ، وجمعت بين الاقناع والتأثير العاطفى وتقليل المعنى على مختلف وجوهه ، وتوليد المعانى الدقيقة بحيث تبرز الفكرة في معارض عديدة .

٢ - التأثر بالثقافة الإسلامية ، وبثقافات عصرهم ، وأحداث الحياة الجارية ، وظللت الوصية بالنقسوى غالبة على الوصايا ، وظللت النظرة الإسلامية مسيطرة على الوصايا السياسية والاجتماعية ، كما تأثروا بأحداث عصرهم ، وطرقت الوصايا موضوعات جديدة ، فأبو بكر الخوارزمي يوصى مريضاً بالجرب ، والمكون يوصون باستغلال الناس وجمع المال بشتى الطرق ، ويكتب أبو اسحاق الصابى وصية بالتطفل على لسان أحد المطفلين .

٣ - مالت الوصايا إلى الاطنان وقل الإيجاز ، وقد تحتوى الوصية

على أفكار محدودة ، ولكنهم كانوا يقلبون المعنى على كل وجه ويبزونه في مواضع شتى وصور مختلفة مما أدى إلى غلبة الاطناب ، وجاء هذا الاطناب كاشفا عن براءة ودقة نظر ، وكثرت المترادفات التي تقوارد على معنى واحد .

٤ - ظل الموصون يحافظون على السلامة اللغوية والصحة النحوية ، ورصفانة التعبير ، وتجنبوا الركاكاة و الابتدا ، وقلت الألفاظ المعجمية .

٥ - اهتموا بالتصوير وحشدوه كثيرا من الصور في بعض وصاياتهم ، وجمعت هذه الصور بين الخيال القديم المطروق والخيال المتاثر بالحياة العصرية ، وظل الخيال الاستحضراري غالبا وان لم تعدم الخيال الابتكاري ، وجمعوا في صورهم بين المحسوسات والمعنيات ، وتجنبوا التكلف في هذه الصور والجمع بين أجزاء متباude لا يستسيغها الذوق والخيال .

٦ - الاكتثار من المحسنات البديعية والتزام السجع في كثير من وصايات هذا القرن ، وكان هذا مماثلا لما ظهر في سائر الفنون الأدبية ، وكان هؤلاء الكتاب نوى مقدمة فنية بحيث لم تفسد هذه السجعات والمحسنات معانيهم ، ولم تشق على السمع ولم يمجها الذوق ، بل ان هذه السجعات والمحسنات أضفت على الأسلوب في معظم الأحيان ، موسيقية وجمالا .

خاتمة

تمثل الوصايا لوناً أدبياً هاماً في فنون الأدب العربي إذ تكشف عن المبادئ والأهداف التي تعتقدها المجتمعات وتسعى لتحقيقها ، وقد عالجت في هذا البحث النقاط التالية : -

١ - عرضت في صدر هذا البحث للوصايا في العصر الجاهلي ، ثم في العصرين الإسلامي والأموي ، وأعطيت لحة واضحة عنها ليتبين لنا مدى التطور الذي طرأ على الوصايا في العصر العباسي .

٢ - تناول هذا البحث أدب الوصايا منذ قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، وتمتد هذه الفترة ما يقرب من ثلاثة قرون ، وقد اتسم كل قرن بسمات معينة وكان القرن الثالث أشد شبهاً بالقرن الثاني ، ثم حدث تطور كبير من حيث الناحية الفنية والطريقة التي اتخذها الكتاب لعرض وصاياتهم .

٣ - عرضت الموضوعات التي تناولتها الوصايا ، ووضحت لنا أن الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية كانت تلتزم بمبادئ الإسلام ، وكانت هذه الألوان الثلاثة تمتزج في هذه الوصايا ، وكانت الوصية بتفوي الشغلة في كثير منها .

وفي القرن الرابع الهجري طغى الجانب السياسي ، وكان كبار الكتاب يكتبون عن الخلفاء والولاة موصين بلزوم الطاعة أو بالعودة إليها إذا حدث تمرد على السلطة الشرعية ، وكانوا يكتبون أيضاً العهود للقضاء وأرباب السيف والنقباء ، وكانت الوصايا تتخلل هذه العهود ، وصارت الوصايا الدينية في كل ما يكتب تقليدية مكررة حتى أن أباً اسحق الصابى يكرر الوصية باللتقوى واتخاذ القرآن أمماً .

ووردت بعض الوصايا الصادرة في ظروف خاصة لا نستطيع أن نعدها مبادئ يدعو إليها قائلها ، وإنما وردت في معرض أدبي خالص ، وتلك هي وصايا البخلاء التي كتبها الجاحظ في كتابه (البخلاء) ، وأيضاً وصايا

المكدين التي وردت في مقامات بديع الزمان الهمذانى ، وتدعوا إلى التحايل واستغلال الناس ، وهذه الوصايا الواردة في كتابي البخلاء والمقامات لون أدبي يهدف إلى التسلية واظهار المقدرة الفنية ، ولا يهدف كاتباهما إلى بث هذه المبادئ .

٤ - صورت هذه الوصايا أحوال المجتمع في السياسة والمجتمع والدين ، وحتى الوصايا الشاذة التي وردت على لسان الجاحظ وبديع الزمان الهمذانى إنما تعكس مظهاً من مظاهر الحياة في ذلك الوقت ، فوصايا البخلاء تعكس الحرمن على المال ، وتعكس الصراع الشعوبى بين الفرس والعرب ، وكان هذا الصراع الشعوبى أحد الدوافع التي دفعت الجاحظ إلى كتابة هذه الحكايات مبيناً بخل الفرس ، كما أن بديع الزمان صور المكدين الذين برزوا في المجتمع آنذاك ، وصور ألواناً من التحايل التي اتخذها أولئك المكدون للاستحواذ على المال بكل الطرق .

٥ - كانت هذه الوصايا تعرض في بساطة ووضوح وبعد عن الفلسفة ، وفي القرن الرابع لجأ كبار الكتاب إلى اظهار البراعة الفنية ، وأخذوا يقلبون المعنى على وجهه المختلفة ويعرضونه في صور عديدة ويوارزون بين الأوضاع التي يدعون إليها والأوضاع المخالفة لها مصوريين الفارق الشاسع بين الوضعين .

٦ - كانت الوصايا تمثل إلى الإيجاز ، ثم مالت إلى الطول في القرن الثالث وغلبت الوصايا المطولة في القرن الرابع ، ومنذ قيام الدولة العباسية ظهر قليل من الوصايا المطولة مثل وصية الإمام مالك لهرون الرشيد في القرن الثاني ، وتجاوز الثلاثين صفحة ، ومثل وصية الحسابي أحد زعماء المتصوفة في القرن الثالث ، وتزيد على وصية الإمام مالك في طولها .

٧ - اهتممت في هذا البحث بوصايا الفرق التي أخذت وصايا اتجاهها معيناً كوصايا الصوفيين والشيعة ، وكلاهما يتوجه اتجاهها دينياً ، ولكن الصوفيين يدعون إلى الزهد والفناء في الله ، والشيعة يدعون إلى طاعة الله وطاعة رؤسائهم ويضفون على رؤسائهم تقديساً غير معهود في التعاليم الإسلامية .

٨ - كانت هذه الوصايا تعتمد على الاقناع والاستئثار العاطفية ، وكان الاقناع عن طريق الآيات القرانية والآحاديث النبوية والحكم والأمثال والأقوال المأثورة ، وكان أيضاً عن طريق الاقناع العقلي .

٩ - اعتمد هذا البحث أساساً على الوصايا التثوية ، ولكنه لم يغفل الوصايا الشعرية وقد رجعت إلى دواوين أشهر الشعراء الذين أولعوا بالوصايا وعلى رأسهم أبو العتاهية والمتني ، وكان الأول زاهداً أو مدعياً للزهد فأكثر من الوصايا الدينية ، وكان الثاني صاحب فلسفة وحكمة فدعا إلى مبدأ القوة وسوءظن الناس والاعتماد على العقل .

١٠ - عرضت للسمات الفنية لأدب الوصايا من حيث الأفكار والمعانى ، ومن حيث العاطفة والخيال ، ومن حيث الأساليب ، ومن حيث الترسيل أو العناية بتجميل الأسلوب ، وتتبعت التطورات التي حدثت في هذا المجال على مر القرون الثلاثة .

١١ - أعطيت صورة للمنهج الذي اتخذه الوصايا في المطالع والخواتيم ، وفي مخاطبة من يوصونهم ، وحددت القوالب التي تصب فيها الوصايا كالمشافهة والخطبة والرسالة وغيرها .

١٢ - لم تكن الوصايا مقصورة على فئة معينة ، فقد كانت تصدر من نماذج عديدة من الناس ، وإن كانت تصدر في الغالب من الرؤساء ومن رجال الدين ، وكانت تصدر من الخلفاء والموزراء ومن على شاكلتهم ، وكانت تصدر من كبار الكتاب الذين يكتبون باسم رؤسائهم ، وكانت تصدر من العلماء والزاهدين والتصوفين ، وكانت تصدر من المظلومين إلى ظالميهم يوصون بالعدل ومخافة الله ، وكانت تصدر من الآباء والأمهات المشفقين على أبنائهم ، وهناك وصايا البخلاء والمكدين ، وهناك وصايا الشعراء أصحاب المذاهب والفلسفات المعينة ، ولم يكن للمرأة نصيب كبير من الوصايا حيث لم تكن المرأة تحتل مكاناً بارزاً في المجتمع ، ولم تكن تقوم بالأعمال المهمة .

١٣ - لا نستطيع أن نقول : إن الموصين كانوا يتمتعون بثقافات معينة ، فقد كانت الوصايا تصدر من جميع الطبقات ، والثقافة الوحيدة التي نستطيع

أن نحددها هي الثقافة الدينية ، فقد كانت الوصايا تدور في فلك التعاليم الإسلامية سواء أكانت نابعة من شعور صادق أو مزيف .

١٤ - بعد دراسة هذه الوصايا دراسة فنية وضح أن أدب الوصايا في القرنين الثاني والثالث ينتمي إلى مدرسة الطبع ، وأنه تطور في القرن الرابع وطبع بطابع مدرسة الصنعة التي سيطرت على الأدب في ذلك القرن ، وقد بينت ما تحقق في أدب الوصايا من سمات هاتين المدرستين .

ولم يهتم المؤرخون والأدباء بدراسة الوصايا دراسة فنية ، وقيل من اهتم بجمع شيء من وصايا العصر الجاهلي والإسلامي والأموي ، وهذا الكتاب جمع مجموعة كبيرة من وصايا العصر العباسي ، وشرح العوامل المؤثرة في الوصايا والتي وجهتها في هذه الحالات وشرح ما يغضض منها ، وضم المتشابه منا ، وقسمها إلى وصايا سياسية وأخرى اجتماعية وثالثة دينية ، ونسب كل وصية إلى قائلها ، وعين من وجهت اليهم الوصايا ، وإن كانت هناك وصايا عامة غير موجهة إلى شخص معين ، ثم إن هذا البحث درس الوصايا دراسة فنية مفصلة من حيث الموضوعات والأفكار والمعانى والعاطفة والخيال والألفاظ والعبارات والمحسنات البديعية ، وعين ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية والدينية من خلال هذه الوصايا ، ثم عين المدارس الفنية التي ينتمي إليها أدب الوصايا .

وأنصف البحث بعض العلماء الذين غمطوا حقهم ، ففى صحفية بشر ابن المعتمر يدعوه هذا العالم البلاغى إلى أن تكون الكلمة ملائمة فى موضعها ، ويدعوه إلى مراعاة مقتضى الحال ، وينهى عن التوغر والتعقيد وعن اللفظ العامى والسوقى والوحشى ، ثم انه يدعوه إلى الاهتمام باللفظ والمعنى معا ، ومن قوله فى ذلك : « ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١) .

وهكذا نستطيع أن نقول : ان بشر بن المعتمر سبق عبد القاهر الجرجانى في القول بأهمية اللفظ والمعنى معا .

وكلشف هذا البحث عن أن **الجاحظ** كان أحد العوامل التي ألهمت بديع الزمان مقاماته ، ومما جاء في كتاب **البخلاء** : « أنا لو ذهب مالي لجلست قاصرا ، أو طفت في الأفاق كما كنت مكديا ، وصرت محتملا بالنهار واستعملت صناعة الليل ، أو خرجم قاطع طريق » (٢) فهو يتحدث عن المكدين وحيلهم ، ثم يتحدث عن الصعاليك والزواقيل ومردة الأعراب وما إلى ذلك ، وكان بديع الزمان ذا مخيلة لاقطة ، ونحسب أن هذه الكتابات كانت من العوامل الملهمة له .

وأمل أن يكون هذا البحث قد حقق الهدف منه ، وأن ينتفع به الدارسون ، وما توفيقى إلا باش .

المراجع

- ١ - أحكام أهل الذمة ج ١ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية . مطبعة جامعة دمشق .
- ٢ - أخبار الحلاج . على بن أنجب السلمى . مطبعة القلم . باريس .
- ٣ - اختيار المنظوم والمنثور ج ١٣ - ابن طيغور . مخطوط .
- ٤ - أدب الدنيا والدين . على بن محمد الماوردي . دار اقرأ بيروت .
- ٥ - الأدب الصغير . عبد الله بن المفعع . مكتبة البيان . بيروت .
- ٦ - الأدب الكبير . عبد الله بن المفعع . مطبعة منيمنة الحديثة . بيروت .
- ٧ - اعلام الموقعين ج ٤ - ابن قيم الجوزية . مكتبة الكليات الأزهرية .
- ٨ - أمالى المرتضى ج ١ - الشريف المرتضى . دار احياء الكتب العربية .
- ٩ - الامامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) ج ٢ عبد الله بن مسلم بن قتيبة . مؤسسة الوفاء . بيروت .
- ١٠ - الأوراق ج ١ ، ٢ . محمد بن يحيى الصولى . مطبعة الصاوى .
- ١١ - البداية والنهاية ج ١٠ - الحافظ بن كثير . دار للفكر العربى .
- ١٢ - البيان والتبيين ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - الجاحظ . مطبعة المدى ط ٥ .
- ١٣ - تاريخ بغداد ج ٩ - أحمد بن علي الخطيب البغدادى ، دار الكتب .
- ١٤ - تاريخ الطبرى ج ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ - محمد بن جرير الطبرى .
دار المعارف بمصر .
- ١٥ - تاريخ الكامل ج ٥ ، ٨ ، ٩ - أبو الحسن على بن الأثير . دار صادر
بيروت .
- ١٦ - تحفة الوزراء . عبد الملك الثعالبى . مطبعة العانى بغداد .
- ١٧ - تلبيس ابليس . عبد الرحمن بن الجوزى . مطبعة النهضة بمصر .
- ١٨ - الجامع الصحيح . سنن الترمذى ج ٤ . محمد بن عيسى بن سورة .
دار احياء التراث العربى . بيروت .
- ١٩ - حلية الأولياء ج ٩ ، ١٠ - احمد بن عبد الله الأصبهانى . مطبعة
السعادة .

- ٢٠ - خلاصة الذهب المسبوك . عبد الرحمن الاربلى . مكتبة المثنى . بغداد
- ٢١ - رسالة الامام مالك - الامام مالك - المطبعة الاميرية .
- ٢٢ - الرسالة القشيرية . عبد الكرييم القشيري . مطبعة محمد على صبيح .
ومطبعة حسان .
- ٢٣ - رسائل البلفاء جمع محمد كرد على . مطبعة الظاهر بالقاهرة .
ومطبعة لجنة التأليف والترجمة .
- ٢٤ - رسائل الجاحظ ج ١ - رسالتة الصحابة . مطبعة السنة المحمدية .
- ٢٥ - اثروض الأنف ج ٢ عبد الرحمن بن عبد الله الختعمي . دار الفكر
العربي .
- ٢٦ - زهر الآداب ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - ابراهيم بن على الحصري . دار
الجيبل .
- ٢٧ - سيرة عمر بن عبد العزيز - أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى .
مطبعة المؤيد .
- ٢٨ - سيرة عمر بن عبد العزيز . أبو محمد عبد الله بن الحكم . مطبعة
الاعتماد بمصر .
- ٢٩ - صبح الأعشى ج ٩ ، ١٠ ، ١٤ - أحمد بن على القلقشندى . المطبعة
الأميرية بالقاهرة .
- ٣٠ - العقد الفريد ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - أحمد بن عبد ربه - لجنة التأليف
والترجمة والنشر .
- ٣١ - عيون الأخبار ج ١ عبد الله بن مسلم بن قتيبة . دار الكتاب العربي
بيروت - ج ٢ عبد الله بن مسلم بن قتيبة . دار الكتب العلمية بيروت .
- ٣٢ - العمدة . ج ١ - الحسن بن رشيق القيراطوني . مطبعة السعادة .
- ٣٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٢٢ - أحمد بن على بن حجر
العسقلانى . مكتبة الكليات الأزهرية .
- ٣٤ - كتاب البخلاء . الجاحظ . المطبعة الخيرية ط ١ .

- ٣٥ - كتاب بغداد ج ٦ - أحمد بن طاهر بن طيفور . مكتب نشر الثقافة
الإسلامية .
- ٣٦ - كتاب الخراج . أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم . المطبعة السلفية .
- ٣٧ - كتاب رسائل الخوارزمي - أبو بكر الخوارزمي . مطبعة عبد الرحمن
رشدي ط ١ .
- ٣٨ - اللمع . السراج الطوسي . دار الكتب الحديثة بمصر .
- ٤٠ - ما ثر الانفاف في معالم الخلافة . ج ١ - أحمد بن عبد الله القلقشندي .
- ٤١ - المحاسن والمساوئ . الجاحظ . مطبعة الفتوح الأبية ط ١ .
- ٤٢ - مروج الذهب ج ٢ على بن الحسين المسعودي . دار الأندلس . بيروت .
- ٤٣ - المستطرف ج ١ ، ٢ شهاب الدين محمد بن أحمد الأ بشيبي . دار
الكتب العلمية .
- ٤٤ - معجم الأدباء ج ٥ ، ٢٠ ياقوت الحموي . مطابع دار المأمون .
- ٤٥ - المعرون والوصايا - أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد . دار
احياء الكتب العربية .
- ٤٦ - المغرب في حل المغرب ج ٤ عبد الملك بن سعيد وأخرون . مطبعة بريل .
- ٤٧ - مقامات بديع الزمان الهمذاني . بديع الزمان الهمذاني . المطبعة
المحمودية بمصر ط ٢ .
- ٤٨ - النحو الوافي ج ٣ . عباس حسن . دار المعارف بمصر .
- ٤٩ - نشور المحاضرة ج ٢ - أبو علي المحسن التنويхи . دار صادر بيروت .
- ٥٠ - نهاية الأدب ج ٥ ، ٦ - أحمد بن عبد الوهاب التوييري . مطبعة
دار الكتب .
- ٥١ - الوصايا - الحارث بن أسد المحاسبي . مطبعة محمد على صبيح .
- ٥٢ - الوصايا الخالدة - جمع عبد البديع صقر - دار غريب للطباعة .
- ٥٣ - وصايا ملوك العرب في الجاهلية يحيى بن الوشائ . مطبعة بغداد .
- ٥٤ - وفيات الأعيان ج ٤ - أحمد بن محمد بن خلكان . دار صادر بيروت .
- ٥٥ - يتيمة الدهر ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - الثعالبي . دار الكتب العلمية
بيروت والمطبعة الحفنيه .

الفهرس

الصفحة

مقدمة	٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
تمهيد - الوصايا قبل العصر العباسى	٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
(أ) فى العصر الجاهلى	٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
(ب) فى صدر الاسلام	١٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠
(ج) فى عهد بنى أمية	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠
الباب الأول - اتجاهات الوصايا فى العصر العباسى	٢٩٠٠٠٠٠٠٠
الفصل الأول - الوصايا السياسية	٠٠٠٠٠٠٠
فى فترة الاعداد للخلافة العباسية	٣٢٠٠٠٠٠٠
وصية محمد بن على العباس لرجال الدعوة - وصية ابراهيم بن محمد لأبى مسلم الخراسانى - وصية ابراهيم بن محمد لأخيه أبى العباس	٠٠٠٠٠٠٠
فى صدر الدولة العباسية	٣٥٠٠٠٠٠٠
وصية أبى مسلم لقواده - وصية عبد الله بن معاوية لأبى مسلم - وصية السفاح لهارون الرشيد	٠٠٠٠٠٠٠٠٠
فى عهد الخليفة المنصور	٣٧٠٠٠٠٠٠
وصية المنصور للمهدى بالخلافة - وصية المنصور للمهدى بالتقى وحسن التصرف - وصية المنصور ل حاجبه الخصيب - وصية المنصور لرجل ذكره بالله	٠٠٠٠٠٠٠٠٠
فى عهد الخليفة المهدى	٤٣٠٠٠٠٠٠
وصية المهدى للهادى - وصية المهدى للرشيد - وصية المهدى للربيع ابن أبى الجهم	٠٠٠٠٠٠٠٠

٤٦	في عهد الرشيد عهد الرشيد للأمين بالخلافة - عهد الرشيد للمؤمن بالخلافة - وصية الرشيد لهرثمة - وصية يحيى البرمكي بشأن معاملة الملوك - وصية الفضل بن الربيع بشأن معاملة الملوك - وصية عبد الملك بن صالح لأمير سرية
٥٠	في عهد الأمين والمؤمن وصية الأمين لأحمد بن مزيد - وصية الأمين لعلى بن ماهان - وصية زبيدة لعلى بن ماهان - وصية المؤمن لعلى الرضا بولاية العهد - وصية المؤمن لأخيه المعتصم - وصية المؤمن في مرضه الأخير - وصية أحمد بن يوسف - وصية طاهر بن الحسين لابنه
٥٨	بعد الخليفة المؤمن إلى منتصف القرن الثالث وصية الم توكل لأبنائه الثلاثة بولاية العهد
٦١	في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وصية الموفق لأحد رجاله - وصية عبد الله بن طاهر باستخلاف أخيه - وصية ابن الفرات للعباس بن الحسن - وصية أبي على البصیر إلى عبد الله بن خاقان
٦٤	في القرن الرابع الهجري وصية أبي الهيجاء لابنه ناصر الدولة - وصية أبي على الصبغاني بشأن التعامل مع الملوك - وصية ابن العميد لأبي عبد الله الطبرى - وصية الخليفة القائم للاخشيد - وصية عبد العزيز بن يوسف لعasd الدولة - وصية ابن العميد لابن بلكا - وصية أبي بكر الخوارزمي لوزير خوارزمشاه - وصية الخوارزمي لأبي اسحاق الحجاجب - وصية الصاحب بن عباد لفخر الدولة
٧١	الفصل الثاني - الوصايا الاجتماعية

الحادي

- ٧٣ فى صدر الدولة العباسية وصية عبد الله معاوية لابنه - وصايا ابن المفع لم خدم السلطان - وصية ابن المفع بطلب العلم وتعلمه - الوصايا الواردة فى كتابى (الأدب الصغير والأدب الكبير) - وصية ابن المفع للمنصور بشأن القضاء - وصية أبي حنيفة لابراهيم بن أدهم - وصية المنصور لابنه المهدى - وصية شبيب بن شيبة للمنصور بشأن أهل الذمة - وصية بشر بن المعتمر فى البلاغة

٨١ فى عهد الخليفة المهدى وصية المهدى للهادى بشأن الزناقة - وصية ابن خريم للمهدى - وصية المهدى للفضل بن الربيع - وصية أبي عبيد بالسكتوت

٨٢ فى عهد الرشيد وصية الرشيد للأحمر النجوى - وصية يحيى البرمكى لابنه بالتعلم - وصية جعفر بن يحيى بالايجاز - وصية محمد بن الليث لجعفر بن يحيى - وصية يحيى لابنه الفضل بأداء الواجب - وصية عبد الملك بن صالح لابنه - وصايا تتعلق بمعاملة الملوك - وصايا باشخاص

٨٨ فى عهد المؤمن وصايا المؤمن لأولاده - وصية الحسن بن سهل للمؤمن - وصية أبي داؤد بالالتزام بأداب المراقبة - وصية طاهر بن الحسين لابنه - وصية بالعشق - وصية بشخص

٩٢ بعد عصر المؤمن الى منتصف القرن الثالث وصية أبي تمام للبحترى - وصية بلاغية للجاحظ - وصايا اخوانية للجاحظ - وصية للجاحظ فى الآداب العامة - وصية يوحنا بن ماسويه - وصايا باشخاص - وصايا البخلاء

٩٨ فى النصف الثاني من القرن الثالث وصية الموفق لأحد رجاله - وصية أحمد بن المبر فى البلاغة - وصية ابن المعتز فى أدب المجالس - وصية بشخص

الصفحة

فى القرن الرابع الهجرى ١٠١

وصية أبي الحسن الماوردى بمراعاة الله - وصية أبي اسحاق الصابى
لأحد أرباب السيف - وصية أحمد بن مسکوریه لنفسه - وصية أحمد
ابن سهل البلى بالشورى - وصية المتبنى لعلى التنوخى - وصية
الخوارزمى لمريض بالجرب - وصية الهمذانى لوارث مال - وصية
الصاحب بن عباد بالقاضى الجرجانى - وصايا المقامات - وصايا
المنطوفين

الفصل الثالث - الوصايا الدينية ١١٣

فى صدر الدولة العباسية ١١٥
وصية عبد الله بن معاوية لأبى مسلم الخراسانى - وصية امرأة لابنها
- وصية عبد الله بن معاوية لصديق له

فى عهد المنصور ١١٧
وصايا عمرو بن عبيد للمنصور - وصية الأوزاعى للمنصور - وصية
رجل للمنصور - وصية عبيد الله العمرى للمنصور - وصية الأوزاعى
لآخر له - وصية أبي حنيفة لابراهيم بن ادهم ، ووصية ابن ادهم لأبى
حنيفة - وصايا لابراهيم بن ادهم

فى عهد الخليفة المهدى ١٢٢
وصية المهدى بتقوى الله - وصية المهدى لواليه - وصية شبيب بن شيبة
للمهرى - وصية صالح بن عبد الجليل للمهدى - وصايا الزاهدين -
وصية مالك الشافعى

فى عهد الرشيد ١٢٦
وصايا ابن السمك للرشيد - وصية أبي العتاهية للرشيد - وصية
الشافعى لآخر له فى الله - وصية مالك لليث بن سعد - وصية القاضى
ابن شريك لنفسه

الصفحة

١٢٢	في عهد المأمون	وصية المأمون لابنه العباس - وصية طاهر بن الحسين لابنه - وصية على الرضا بعدم الركون الى الدنيا - وصية أحمد بن حنبل لأهله - وصايا بشأن خلق القرآن - وصية ابن المبارك بترك آراء عمرو بن عبيد
١٣٥	بعد المأمون الى منتصف القرن الثالث	وصية المعتصم لابنه الواثق - وصية عالم للمتوكل - وصية المتوكل لأبنائه الثلاثة - وصايا الجاحظ بالأنة وعدم الغضب - وصية الحارث الهماسبي
١٤٩	في النصف الثاني من القرن الثالث	وصية الموفق لأحد رجاله
١٤١	في القرن الرابع الهجري	وصية الماوردي لأحد الوزراء - وصية الطائئ لله لأبي الحسن العلوى - وصية الحكم بأمر الله لأحد القضاة - وصايا الشيعة - وصايا الصوفيين
١٥٥	الباب الثاني : الخصائص الفنية لأدب الوصايا	الموضوعات والعوامل المؤثرة
١٥٧	الأفكار والمعانى	العاطفة
١٦٦	الأسلوب (١) الألفاظ والعبارات	(ب) التصوير
١٨٣	السجع والمحسنات البديعية	المطالع والخواتيم
٢١٩		
٢٢٦		

الصفحة